تمام المنة

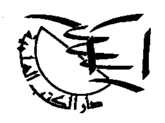
بأحكام البدعة والسنة

تأليف

الشيخ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

رئيس جمعية أهل القرآن والسنة

منشورات
محمد علي بيضون
لنشر كتب السنة والجماعة
دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان



الطبعة الأولى
١٤٢٣ هـ ـ ٢٠٠٢ م

دار الكتب العلمية
بيروت ـ لبنان

رمل الظريف، شارع البحتري، بناية ملكارت
هاتف وفاكس : ٣٦٤٣٩٨ ـ ٣٦٦١٣٥ ـ ٣٧٨٥٤٢ (١ ٩٦١)
صندوق بريد : ٩٤٢٤ ـ ١١ بيروت ـ لبنان

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beirut - Lebanon

Ramel Al-Zarif, Bohtory St., Melkart Bldg., 1st Floor
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
P.O.Box : 11 - 9424 Beirut - Lebanon

Dar Al-Kotob Al-ilmiyah
Beyrouth - Liban

Ramel Al-Zarif, Rue Bohtory, Imm. Melkart, 1ére Etage
Tel. & Fax : 00 (961 1) 37.85.42 - 36.61.35 - 36.43.98
B.P. : 11 - 9424 Beyrouth - Liban

ISBN 2-7451-3678-X



http://www.al-ilmiyah.com/

e-mail: sales@al-ilmiyah.com
info@al-ilmiyah.com
baydoun@al-ilmiyah.com

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

إن الحمد لله نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له - صلى الله عليه وسلم - وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً﴾ [النساء: ١].

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾ [الأحزاب: ٧٠-٧١].

وبعد: فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي، هدي محمد ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار.

■ **أما بعد:** السُّنَّة والبدعة، فالسُّنَّة هي الطريق المستقيم طريق النبي - ﷺ -، والبدعة ضد السُّنَّة، بل هي ضلالة وفي النار، واذكرك عزيزي القارئ بقول الله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً مُّبِيناً﴾** [الأحزاب: ٣٦].

وقول النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردٌّ**»، (متفق عليه).

وحديث ابن عباس - رضي الله عنهما - قال: كنت خلف النبي - صلى الله عليه وسلم - يومًا فقال: «**يا غلام إني أعلمك كلمات: احفظ الله يحفظك، احفظ الله تجده تجاهك، إذا سألت فاسأل الله، وإذا استعنت فاستعن بالله، واعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيء لن ينفعوك إلا بشيء قد كتبه الله لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك لن يضروك إلا بشيء قد كتبه الله عليك، رفعت الأقلام وجفت الصحف**» (الأربعون النووية

بتحقيقنا) .

وقول الله تعالى : ﴿ **إياك نعبد وإياك نستعين** ﴾

في مصر المحروسة حوالي (٩٥٪) يعبدون الله – تعالى – على هواهم بل على هوى إبليس اللعين، وأصبحت البدعة عندهم سنة، والسُّنَّة أصبحت بدعة، وإذا رأيت أفعالهم يتهيئ لك أنك في عصر ما قبل بعثة النبي – صلى الله عليه وسلم – ، فمنهم من يطوف حول قبور الأموات، ويطلب منهم المدد والعون، ويرفع لهم أكف الضراعة، ويعتقدون فيهم النفع والضر، وإذا نصحتهم يقولون لك : إنك تكره أهل البيت، وتكره أولياء الله الصالحين، ويفعلون ذلك على مرأى ومسمع بل ومباركة من كبار العلماء، وكثيراً ما يسألني سائل بعد خطبة الجمعة أو المحاضرة يقول لك : أنت تتحدث عن الموالد . . . إلخ، وتقول : إن هذه الأشياء بدع ربما تؤدي إلى الشرك، ولكن نحن نرى أن فضيلة شيخ الأزهر يحضر هو وكبار العلماء وفضيلة المفتي هذه الاحتفالات، ولا ينكرون ذلك، ولا يتحدثون عنها، وبذلك يكون هؤلاء العلماء موافقون على ذلك وبحضورهم يظن الناس أن هذه الأشياء هي عين السُّنَّة .

أقول : إن العلماء في مصر حسابهم عند الله – تعالى – يوم القيامة .

وأقول : إن سبب سكوتهم على ذلك أنهم يحصلون على نصيب الأسد من صناديق النذور – السُّحت – . والأمر الثاني : هو الخوف على مناصبهم البراقة، فإذا أنكروا مثلنا فإنهم يخسرون هذه المناصب ويمنعون من الظهور في وسائل الإعلام المسموعة والمرئية والمقروءة .

يا علماء العصر يا ملح البلد   كيف يصلح الملح إذا الملح فسد

من أجل ذلك أقدم لك عزيزي القارئ كتابنا « تمام المنة بأحكام السُّنَّة والبدعة » .

اقرأ وتدبر ثم قدمه هدية لأهلك وجيرانك وأصدقائك لكي تعم الفائدة ، ولله الحمد والمنة .

الشيخ/ علي أحمد عبد العال الطهطاوي

رئيس أهل القرآن والسُّنَّة

❊ ❊ ❊

١- السُّنَّة
(أقسامها، منزلتها من القرآن، وظيفتها، فضلها)

السُّنَّة في اللغة: الطريقة . وشرعًا: الطريقة المسلوكة في الدين، بأن سلكها رسول الله - ﷺ- أو السلف الصالح من بعده .

وهي عند أهل الحديث: «أقوال النبي - ﷺ - و أفعاله وإقراراته وأحواله وصفاته» . وعلى هذا المعنى تكون شاملة للواجب، والمندوب، والمباح، سواء كان من قبيل الأعمال، أو الأقوال، أو الاعتقادات، أي أن من السُّنَّة ما يؤدَّى على سبيل الوجوب، ومن ذلك تفصيله - ﷺ - في العبادات والعقيدة .

ومنها ما كان أداؤه على سبيل الندب كصيام التطوع، وصلاة التهجد، والضحى، والتراويح، والعيدين، وغير ذلك من الطاعات التي تؤدى من غير مقتض للوجوب على سبيل الاستزادة من الثواب .

ومنها ما كان أداؤه مباحًا، وذلك كفعله - ﷺ - فيما يتصل بطبائع الناس، كالأكل، والقيام، والقعود، والنوم، والجلوس على مائدة الطعام، وطريقة تناول الطعام، وأنواع المراكب في السفر، فكل ذلك وأمثاله مباح له - ﷺ - ولأمته، ولا يطلق على فعل منها أنه واجب أو مندوب، أو محرم، أو مكروه؛ لأنها كلها أفعال تتصل بالجِبِّلَّة، أي: طبائع الناس، ومعلوم أنها تتغير من عصر إلى عصر في ضوء التسابق العلمي، والإسلام دين يسر، وليس فيه ما يعقد على الناس حياتهم، أو يتصدى للتقدم العلمي، حتى لا يتهم الإسلام بالجمود؛ بل نراه يدعو إلى التقدم والرقي لتكريم بني آدم، وبخاصة أهل الإيمان، وذلك في قوله سبحانه: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢] .

أقسام السُّنَّة

تنقسم السُّنَّة إلى قسمين: (فعلية، وتركية) .

أولاً: السُّنَّة الفعلية:

هي التي فعلها الرسول - ﷺ - ويندرج تحتها ثلاثة أنواع:

١- **ما كان من أفعال الجبلة (الطبيعة) أي:** طبائع الناس. وحكمها: الإباحة، كالأكل، والقعود، والمشي، والنوم... وغيرها مما يُباح فعله للنبي - ﷺ - ولأمته، وهذا ما قرره الجمهور.

٢- **ما كان خاصاً به - ﷺ -:** كوجوب التهجد بالليل، والمشاورة، والتخيير لنسائه، وإباحة الوصال في الصوم، والزيادة على الأربع في النكاح، ودخول مكة المكرمة بغير إحرام... وغير ذلك مما كان خاصاً به - ﷺ - فلا يجوز لنا أن نقلده فيه.

٣- **ما كان بيانًا منه لحكم الله - تعالى -:** وذلك كتفصيل القول في أمر الله تعالى ونهيه، وكذلك أوامره - ﷺ - ونواهيه.

وهذا النوع من هديه- ﷺ - يخضع للحكم التكليفي، وجوبًا، أو ندبًا، أو تحريمًا، أو تحديدًا لمراد الشارع.

مثال ذلك: توجيهاته- ﷺ - بالإفصاح عن مراد الله تعالى في قوله تعالى: ﴿**وأقيموا الصَّلاة...**﴾ [البقرة: ٤٣].

فالأمر في الآية عام وطلب على سبيل الإجمال حيث لم يفصح عن أنواع الصَّلاة وكيفيتها وعدد ركعاتها، وهل هي فرض أو سنة، فبيَّن - ﷺ - كل ذلك بتوجيه الله له عن طريق جبريل - عليه السلام - وذلك في أحاديث كثيرة رويت ببيان فعله - ﷺ - في الصَّلاة، ثم أصدر أمره - ﷺ - المقتضى للوجوب، وذلك فيما رواه البخاري في الأدب المفرد قوله - ﷺ -: «**صَلُّوا كَمَا رأيتموني أُصلي**».

فقد بيَّن - ﷺ - أن فرائض الصَّلاة خمس في اليوم والليلة، وهذه واجبة، إلا أن يتطوع المسلم كصلاة الضحى، وعدد ركعات الليل، والتراويح في رمضان، والعيدين.
وكذلك بيَّن - ﷺ - مراد الله من الأمر بقطع يد السارق في قوله سبحانه: ﴿**فاقطعوا أيديهما**﴾ [المائدة: ٣٨] فبين أن القطع يكون من مَفْصِلِ الرسغ، لا من المِرْفق، ولا من الكتف.

ومثل هذا ما فصل به - ﷺ - القول في بيان أحكام الزكاة، والصيام والحج، فقال - ﷺ - في شأن الحج: «**خُذُوا عني مَنَاسككُمْ**».

ومعلوم أن القرآن الكريم لم يبين ترتيب المناسك في الحج والعمرة ولا كيفية أدائها، فقام بهذا البيان العملي النبي - ﷺ - ثم أمر أصحابه - رضي الله عنهم - وجميع المسلمين أن يقلدوه في أداء النسك.

وكذلك الحال في كل ما يتصل بأحكام الصيام والزكاة على التفصيل المبين في كتب الفقه والحديث .

٤- من السُّنَّة الفعلية أفعال ليست جبلية ولا مختصة به ولا بيانًا لمراد الشارع ، ففعله - ﷺ - إما أن يظهر فيه قصد القربى كخلعه - ﷺ - نعلَه عند الصَّلاة، وحلقه - ﷺ - رأسه في الحديبية حين أمر الصحابة به فلم يفعلوا حتى حلق، فقيل: هو للوجوب. وقيل: للندب. وقيل: للإباحة. وقيل: بالوقف وللعلماء في اختيار هذه الأحكام توجيهات ذكرها صاحب كتاب الإبداع .

وإن لم تظهر فيه القربى ففيه الأقوال الأربعة، ورجح الشوكاني كونه للندب معللاً ذلك بأن فعله - ﷺ - لا يخلو من قربى، وأقل ما يتقرب به المندوب، ولا دليل على زيادة على الندب فوجب القول به ، وأقرب مثال على ذلك لبس الجبة، ففعله هذا يحتمل أن يكون قربى على سبيل الندب، أو إخراج من الحظر إلى الإذن فيه فقط .

ومثله: لبس القباء (العباءة) حينًا، ثم خلعها، فهذا إذا فعله المسلم بنية التشبه بالرسول - ﷺ - أثيب على نيته، ولكن لا يكون الفعل ملزمًا له تعبدًا - والله أعلم .

ثانيًا: السُّنَّة التركية:

ما تركه النبي - ﷺ - مع قيام الداعي والمقتضي، ولم يكن هناك منه مانع: مثل ترك الأذان للعيدين، وكذلك الإقامة لهما، والغُسل لكل صلاة والأذان والإقامة للتراويح، والقراءة على الموتى، وصلاة ليلة النصف من شعبان، والزكاة على الخضار وغير ذلك مما تركه - ﷺ - مع قيام الداعي لفعله، فهذه الأمور تبقى متروكة كما هي تأسيًا به - ﷺ - لأن فعلها يعد ابتداعًا، فالترك واجب .

ذلك؛ لأن الله تعالى كلفنا اتباع الرسول ﷺ في فعله الذي يتقرب به إذا لم يكن من باب الخصوصيات، كذلك أمرنا اتباعه ﷺ فيما تركه ، ومن ثَمَّ يكون الترك سنة .

وكذلك فإن العبد لا يتقرب إلى الله سبحانه بترك ما فعل النبي - ﷺ - ولا يتقرب إليه بفعل ما ترك .

الرد على القائلين بأن الخلفاء الراشدين فعلوا أمورًا تركها النبي ﷺ

إن ما تركه النبي - ﷺ - في عهده وواظب على تركه مع عدم المانع من فعله، ووجود المقتضى، والوقت وقت تشريع ومع ذلك تركه، فيعد ذلك كله دليلاً على أن المشروع هو الترك، وأن الفعل خلاف المشروع ففعله بدعة، لا يتقرب به إلى الله - عز وجل - لأن القربى لابد أن تكون مشروعة .

أما ما فعله الخلفاء الراشدون ولم يكن موجوداً من قبل، أي: في عهد النبوة، ففعلهم هذا قائم على أن المقتضى للفعل لم يكن موجوداً في عهد النبي - ﷺ - ثم وجد في عهد الخلفاء، كجمع المصحف الشريف أي: جمع القرآن الكريم في كتاب واحد، ولم يكن النبي - ﷺ - قد جمعه إلى أن انتقل إلى رحاب ربه، فتركه في العهد النبوي لعدم وجود المقتضى، ولتوقع أن يغير الله ما يشاء أو ينسخ ما يشاء ﴿ يمحو الله ما يشاءُ ويثبت ﴾ [الرعد: ٣٩] . وأيضاً فإن الوحي كان لا يزال ينزل بما شاء الله .

فلما انتهى الوحي بموت النبي - ﷺ - وأمن التغيير، وخيف على القرآن الكريم من الضياع، بموت الحفاظ وكتبة الوحي حينئذٍ وجد المقتضى لجمعه، وهو المحافظة عليه من الضياع أو التحريف، وذلك ليبقى دستوراً خالداً لهذه الأمة .

وأما المواظبة على صلاة التراويح في جماعة طوال شهر رمضان ولم يكن هذا الفعل في عهد النبي - ﷺ - ولكن فعله عمر - رضي الله عنه - في خلافته واستمر عليه المسلمون، فترك النبي - ﷺ - صلاتها في جماعة كان لوجود المانع، وهو الخوف من فرض هذه الصَّلاة على الأمة، فلما مات النبي - ﷺ - صلاها عمر في جماعة لزوال المانع، وكان دليله على ذلك أن النبي - ﷺ - صلاها في جماعة في بعض ليالي رمضان .

هذا، ومما يجب أن نؤكد عليه أنه ليس من حق أحد مهما أوتي من العلم أن يجترئ على فعل أمر تركه النبي - ﷺ - أما فعل الصحابة وبخاصة الخلفاء الراشدين فيعدُّ سنة أخبر بها النبي - ﷺ - في قوله: « ... فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي عضُّوا عليها بالنواجذ » .

فما فعله الصحابة - رضي الله عنهم - بعد موت النبي - ﷺ - يُعد سنة أو من المصالح المرسلة، وسوف أوجه القول فيها عند الكلام على الفرق بين البدعة والمصالح المرسلة .

❖ ما يفعل أو يترك وليس بحرام ولا مكروه:

هناك أمور في حياة الناس تدور بين الفعل والترك، وفعلها أو تركها لا يؤدي إلى الحرمة أو الكراهة .

كالأكل مثلاً كان للنبي - ﷺ - هيئة في جلوسه وتناوله للطعام والشراب، فلاشك أن التأسي برسول الله ﷺ فيه فضل وخير .

أما إن جلس الناس على المائدة، وأكلوا بالملاعق أو غيرها فلا يوصف فعلهم هذا بحرام، ولا مكروه؛ لأنه لم يثبت فيه نهي، وقد يكون فيه حفظ للطعام، وراحة

للجالسين، وبخاصة من تعودوا الجلوس على كراسي أو نحوها .

وأما قول عائشة - رضي الله عنها - : «**أربع من البدع أحدثت بعد النبي - ﷺ - : الشبع - المناخلُ - الغُسْلُ بالأشْنَان - المائدة**» فإنه لا يدل على تحريم هـذه الأربعة؛ لأن منها الغسل بالأشـنان وهو نظافة يحبـها الدين، كـما ذكر ذلك الغـزالي في الإحيـاء، وصاحب الإبداع(١) .

وهناك أمور استحدثت بـعد أن طلبتها حياة الناس في ضوء التقـدمات العلمية، ولم يرد نهي يمنع فعلها فلا تُوصف بالحرمة ولا الكراهة، وسوف أفصـل القول فيها في موضعها من هذا الكتاب - والله تعالى أعلم .

• مكانة السُّنَّة من القرآن الكريم ووظيفتها:

القرآن الكريم هو كتاب الله المحكم الذي تولى حفظه ﴿**ولا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حـميد**﴾ [فصلت: ٤٢] ، وهو دستور الله تعـالى للبشر في الأرض وتشريعه إن تمسكوا به وعـملوا بما فيه سعدوا وإن هجروه، وأغفـلوا أحكامه شقوا وضلوا وذلوا .

وجـاءت السُّنَّة المطهـرة تبين وتفـصح عمـا في القـرآن الكريم، ففـصَّلت المجـمل، وخصصت العام، وأفـصحت عن المبهم، ففصل -ﷺ- الأحكام الشرعـية، وكل ما يتصل بالعبادات والعقيدة والمعاملات والسلوكيات بمنهاج واضح، وبيان شاف .

وقد عُدَّت السُّنَّة المصدر الثاني للشريعة الإسلامية، ومن ثَمَّ كان اتباع النبي - ﷺ - واجبًا أمر به القرآن، قال تعالى: ﴿**قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله**﴾ [آل عمران: ٣١] .

فجعل سـبحانه وتعالى علامة مـحبته اتباع الرسول - ﷺ - فـمن لا يتبع الرسول، ويدعي محبته فهو كاذب في دعواه؛ لأنه عـصيانه للنبي - ﷺ - عصيان لله ، وقد أفصح ربنا سبحانه عن ذلك بقوله: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨٠] .

وقال تعالى: ﴿**قل أطيعوا الله وأطيعوا الرسول فإن تولوا فإنما عليه ما حُمل وعليكم ما حُملتم وإن تطيعوه تهتدوا وما على الرسول إلا البلاغ المبين**﴾ [النور: ٥٤] .

وسـر تكرير الفعـل يكمن في الدلالة على أن مـا يأمر به رسـول الله - ﷺ - تجب طاعته فيه، وإن لم يكـن مأموراً به بعينه في القرآن، فتجب طاعة الرسـول مفردة كما تجب

(١) انظر: هذه دعوتنا (٢٩) .

طاعته مقرونة بأمر الله سبحانه، وقد أفصح - ﷺ - عن هذا التوجيه في قوله: «**يوشك رجل شبعان متكئ على أريكته يأتيه الأمر من أمري فيقول: بيني وبينكم كتاب الله ما وجدنا فيه من شيء اتبعناه. ألا إني قد أوتيت الكتاب ومثله معه**».

وفي هذا القول رد على من ينكر الأخذ بالسُّنَّة والعمل بها، فمن كان حاله كذلك فهو إنسان مخبول العقل، ذلك لأنه ينكر ما هو معلوم من الدين بالضرورة، فالأمة في حاجة إلى التفصيل الشافي الواضح الذي نراه في السُّنَّة فبدونه لا يمكن أن تتحقق تأدية العبادات والحدود والسلوكيات وفق المنهج الرباني الذي ارتضاه الله سبحانه لعباده، ويكفي أن الله تعالى يقول: ﴿ **وإن تطيعوه تهتدوا** ﴾ [النور: ٥٤] ويكفي للمنكرين ردعًا وزجرًا تهديدهم بمصيبتين إن خالفوا أمره - ﷺ - وذلك قوله تعالى: ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ [النور: ٦٣] والكلام في هذا المقام يطول وليس هذا موضعه .

ولكن ما يجب أن نؤكد عليه أن التمسك بالسُّنَّة أمر واجب، ذلك لأن التارك للسنة يُعَدُّ تاركًا للشرع في عمومه، وكلمة السُّنَّة في عرف أهل الحديث تشمل دين الله عقيدة وعبادة، وعملاً وواجبًا ونفلاً وأخلاقًا . رزقنا الله الاتباع، وصرفنا عن الابتداع.

● **الأمر باتباع السُّنَّة ثابت في القرآن الكريم:**

لقد وجه الله سبحانه رسوله الكريم - ﷺ - أن يبين القرآن الكريم ويفسر آياته ليهتدي الناس إلى فعل ما أمر الله، وأن ينتهوا عما ينهاهم عنه وفق مراد الله سبحانه، ومن المعلوم المؤكد لدينا نحن المسلمين أن النبي - ﷺ - لا ينطق عن الهوى، قال سبحانه: ﴿ **وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نُزل إليهم ولعلهم يتفكرون** ﴾ [النحل: ٤٤] .

والأمر المقطوع به والذي لا مرية فيه أنه - ﷺ - المعلم الأول لأحكام الدين، والمقوم لألسنة الناس بما ينطق من القرآن، المزكي لسلوكهم بتوجيهاته الرشيدة وسلوكه القويم؛ لأن خُلُقه كان نابعًا من القرآن الكريم، وقد أفصح ربنا سبحانه عن هذه المهام وغيرها في قوله: ﴿ **لقد مَن الله على المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين** ﴾ [آل عمران: ١٦٤]

ومن مهام النبي - ﷺ - أنه يأمر وينهى، ويحل ويحرم، وهذا عين التشريع، ذلك لأن الله تعالى كان يوحي إليه فيستلهم مراد الله تعالى، ثم يوجه أمته إليه ليسعدوا ، قال تعالى: ﴿ **الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبًا عندهم في التوراة والإنجيل**

يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم...﴾ [الأعراف: ١٥٧] .

إلى غير ذلك من النصوص التي أفصحت عن سلطان بيانه - ﷺ - في ضوء كتاب الله - عز وجل - وبأمر الله تعالى له، لأن هذه مكانته - صلوات ربي وسلامه عليه - .

أقوال بعض الأئمة في منزلة السُّنَّة(١):

قال أبو حنيفة: «**لولا السُّنَّة ما فهم أحد منا القرآن، ولم يزل الناس في صلاح ما دام فيهم من يطلب الحديث؛ فإذا طلبوا العلم بلا حديث فسدوا**» .

وقال مالك: «**إياكم ورأي الرجال، واتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم، وما جاء عن نبيكم، وإن لم تفهموا المعنى فسلموا لعلمائكم، ولا تجادلوهم فإن الجدال في الدين من بقايا النفاق**» .

وقال الشافعي: «**كل شيء خالف أمر رسول الله ﷺ سقط، ولا يكون معه رأي، ولا يُقاس، فإن مراد الله تعالى بقول رسول الله - ﷺ - فليس لأحد معه أمر ولا نهي غير ما أمر هو به**» .

وكل ما حكم به رسول الله - ﷺ - فهو مما فهمه من القرآن لقوله - ﷺ - : «**إني لا أحل إلا ما أحل الله في كتابه ولا أحرم إلا ما حرم الله في كتابه**» .

وقال أحمد بن حنبل: «**أو لأحد كلام مع رسول الله - ﷺ -** ». يعني السُّنَّة النبوية .

وقال الشوكاني: «**إن ثبوت حجية السُّنَّة المطهرة واستقلالها بتشريع الأحكام ضرورة دينية ولا يخالف في ذلك إلا من لا حَظَّ له في الإسلام**» .

إلى غير ذلك من أقوال علماء السلف، وكل ذلك يدل على جميع فروع الدين من عقيدة وعبادات ومعاملات وسلوكيات، وأحوال شخصية لابد أن يشملها بيان السُّنَّة المطهرة حيث لا تفهم دقائق الأمور إلا بها والله من وراء القصد .

• فضل السُّنَّة:

بعد البيان الشافي الموجز الذي ذكرته آنفًا عن مكانة السُّنَّة ووظيفتها يتضح لهذه الأمة المسلمة، بل ولكل الناس أن شؤون الحياة لا تنطلق عجلتها لتؤدي مهام الخلافة على الأرض وفي الأرض إلا بتوجيهات النبي الرشيدة، وبمنهاجه الذي وضعه لهذه الأمة وفق

(١) انظر: إرشاد الفحول (٢٩) - نقلتها عن كتاب الاعتداءات الأثيمة على السنة النبوية القويمة ص (١٦، ١٧) دكتور/ أحمد كريمة

مراد الله تعالى لها .

كما أن الأوامر الإلهية والنواهي، والحلال والحرام، لا يتضح منهج الأداء فيها إلا بتوجيهاته - ﷺ - إلى غير ذلك مما يلزم العبد أداؤه ليصل نفسه بربه ضبطًا لحياته ومماته ابتغاء مرضاة الله سبحانه الأمر الذي يوجب على الناس فهم السُّنَّة والتمسك بها عملاً وسلوكًا، وهم بذلك يكونون قد فهموا فضلها ومكانتها في نفوسهم .

والنصوص الدالة على ذلك كثيرة في كتاب الله تعالى، وفي أقوال رسوله - صلى الله عليه وسلم - وقد ذكرت جانبًا منها فيما سبق، وإليك بعضُ الأحاديث والآثار :

روى ابن أبي الدنيا والحاكم بسند صحيح أن رسول الله - ﷺ - قال: «**من أكل طيبًا، وعمل في سنة، وأمن الناس بوائقه - أي: شروره - دخل الجنَّة**» .

وروى المنذري عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «**من تمسك بسنتي عند فساد أمتي فله أجر شهيد**». وفي رواية : «**مائة شهيد**» .

وروى المنذري أيضًا عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**من أحيا سنة بعدي أميتتْ كان له من الأجر مثلُ من عملَ بها من غير أن ينقص من أجورهم شيء**» .

وروى الحاكم بسند صحيح أن رسول الله - ﷺ - قال في خطبة الوداع: «**إن الشيطان قد يئس أن يعبد في أرضكم، ولكن رضي أن يطاع فيما سوى ذلك مما تحاقرون من أعمالكم فاحذروا ، وإني قد تركتُ فيكم المعتصم: كتاب الله وسنة نبيه**» .

هذه الأحاديث وغيرها مما ذكرت في هذا الباب تؤكد فضل السُّنَّة النبوية، وأن العمل بها عز وشرف، فالعمل بالسُّنَّة طريق مفتوح إلى الجنة، وإحياء السُّنَّة يؤدي إلى رفعة في المقام وزيادة في الأجر، وفي العلم بالسُّنَّة دحر للشيطان، وهداية لبني الإنسان، ذلك؛ لأن في الاتباع هداية، وفي الابتداع غواية، وشتان بين أهل الهداية، وأهل الغواية، ويكفي أن الله - تعالى - يقول: ﴿**من يطع الرسول فقد أطاع الله**﴾ [النساء: ٨]، وقال سبحانه ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [الشورى: ٥٢]، وقال: ﴿**وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا**﴾ [الحشر: ٧]، وقال - عز من قائل: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: ١١٥]

ففي هذه النصوص بيان شاف لمن أراد لنفسه سعادة في الدنيا والآخرة.

ولقد بلغ من حرصه - ﷺ - على أمته ودعوتها إلى الخير أنه قال فيما روى الترمذي - وقال حديث حسن - عن أنس - رضي الله عنه - قال: قال لي رسول الله ﷺ

«يا بني إن قدرت أن تصبح وتُمسي ليس في قلبك غش لأحد فافعل - ثُمَّ قال: يا بُني وذلك من سنتي، ومن أحب سنتي فقد أحبني، ومن أحبني كان معي في الجنة» .

● السُّنَّة باب النجاة من تيه الغرباء:

روى مسلم عن أبي هريرة - رضي الله عنه - والنسائي عن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء**» .

ورواه الطبراني وأبو النصر في الإبانة عن عبد الرحمن بن سنة بلفظ: «**إن الإسلام بدأ غريبًا وسيعود غريبًا فطوبى للغرباء - ﷺ - قيل يا رسول الله: وما الغرباء؟ قال: الذين يصلحون عند فساد الناس**» .

وفي رواية أنه سئل عن الغرباء يقال: «**الذين يحيون ما أمات الناس من سنتي**»

كان الإسلام غريبًا لسبق الكفر عليه، وإنكار الكفرة له، وسيعود غريبًا ، وذلك لغلبة الجهالة وكثرة الضلالة، فكان في الزمان الأول كالغريب لا يعرفه أحد، وعندما يتركه أهله وينصرفون عنه تعود له الغربة. وطوبى: هي الجنة، ستكون دارًا لأولئك الذين كانوا في أول الإسلام ويكونون في آخره بما صبروا على أذى الكفار والفجار فتمسكوا بدين الإسلام، وينطبق هذا الأمر على الدعاة والمصلحين في كل زمان ومكان ممن يتعرضون للظلم والاضطهاد من الذين ينكرون عليهم تمسكهم بدينهم فيعذبونهم .

ومن ثَمَّ كان المخرج من تيه الغربة والجهالة هو التمسك بالصلاح والإصلاح والتصدي لأهل الفساد عن طريق إحياء ما أماته الناس من سنة النبي - ﷺ - والتأسي به في منهج الدعوة إلى الله - عز وجل - بالحكمة والموعظة الحسنة .

- نجانا الله من غربة هذا الدين ورزقنا العصمة بالسُّنَّة - .

● ● ●

٢- البدعة

البدعة: طريقة في الدين مخترعة تضاهي الطريقة الشرعية، يقصد فاعلها المبالغة في عبادة الله من علم أو عمل أو حال .

أو : هي ما أحدث بعد النبي - ﷺ - على أنه دين وشرع بتأويل أو شبهة غير معتدٍّ بها .

والاختراع: هو الإتيان بجديد، ليس للناس به عهد .

فاستحداث بعض الصناعات في ضوء التقدم العلمي يُعد اختراعًا كإحداث السيارات والطائرات، والإذاعة المسموعة والمرئية، والأقمار الصناعية، وغيرها مما تقدمت في صنعه البشرية يُعد اختراعًا ، لكنه محمود؛ لأنه فيه نَفْعٌ يعود على الإنسانية، ولم يرد في ذلك نهي يمنع هذه المخترعات، بل حث الإسلام على ذلك وأمر به .

أما الذين يخترعون أعمالاً وأقوالاً، ويزينونها للناس حتى يحسبوها دينًا فهم المبتدعون الذين جاءوا من عند أنفسهم بما لم يُنزِّل الله، ولم يُعلم نبيه - ﷺ - وذلك عين البدعة التي نص الشارع على تحريمها؛ لأن فعلها أو القول بها لا يؤدي إلى قربة لله - عز وجل - بل يؤدي إلى لعنة .

وأصل الابتداع : خلق ما ليس له مثل سابق، ومنه سمى الله - عز وجل - « البديع »؛ لأنه اخترع هذا العالم الفخم العجيب في صنعه، فهو غير مسبوق إليه بشيء يشبهه، قال تعالى: ﴿ بديع السموات والأرض وإذا قضى أمرًا فإنما يقول له كن فيكون ﴾ [البقرة: ١١٧].

والابتداع في الدين بما لم يكن من عند الله تعالى، ولا من هدي رسوله ﷺ يُعد محرمًا يجلب اللعنة لصاحبه، وكل من يعمل به، وهذا هو موضوع البحث في هذا الكتاب .

- **ذم البدع والتحذير منها:**

إن عصابات التخريب في كل مجتمع يطوقون أقوالهم وأفعالهم ببريق يجذب إليهم أبصار الناس، ويستميلون قلوبهم .

وهذا اللون من الخداع إن خدع به بعض الناس لهوى وضعف في نفوسهم فرب البشر لا يخدع بأهواء الخلق .

ومن ثَمَّ فإن كل ما يصدر عن البشر وهو مخالف لأمر الله تعالى ورسوله - ﷺ - يرد عليهم، أي أن عملهم لا يُعدّ مقبولاً، ويؤيد ذلك ما روي في الصحيح من حديث عائشة - رضي الله عنها - أن رسول الله - ﷺ - قال: «**من أحدث - أي: ابتدع - في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد**»

وأيضًا ما أخرجه البخاري ومسلم: «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد**» أي: مردود .

فقوله: «من أحدث» للمبتدع و«من عمل» للمقلد .

فسواء كان صاحب البدعة مبتدعًا لها أو مقلدًا لغيره فيها فهو ضال وبدعته مردودة عليه، ومن ثَمَّ فلا ثواب له، بل تصب اللعنة على المبتدع .

أخرج مسلم عن جابر بن عبد الله - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - كان يقول في خطبته: «**أما بعد فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهدي هدي محمد، وشر الأمور محدثاتها، وكل بدعة ضلالة**» .

وقد روي الحديث بروايات مختلفة وطرق متعددة، ومرماها واحد، وكلها تؤكد أن كلام الله هو خير حديث، وأحسن الهدي هدي محمد ﷺ فمن صرف نفسه عنهما، واتبع هواه ضل وأضل، وسقط في تيه الجهالة... والأحاديث في هذا الباب كثيرة .

• إرشادات تربوية في ظل التحذير من البدع:

حرص النبي - ﷺ - على تحذير أمته من التغيير في دين الله جعله يشدد عليهم ألوان الوعيد ليأخذ بأيديهم إلى طريق النجاة وإلى الصراط المستقيم تحقيقًا لقوله تعالى: ﴿**وإنك لتهدي إلى صراط مستقيم**﴾ [الشورى: ٥٢] ، وفي هذا التوجيه من المنهج التربوي ما لا يخفى ، وإليك جانبًا منه:

١ - التحذير من الدخن والقذف في النار والدعوة إلى لزوم الجماعة:

المراد بالدخن: هو الأمر الذي ليس خيرًا خالصًا؛ بل فيه كدورة بمنزلة الدخان من النار، وقد نشأ ذلك بسبب الفساد والاختلاف وعدم صفاء القلوب. وهذا التحذير والوعيد المصحوب بالدعوة إلى لزوم الجماعة كمخرج من الفتنة أفصح عنه المعصوم - ﷺ - فيما روي في صحيح البخاري عن حذيفة أنه قال: «**كان الناس يسألون رسول الله - ﷺ - عن**

الخير، وكنت أسأله عن الشر مخافة أن يدركني، فقلت: يا رسول الله إنا كُنَّا في جاهلية وشر فجاءنا الله بهذا الخير ، فهل بعد هذا الخير من شر؟ قال: نعم. قلت: وهل بعد ذلك الشر من خير؟ قال: نعم وفيه دخن.

قلتُ: وما دخنه؟

قال: قوم يهدون بغير هديي، تعرف منهم وتنكر. قلت: هل بعد ذلك الخير من شر؟.

قال: نعم، دعاة على أبواب جهنم من أجابهم إليها قذفوه فيها.

قلت: يا رسول الله صفهم لنا .

قال: هم من جلدتنا ويتكلمون بألسنتنا . قلت: فما تأمرني إن أدركني ذلك .

قال: تلزم جماعة المسلمين وإمامهم . قلت: فإن لم يكن جماعة ولا إمام .

قال: فاعتزل تلك الفرق كلها، ولو أن تعض بأصل شجرة حتى يدركك الموت وأنت على ذلك» .

من هذا الحديث نتعلم ما يلي:

(أ) السؤال عن كل ما يحتاجه المسلم في معرفة أمور دينه واجب .

(ب) الجاهلية ضلال وإضلال وشر وإذلال، والإسلام نور وهداية، ورحمة وسعادة.

(ج) الانصراف عن الفساد والإفساد في الأرض، ونبذ الاختلاف والابتداع، والدعوة إلى صفاء القلوب أمر واجب .

(د) خير هاد إلى الصراط المستقيم الكتاب والسُّنَّة، ودعوة المسلمين إلى التمسك بهما أمر واجب .

(هـ) الالتزام بالجماعة وإمام المسلمين واجب .

(و) الاعتزال عن أهل الضلالة والبدع، ودعاة الفتنة عند عدم وجود الجماعة والإمام واجب تجنبا من الاشتراك في الفتن .

- عافانا الله من الفتن ما ظهر منها وما بطن - .

٢- الانطلاق على الصراط مقيد بترك البدع:

ويفصح عن ذلك المعصوم - ﷺ - فيما رواه عنه الحسن - رضي الله عنه - أنه قال: «إن أحببت أن لا توقف على الصراط طرفة عين حتى تدخل الجنة فلا تحدث في دين

الله حدثًا برأيك» .

٣- الرسول - ﷺ - يضم المقتدي به إليه ويبرأ ممن رغب عن سنته:

وذلك قوله - ﷺ - : «**من اقتدى بي فهو مني، ومن رغب عن سنتي فليس مني**» .

٤- المغالاة في البدعة تنطع وخروج عن هدي النبي ﷺ:

روى البخاري عن أبي بكر - رضي الله عنه - أنه قال: «**لست تاركًا شيئًا كان رسول الله - ﷺ - يعمل به إلا عملت به لأني أخشى إن تركت شيئًا من أمره أزيغ**» .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - قال: «**اتبعوا آثارنا ولا تبتدعوا فقد كفيتم**» .

وعنه أيضًا من أثر رواه ابن وهب أنه قال: «**... وستجدون أقوامًا يزعمون أنهم يدعون إلى كتاب الله وقد نبذوه وراء ظهورهم فعليكم بالعلم، وإياكم والتبدع والتنطع والتعمق، وعليكم بالعتيق**» .

التنطع في الكلام: التعمق فيه، ويكون ذلك بكثرة الجدل بعيدًا عن هدي الكتاب والسُّنَّة .

وللصحابة والتابعين توجيهات وتحذيرات من السقوط في البدع وترك الهدي النبوي الشريف، يقول ابن عباس رضي الله عنهما: «**عليكم بالاستقامة والأثر، وإياكم والبدع**» .

٥- العمل بالسُّنَّة هداية ونصر، وتركها خروج عن سبيل المؤمنين:

هذا أصل لا يختلف عليه اثنان من أولي العلم ممن فقهوا دين الله وتذوقوا توجيهات النبي - ﷺ - ومن بين أولئك الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز - رضي الله عنه - الذي قال كلامًا أعجب به مالك، واعتنى العلماء بحفظه؛ لأنه قول لم يصدر إلا عن قلب مخلص ولسان صادق، يقول عمر بن عبد العزيز: «**سن رسول الله - ﷺ - وولاة الأمر من بعده سننًا الأخذ بها تصديقٌ لكتاب الله، واستكمال لطاعة الله، وقوة على دين الله، ليس لأحد تبديلها ولا تغييرها، ولا النظر في شيء خالفها، من عمل بها مهتد، ومن انتصر بها منصور، ومن خالفها اتبع غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى وأصلاه جهنم وساءت مصيراً**» .

هذا قول لا يصدر إلا عن قلب ذي بصيرة إيمانية، وهذا التوجيه صدر في ضوء قوله تعالى: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ .

ومما كان يكتبه عمر بن عبد العزيز في كتبه قوله:

«**إني أحذركم ما مالت إليه الأهواء والزيغُ البعيدة**» .

ويوم أن بايعه الناس خليفة للمسلمين أرسى عمد حكمه على الأصول الثابتة في كتاب الله تعالى وسنة نبيه - ﷺ - فصعد المنبر وحمد الله وأثنى عليه ثم قال: «**أيها الناس إنه ليس بعد نبيكم نبي ولا بعد كتابكم كتاب، ولا بعد سنتكم سنة، ولا بعد أمتكم أمة، ألا وإن الحلال ما أحل الله في كتابه على لسان نبيه حلال إلى يوم القيامة، ألا وإن الحرام ما حرم الله في كتابه على لسان نبيه حرام إلى يوم القيامة. ألا وإني لست بمبتدع، ولكني متبع، ألا وإني لست بقاض، ولكني منفذ، ألا وإني لست بخازن ولكني أضع حيث أمرت. ألا وإني لست بخيركم، ولكني أثقلكم حملاً. ألا لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، ثم نزل**»

إنه دستور للأفراد والجماعات للقضاة والحكام، إن مراده من قوله: إنه ليس هو الشارع ولكنه منفذ الشرع بالحكم به، فهو منفذ لحكم الله ورسوله - ﷺ - وليس قاضيًا، وهو يضع كل أمر حيث أمره الله به، وذلك لأن الحلال والحرام، وتدبير شؤون العباد كل ذلك ثابت إلى يوم القيامة ليس لأحد أن يزيد عليه أو ينقص .

إنه الورع في ذروته، وحسن المراقبة لله طاعة له سبحانه وامتثالاً لأمر رسوله ﷺ .

إن التوجيهات التربوية في هذا المقام كثيرة يطول المقام ببسط القول فيها، فحسبي منها ما ذكرت من إشارات ضوئية على الطريق لنهتدي بها على صراط ربنا المستقيم .

ويكفينا القول أن الشريعة الإسلامية كاملة لا تحتمل الزيادة ولا النقصان، وقد قضى ربنا سبحانه بذلك في قوله: ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا**﴾ [المائدة: ٣] .

ومن ثَمَّ فإن المبتدع معاند للشرع وهو بذلك غير محب لله ولرسوله - صلى الله عليه وسلم - وتماديه في البدع والإكثار منها ورفضه للنصيحة يؤدي إلى انحرافه عن دين الله، كأنه يقول للشارع أنت تعلم وأنا أيضًا أعلم، وربما يصل بتبجحه على الله ورسوله إلى أنه يعلم ما لا يعلمه الشارع وعندئذٍ يكون قد دخل في محيط الكفر والضلال المبين، وفي ذلك اتباع للهوى فيزل العقل ويموت القلب .

وخروجًا من هذا المحيط المظلم وجب علينا أن نلزم أنفسنا أمر الله، وأن نتبع هدي رسوله - ﷺ - ونترك ما أحدث المحدثون في دين الله، وبذلك نكون قد رضينا لأنفسنا ما رضي به الله وسيرضى إن شاء سبحانه به عنا، وأحببنا ما أحبه رسوله فننال حبه وشفاعته، تحقيقًا لقوله - ﷺ - .

«**من قال: رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد نبيًا ورسولاً أخذت بيده - وأنا الزعيم - يوم القيامة لأدخلُه الجنة من أي أبوابها شاء**» - أو كما قال - .

أقسام البدعة

تنقسم البدعة إلى حقيقية وإضافية، وهما أشهر أقسامها:

• أولاً: البدعة الحقيقية:

سميت حقيقية؛ لأنها ظاهرة البيان في خروجها عن أصل الدين حيث لا سند لها من كتاب.أو سنة أو غيرهما . فهي ما كان الابتداع فيها من جميع وجوهها، ولم تدخل في أية ناحية من الدين، لا كتاب، ولا سنة، ولا إجماع، ولا سند، أي أنها مخترعة عن هوى بجهل وضلال، ومن أمثلتها ما يأتي:

١- **التقرب إلى الله - تعالى - بالرهبانية:** والرهبانية: هي المبالغة في العبادة بالرياضة، والانقطاع عن الناس، وترك الزواج مع الداعي وعدم المانع، وترك عمل الدنيا الحلال .

٢- **أفعال بعض الفرق تقربًا إلى الله بما يتنافى مع الدين:** كفرق الهند التي تحرق نفسها تقربًا إلى الله - تعالى - استعجالاً للموت لنيل الدرجات العليا في زعمهم .

وكذلك ما يفعله الشيعة من العجم يوم عاشوراء، من خدش الرؤوس والوجوه، واللطم والنواح، والتمثيل الفظيع بأجسادهم، وذلك؛ لأن الحسين -رضي الله عنه- قد قتل في هذا اليوم، وهم يفعلون ذلك زاعمين القربة إلى الله - عز وجل - والحق أنهم على جهالة وضلال، وأن فعلهم هذا لا سند له من كتاب ولا سنة فهم آثمون .

ولقد شاهدت بنفسي مواقفهم وأفعالهم المخزية التي ينكرها الدين، ويأباها العقل، بل يلفظها أي فكر إنساني، وكان ذلك في مدينة روالبندي في جمهورية باكستان الإسلامية في سنة (١٩٨٣، ١٩٨٤م) .

٣- **تعليق الشموع والمصابيح على الأضرحة**، بعض الجهلة يفعلون ذلك وغيره من غير سند من كتاب ولا سنة، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا تقربًا إلى الله تعالى بما لم يشرع.

٤- **تحكيم العقل ورفض النصوص في دين الله:** وهذا العمل يُعدُّ مخالفة صريحة لقول الله - تعالى - : ﴿**فإن تنازعتم في شيء فردوه إلى الله والرسول**﴾ [النساء: ٥٩] .

وقوله سبحانه: ﴿**إن الحكم إلا لله**﴾ [الأنعام: ٥٧] .

ومن مظاهر تحكيم العقل تأويل النص القرآني بحل الخمر الوارد في قوله تعالى: ﴿**ليس على الذين أمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين**﴾ [المائدة: ٩٣].

تأولها قوم على أن الخمر حلال، وأنها داخلة تحت قوله: ﴿**فيما طعموا**﴾ فهؤلاء استحلوا بالتأويل ما حرم الله بنص الكتاب، وشرعوا في دين الله ما لم يأذن به، وهذا هو الابتداع بعينه ويمكنك مراجعة الصواب في توجيه القول حول سبب نزول الآية ومراد الشارع منها في كتب التفسير، وفي كتاب الإبداع(١).

• ثانيًا: البدعة الإضافية:

هي التي ليست بدعة في ذاتها، وإنما دخلها الابتداع النسبي، وهي التي لها أصل في الشرع، ولكنها تختلف عنه في الزمن والمكان، أو الكيفية.

البدعة الإضافية في المكان: مثل: الطواف، فقد شرعه الله حول الكعبة فقط، فنقلوه إلى مكان آخر وهي الأضرحة، فسمي بدعة إضافية في المكان.

ومثله أيضًا: تلاوة القرآن في الركوع والسجود، وهذان الموضعان شرع لهما تسبيح مخصوص فابتدع بعض الناس قراءة القرآن مكانهما وهذا ليس من السُّنَّة.

البدعة الإضافية في الزمن: مثل: المواظبة على صيام يوم الثلاثاء والأربعاء من كل أسبوع مع أن اليومين اللذين وصَّى بصيامهما النبي - ﷺ - هما: يوم الإثنين، ويوم الخميس.

ومن ذلك أيضًا صيام يوم ميلاد النبي - ﷺ - وهو ١٢ ربيع الأول، أو صيام نصف شعبان، أو يوم ٢٧ من شهر رجب على أنه صباح الإسراء والمعراج، فهذه تُعدّ بدعًا إضافية في الزمن، ذلك؛ لأن الصيام المسنون نبه عليه النبي - ﷺ - وواظب على صيامه في أيام معلومة ومحدودة.

البدعة الإضافية في الكيفية: مثل: ذكر الله تعالى بصوت مرتفع مع التحريف فيه لأسماء الله تعالى مع قوله سبحانه: ﴿**واذكر ربك في نفسك تضرعًا وخيفةً ودون الجهر من القول**﴾ [الأعراف: ٢٥٠]. وأيضًا ذكر الله مع استحضار المريد الذاكر صورة شيخه أمامه على حد زعم بعض المتصوفة ممن يدعون المعرفة والوصول إلى الله تعالى، وغير ذلك من وسائلهم المخترعة في الذكر والصَّلاة.

---

(١) انظر: ص (٥٦، ٥٧).

فأصل الذكر مطلوب، ولكن التحريف في كيفيته هو المحرم .

مما سبق نعلم أن البدعة الإضافية ليست بدعة مخترعة أساسًا، ولكن البدعة دخلت إلى الدين من التخصيص لها في زمن مخصوص، أو مكان مخصوص أو كيفية مخصوصة مع أنه يوجد لها أصل في الشرع، فوجه هذا الأصل على غير مراد الشارع - والله أعلم .

هذا ، وهناك أقسام أخرى للبدعة وهي:

١- تنقسم إلى فعلية وتركية .

٢- تنقسم إلى عملية واعتقادية .

٣- تنقسم باعتبار الأزمنة أو الأمكنة أو الأحوال كالتي تقع في الموالد والأفراح والمآتم والمساجد والمقابر .

٤- تنقسم إلى كلية وجزئية .

٥- تنقسم إلى عبادية وعادية .

راجع تفصيل القول وتوجيهه حول هذه الأقسام في كتاب الإبداع، وذكرتها هنا مجملة من باب تمام القول في أقسام البدعة .

• البدعة في ظل الأحكام الخمسة:

البدعة تعتريها الأحكام الخمسة، وهي:

(الواجب - والمندوب - والمباح - والمحرم - والمكروه) .

١ - البدعة الواجبة:

هي ما تناولته قواعد الوجوب وأدلته من الشرع. كجمع القرآن وتدوينه في المصاحف، وجمع الناس على المصاحف العثمانية، وترك ما سوى ذلك من القراءات التي كانت مستعملة في زمان رسول الله - ﷺ - .

وكذلك جمع العلوم وتدوينها، والاشتغال بالعلوم التي يُفهم بها كلام الله تعالى ورسوله - ﷺ- والكلام في الجرح والتعديل لتمييز الصحيح من السقيم.

وأيضًا تقرير قواعد الفنون العربية والشرعية، وبيان فروعها وأحكامها .

وتفسير القرآن الكريم والسُّنَّة المطهرة، وتدوين كل ذلك، وجملة القول في ذلك: كل ما حدث مما يرجع إلى حفظ الدين من الضياع والتحريف، كالرد على أهل البدع والأهواء المحرمة كالقدرية والمجسمة وغيرهم .

وذلك؛ لأن تبليغ الدين إلى من يأتي بعدنا واجب إجماعًا، كما أن إهمال ذلك حرام.

وأيضًا فإن التفقه في الدين واجب، ويتحقق أداء هذا الواجب في ضوء ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وتسمية مثل هذا العمل بدعة باعتبار عدم وجوده في العهد النبوي الشريف .

٢- البدعة المندوبة:

وهي ما تناولته قواعد الندب وأدلته .

كصلاة التراويح عشرين ركعة في جماعة على الهيئة التي يؤدي بها الناس من عهد عمر - رضي الله عنه - وحتى الآن، فإن هذه الهيئة لم تكن معروفة في عهد النبوة وعهد أبي بكر، وصدر من خلافة عمر .

٣- البدعة المباحة:

وهي ما تناولته قواعد الإباحة وأدلتها من الشرع .

ومنها : اتخاذ المناخل للدقيق، والأكل على الموائد، ولحجة الإسلام الإمام الغزالي توجيه في ذلك بالإباحة لعدم ثبوت النهي عن ذلك .

ومنها: استخدام السفرة، وهي اسم لقطعة من الجلد ونحوه يوضع عليها الطعام عند التناول .

ومنها: الأكل بالملاعق.

ومنها: التوسع في الطيب من المأكل والمشرب والملبس، والمسكن .

إلى غير ذلك مما يباح استعماله ما دام لم يرد في شأنه نهي يمنع من فعله، أو تضاد مع سنة ثابتة .

٤- البدعة المحرمة:

وهي ما تناولته قواعد التحريم وأدلته من الشرع.

كالمكوس، والمحدثات من المظالم، والمحدثات المنافية لقواعد الشريعة، كتقديم الجهال على العلماء، وتولية المناصب الشرعية من لا يصلح لها بطريق التوريث بعلة أن المنصب كان لأبيه، وهو في نفسه ليس بأهل لحمل الأمانة .

ومنها أيضًا: مذاهب أهل البدع المخالفة لما عليه أهل السُّنَّة والجماعة، كمذهب الكرامية في تجويزهم الكذب على رسول الله - ﷺ - ترغيبًا أو ترهيبًا، والروافض في

قولهم بوجوب صوم يـوم الشك أي: اليوم الذي قبل رمضان، وفي ذلك مخـالفة صريحة لقول النبي - ﷺ - : «**لا تقدموا رمضان بصوم يوم**» .

ومنها: تلحين القرآن بحيث تتغير ألفاظه عن الوضع العربي ومن ذلك أيضًا: الانتماء إلى جماعة من الدجالين يزعمون التصوف وهم يخالفون أهل العلم من الفاهمين لكتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - إلى غير ذلك من الأفعال والأقوال المحرمة .

٥- البدعة المكروهة:

وهي ما تناولته قواعد الكراهة وأدلتها من الشرع .

كتخصيص الأيام الفاضلة أو غيـرها بنوع من العبادة، إذ ليس لأحد أن يحدث شعاراً دينيًّا من قِبَل نفسه، وشـأن العبادة إذا التزمت في وقت مخصـوص أن تكون من شعائره. وقد ورد في الصحيح فيما أخرجـه مسلم وغيره أن رسول الله - ﷺ - نهى عن تخصيص يوم الجمعة بصيام أو ليلته بقيام، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**لا تصوموا يوم الجمعة إلا وقبله يوم أو بعده يوم**» رواه الجماعة إلا النسائي .

ولمسلم: «**لا تخصوا ليلة الجمعة بقيام من بين الليـالي، ولا تخصوا يوم الجمعة بصيام من بين الأيام إلا أن يكون في صوم يصومه أحدكم**»

ومن البـدع المكروهة: الزيادة في المندوبات المحدودات شـرعًا كالتسـبيح ثلاثًا وثلاثين عقب الصلوات فيسبح مائة .

ومنها: زخـرفة المساجـد، وتزويق المصاحف، وأخـذ الفأل من المصحف... وغـير ذلك مما لا يحتمل المقام ذكره، وسنذكره في موضعه .

●●●

بدعة الأعياد بذكرى مولد النبي ﷺ

قد جاء في حب النبي - ﷺ - من النصوص ما لا يحتاج إلى إيضاح ولا بيان، ورأس ذلك ما رواه البخاري ومسلم أن النبي - ﷺ - قال: «**والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين**» - ﷺ - وفي الحديث الآخر: «**حتى أكون أحب إليه من نفسه التي بين جنبيه**».

والحب لرسول الله - ﷺ - بهذا لا يكون فرضًا فحسب؛ بل هو أحد أصلي الإيمان، فإن مبنى الإيمان وأساسه: على حب الله وحب رسوله. فلن يجد أحد حلاوة الإيمان حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما.

والحب حبان: حب وهمي خيالي، وحب يقيني حقيقي، أو حب كاذب، وحب صادق، فالحب الوهمي الخيالي الكاذب: هو حب المقلدين الجاهلين الذين حرموا من العلم بمعرفة محبوبهم على حقيقته، وصفاته التي تميزه عن غيره.

والحب اليقيني الصادق: هو حب العارفين الذين أوتوا العلم بمعرفة محبوبهم وصفاته وخصائصه، التي تميزه عن غيره، تميزًا لا يقع معه وهم ولا اشتباه.

ولطالما كان الحب الوهمي الخيالي هذا بابًا من أوسع أبواب الشيطان التي أدخل منها في القلوب الزيغ والإلحاد والوثنية والشرك، فانقلب المقلدون الجاهلون من حيث لا يشعرون ألد أعداء من يدعون حبه، وأشد الناس بغضًا له، ولصفاته ولخصائصه التي ميزه الله بها عن غيره.

والمثل قائم ملموس في النصارى الذين يزعمون ويقسمون جهد أيمانهم أنهم أشد الناس حبًّا للمسيح عيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، وكلمته التي ألقاها إلى مريم وروح منه، ونحن وكل عاقل لا يمتري طرفة عين في أنهم أبغض الناس لعيسى وأشد الخلق كراهية له، ولصفاته التي ميزه الله تعالى واختصه بها، ذلك أنهم جهلوا عيسى عليه وعلى نبينا الصَّلاة والسلام، وجهلوا حقيقته وما امتاز به، فكانوا من الضالين المضلين.

وما جرهم الشيطان إلى الغلو في عيسى وأمه، وقسيسيهم ورهبانهم إلا بزعمهم هذا الحب الوهمي الخيالي الكاذب، وما زال يقذف في قلوبهم من الأوهام والخيالات الكاذبة، حتى قالوا: إنه ابن الله، وأنه الله، واتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله،

أشركوهم معه في العبادة والتشريع، وسبحان الله وتعالى، فركب الشيطان أقفيتهم ورفعهم بالغلو والإطراء، حتى زعم لهم: أنه النور المبين من ربهم، وأنه لذلك أول خلق الله، وما زال ينتقل بالكلمة حتى حل لاهوته في ناسوت ابن مريم، كما زعمت صوفية الهند والصين في بوذا وبرهما، وصوفية قدماء اليونان والمصريين في معبوداتهم ومقدسيهم، كما قال الله: ﴿يُضاهؤون قول الذين كفروا من قبل﴾. قاتلهم الله وتعالى عما يقولون أولئك الظالمون علواً كبيراً.

ولا يشك عاقل في أن مسيحهم الذي يدعون له هذا الحب الوهمي الكاذب إنما هو شخص خيالي وهمي أيضًا لا حقيقة له في الوجود أصلاً، صورته في رؤوسهم القذرة، ورسمته في قلوبهم المظلمة الجاهلة: يد الشيطان عدو الله وعدو عيسى وعدو الأنبياء وعدو الإنسان المبين.

فإنه يستحيل كل الاستحالة أن يكون للمسيح الموصوف بالنور الأول وبالنبوة لله، وبصفاته اللاهوتية المزعومة: وجود ولا حقيقة في خارج هذه العقول السخيفة: ﴿ **وَقَالُوا اتَّخَذَ الرَّحْمَنُ وَلَدًا (٨٨) لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا (٨٩) تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الْجِبَالُ هَدًّا (٩٠) أَن دَعَوْا لِلرَّحْمَنِ وَلَدًا (٩١) وَمَا يَنبَغِي لِلرَّحْمَنِ أَن يَتَّخِذَ وَلَدًا (٩٢) إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا (٩٣) لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا (٩٤) وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا** ﴾.

أما عيسى الحقيقي: عبد الله ورسوله، الذي جعل الله ولادته آية على عظيم قدرته سبحانه، ومعجزة لإبطال ما ادعوه في ذلك العصر من التبحر في الطب، حتى فُتنوا وفتنوا الناس بذلك.

هذا النبي الذي هو عيسى ابن مريم، الذي لم يقل لهم إني النور الأول، ولا إني المتولد المنفصل نوراً عن الله. لم يقل لهم إلا ما أمره به الله: ﴿**إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبيًا**﴾، ﴿**أن اعبدوا الله ربي وربكم**﴾، ﴿**فاتقوا الله وأطيعون إن الله ربي وربكم فاعبدوه**﴾، فإن النصارى اليوم أشد عداوة له من اليهود، وهم أشد عيبًا له وشتمًا ممن رمى أمه السيدة الطاهرة مريم بالمنكر والزور، ولو أنه عاد اليوم لكان أول من يحاربه ويرفع السيف في وجهه هؤلاء النصارى الواهمون الكاذبون في حبه، ولكان أول من يقتل عيسى عليه السلام أولئك النصارى الضالون المضلون.

وأنت تراهم مع ذلك قد أكثروا من الأعياد والذكرانات لحوادث مسيحهم وأمه ولكل شأن من شؤون هذا المسيح وأمه وللرهبان والقسيسين المنتسبين إلى مسيحهم، والزاعمين

أنهم يحبون المسيح، فلا يكاد ينتهي شهر إلا وفيه عيد أو أكثر، ويفعلون في تلك الأعياد أقصى ما يستطيعون، ويبذلون من الأموال في تلك الأعياد، ويطعمون من الأطعمة الخاصة باسم تلك الأعياد، ويوقدون من السرج، ويشعلون من الشموع، ويقيمون من الزينات ومعالم الأفراح، ابتهاجًا وسرورًا بتلك الأعياد والذكرانات أقصى ما يستطيعون، وقد جعلوا لكل من تلك الأعياد طقوسًا يرتلون فيها التراتيل، ويترنمون فيها بالصلوات والمزامير، ويجتمعون لها في الكنائس والمعابد والبيوت والمجامع، وهي - عندهم - أهم عناصر دينهم، وأقرب قرباتهم.

وهي أجلى مظاهر حبهم للمسيح ابن مريم، وأعظم إجلالهم له ولدينه وشرعته، وهي - فيما زعموا - خير طريق يسلكونها إلى مرضاة عيسى ومرضاة ربهم أبيه، ليبلغوا بها إلى جنات الآخرة التي يقولون إنها مقصورة عليهم، وحرام على غيرهم ولن يدخلها - بزعمهم الفاسد - إلا من كان نصرانيًا على عقيدتهم هذه، وأعيادهم هذه وذكراناتهم للمسيح وأمه، والقسيسين والرهبان.

وإن كان هذا - في الحقيقة - إنما هو إجلال وتعظيم للمسيح الخيالي الذي لا وجود له إلا في أوهامهم، وهو حرب عنيفة وبغض شديد، ومبارزة العداء واللدد لعيسى ابن مريم عبد الله ورسوله، ومحادة له، ولشرعته ودينه، وإزراء عليه وعلى سنته، وتكذيب فاحش له وتوقع شنيع في الرد لما جاءهم به من الهدى والإيمان وما دعا إليه من العلم والحكمة، وإخلاص الدين والعبادة لله الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يُولد ولم يكن له كفوًا أحد.

وإن تاريخ القسيسين وبطاركة النصارى ليحدثنا عن الدماء التي أريقت والنفوس التي أزهقت في مجامع نيقة، وأفسيس، والإسكندرية، وغيرها في سبيل طبيعة مسيحهم اللاهوتية والناسوتية وتقرير العقيدة، التي يدعونها «الأمانة» والتي ابتدعها لهم قسطنطين الوثني اليوناني، وقام عليها ذلك العداء المستحكم لعيسى ولدين عيسى؛ ولشرعة عيسى عليه السلام، إذ كان أولئك الذين أبيحت دماؤهم، وتحولت الشوارع أنهارًا تجري بتلك الدماء، ما قتلوا إلا لأنهم يحاولون رد فرية البنوة عن الله، والقضاء على ما ابتدع قسطنطين في شريعة عيسى عليه السلام من كفر وإلحاد، والإبقاء على تلك الملة سليمة من هذه الأباطيل المحدثة، والعقائد الفاسدة، فكان جزاؤهم ما لقوا من أعداء عيسى الذين لبسوا خدعة وغشًا ثوب محبته، وتراءوا بإكباره وإجلاله، فارتقوا به من العبودية إلى الربوبية، وقالوا فيه ما تكاد السموات تتفطر منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هدًا.

ولقد كان لليهود في إفساد دين عيسى ابن مريم وإزاغة النصارى عنه أكبر الأثر لأنهم

أقسى الناس قلبًا، وأبعدهم عن الرحمة والخير، وأعظمهم بغضًا لله وللأنبياء ولكل قائم بالقسط بين الناس، ولكن اليهود مع هذا - على طول الزمن - قد تأثروا أيضًا بما كان سلفهم قد دسه في النصارى، وشرع لهم أحبارهم أعيادًا يضاهؤون بها أعياد النصارى لما رأوا ما تجره هذه الأعياد من منافع مادية على القسس والرهبان؛ فابتدع أحبار اليهود لعامتهم مثل هذه الأعياد، وأخذوا يستغلونها لجر المنافع المالية، والرياسات الدنيوية، وجرى كلتا الأمتين - الغضبية والضلالية - على ذلك .

وقد كان لمشركي العرب، وعبدة الكواكب والمجوس والهنود وغيرهم في الجاهلية أعيادًا وذكرانات ومواسم لآلهتهم، أعتقد أنها كانت القدوة الأولى التي عمل اليهود على جر النصارى إليها، والمنبع الأول الذي اقتبس منه اليهود ما أفسدوا به ملة عيسى ابن مريم، كما أن اليهود والنصارى جميعًا إنما أخذوا عقيدة بنوة عزير، والمسيح لله عن البوذيين، والبراهمة الهنود والصينيين، وعن عقيدة مشركي المصريين القدماء الذين كانوا يزعمون أن فرعون ابن السماء، أو ابن (رع) الشمس، أو ما إلى ذلك، وقد قال الله تعالى: ﴿**وقالت اليهود عزير ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهؤون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون**﴾ .

وكن على ذكر من أن هؤلاء جميعًا إنما كانوا يقيمون تلك الأعياد ويحتفلون بها، وينحرون ويطعمون، ويلهون ويلعبون ، قصدًا أولاً إلى تعظيم من جعل له العيد من معتقديهم من البشر وغيره، صالحيهم وغير صالحيهم، وقصدًا ثانيًا إلى التقرب إلى الله بإحياء ذكريات أحبابه وأوليائه، وأن ذلك يحبه الله ويثيب عليه إكرامًا لأولئك الأحباب والأولياء، وأن ذلك دين ورثوه عن الآباء والأجداد، والقسس والأحبار والرهبان، وهم أعرف بالله وأوليائه وأحبابه ومحبوباته، وما يقرب إليه من كل أحد، وأنه لا حق لأحد أن يسألهم من أين جئتم بهذا، ولا عن أي دليل أو حجة عليه، وإلا كان مطرودًا من رحمة الله، مشلوحًا من الدين والعقيدة، بل ومن الجنة أيضًا، وما على الناس إلا أن يكون مثلهم كمثل الذي ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء صم بكم عمي فهم لا يعقلون، وإلا سدت في وجوههم أبواب الرحمة التي مفاتيحها بأيدي أولئك الأحبار والرهبان، وأغلقت دونهم أبواب السماء التي لا تفتح إلا بواسطة أولئك القسس والبطاركة والرؤساء المحتكرين للدين؛ بل وللجنة والآخرة، وكان عدوًا لله ملعونًا في السماء؛ لأن بطاركة الأرض لعنوه، وعدوًا لأولئك الأحباب الذين تقام تلك الأعياد باسمهم، والتي يتخذها أولئك الأحبار والرهبان شبكة لصيد المال والرياسة على حساب أولئك الذين ماتوا، ولا يستطيعون الآن لتلك الأكاذيب والأباطيل والدجال والنصب والاحتيال ردًا .

وما كفاهم تلك البدع الخبيثة التي نشروها وحملوا الناس عليها بمختلف الأسباب والأساليب، بل عمدوا إلى ما يردها من النصوص، أو يشير إلى بطلانها – ولو من طرف خفي – فحرفوه عن موضعه أو غيروه واستبدلوه بغيره من عند أنفسهم يكتبونه بأيديهم ويقولون هذا من عند الله وما هو من عند الله. فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون .

وما زال الشر يتمادى بأولئك المبدلين لدين الله، المحرفين لكتبه، المحاربين لأنبيائه، المزيغين للعقائد، المشترين بآيات الله ودينه ثمنًا من حطام الدنيا ومتاعها قليلاً يملأ الله به بطونهم نارًا وسعيرًا، وما زالت دائرة كفرهم وفسوقهم تتسع، وشرر زيغهم يتطاير، حتى أشعل في العالم نار الفتنة؛ وعم الأرض والناس بذلك جاهلية استحكمت مخالبها في قلوبهم، ووثنية ضربت على ربوعهم ونفوسهم، وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي هذه الطغمة المحتكرة لرحمة الله وفضله، وثوابه وجنته، ومن تبعهم على ذلك ومالأهم على ظلمهم واستبدادهم وطغيانهم، وانتشر ظلام هذه الجاهلية الجهلاء حتى أصبح في ليل بهيم من عمى القلوب والبصائر .

وآن أوان نزول الغيث من عند الله، وانبثاق نور الهداية التي يخرجهم الله بها من تلك الظلمات إلى النور، وينقذهم من الضلال إلى الهدى، ويفك عنهم أغلال أولئك الظالمين الطاغين، ويهديهم سبيله المستقيم الذي يستحيل على الله أن يجعله احتكاراً بيد شيخ أو حبر أو قسيس، وكشف عن مخازي وجرائم أولئك الزاعمين أنفسهم خزان رحمة الله، وعرفنا أنهم أبعد الناس عن رحمة الله، وأشقى الناس بعذاب الله وغضبه وشديد عقابه .

وما تنزل ذلك الغيث الرحماني إلا على قلب خاتم الأنبياء وأشرف المرسلين محمد – ﷺ – وما تفجرت ينابيع الحكمة والرحمة إلا على لسان ذلك الرسول الأكرم، فأحرقت شهبها شياطين الدجل الديني، وطواغيت الخرافات والعقائد الزائفة ، وبددت مصابيحها غياهب تلك الظلمات، وجلت عن القلوب صداها، وأعادتها إلى صفائها الفطري، فعرفت ربها وبارئها، وخلصت له دينها وذلها، وأسلمت له وجهها في طاعة وانقياد، لا استدراك ولا تكعكع، وسارعت إلى مغفرة الله ورضوانه، وجنة عرضها السموات والأرض أعدت للمتقين.

مهد الله تعالى ببزوغ شمس الرسالة المحمدية بمقدمات نبهت العقول إلى قرب مجيئه وأعدت النفوس وهيأتها لتلقي هذه الرسالة بما هي أهل له من التصديق والإذعان،

والإجلال والإعظام والإكبار .

فكان حدث أبرهة مع جيشه الكثيف، وفيلته العظيمة، وإجرامه الفظيع في محاولة هدم بيت الله العتيق؛ وعجز قريش وأحلافهم عن صده ورده ولجوئهم وفزعهم إلى الله على لسان شيخ قريش عبد المطلب، إذ تعلق بأستار البيت ونادى ربه :

لا هُمّ إن المرء يمنع رحله فامنع رحالك
وانصر على آل الصليب وعابديه اليوم آلك

فمنع الله بيته، ورد كيده عدوه في نحره : ﴿**وأرسل عليهم طيراً أبابيل * ترميهم بحجارة من سجيل* فجعلهم كعصف مأكول**﴾ لا كرامة لقريش ولا نصرة لهم ولشيخهم، فلم يكونوا بشركهم ووثنيتهم الفاجرة، وتلويثهم البيت الذي طهره إبراهيم للطائفين والعاكفين والركع السجود، بما نصبوا عليه وحوله وبداخله من صور وتماثيل آلهتهم التي اتخذوها من دون الله، وإنما كان ذلك إكرامًا وتمهيداً لذلك المولود الكريم الذي سيولد في هذا العام الولادة الأولى البشرية، فيكون المثل الأعلى في طفولته لتربية النشء على الطهر والعفاف، وعزة النفس وصيانتها عن كل ما يتسفل بها إلى درك الصغار والفساد، والذي سيولد الولادة الثانية الروحية العلمية الرسالية، فيحمي الله به هذا البيت العتيق، ويطهره من تلك الأرجاس الشركية، ويدفع عنه الهدم المعنوي الذي هدَّ وقوض من أركانه الدينية بما ألصقت به قريش من صور وتماثيل أوليائهم الذين ﴿**لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون * أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون**﴾ .

فأبرهة كان يريد هدمه الحسي بنقض أحجاره، وقريش كانت تهدمه الهدم المعنوي وتخربه الخراب الديني، فحماه الله من أبرهة عام مولد النبي - ﷺ- ليؤذن قريشًا بفضل ذلك المولود العظيم الذي سيحيي الله به بيته العتيق من هدمهم المعنوي ويعمره بالإيمان بالله وإقام الصَّلاة والطواف لله وحده والعكوف عنده لله وحده لا شريك له .

وقرن الله تعالى بميلاد ذلك المولود العظيم آيات بهرت العقول، إرهاصًا بنبوته، وإعلامًا بجلالته، وإيذانًا بفضيلته، وجعله يتيمًا لم ير أباه حتى يكون الفضل في كفالته وتربيته وإيوائه لله وحده، ليصنع على عين الله ويصاغ في القالب العقلي والفكري الذي يؤهله لوظيفة خاتم المرسلين وأتقى المتقين وأعلم العالمين بالله رب العالمين، وسيد الداعين، وأصبر المجاهدين وخير أولي العزم من الأنبياء الصادقين، وأفضل قدوة وأحسنها للمهتدين إلى صراط الله المستقيم .

فهو في ولادته الأولى: محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي: بشر، ولد كما

يولد البشر، وطعامه وشرابه ومحياه ومماته ككل إنسان: ﴿ **يأكل مما تأكلون منه ويشرب مما تشربون** ﴾، وقد قال الله الذي شهد خلق رسول الله - ﷺ - وتكوينه وخلق السموات والأرض وخلق أنفس الناس وكل شيء: ﴿ **قل إنما أنا بشر مثلكم** ﴾، ﴿ **وما جعلنا لبشر من قبلك الخلد أفإن مت فهم الخالدون** ﴾، ﴿ **قل ما كنت بدعا من الرسل** ﴾، ﴿ **إنك ميت وإنهم ميتون** ﴾، ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم** ﴾.

لقد حدث النبي - ﷺ - وهو أعلم بنفسه من كل إنسان مهما أوتي من علم - : «إنما أنا بشر، فلعل أحدكم أن يكون ألحن بحجته فأقضي له»، «إنما أنا ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد». «لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم فإنما أنا عبد الله ورسوله، فقولوا: عبد الله ورسوله».

ألا فاشهدوا بأني آمنت بقول الله عن رسوله وبشريته، وقول الرسول عن نفسه وعبوديته، وكفرت بكذب أعداء الرسول القائلين على الله وعليه بغير علم ولا هدى ولا نور: أنه أول خلق الله، وأنه النور الذي منه خلق الله كل شيء، وأنه نور عرش الله، وأنه مكتوب على ساق العرش، وأنه وأنه.... من تلك الأباطيل التي دسها اليهود وإخوانهم وافتروها على الله ورسوله، وموهوا بها على الجاهلين ليصلوا منها إلى تكذيب القرآن فيما أخبر عن بشرية الرسول التي يماثل فيها جميع البشر، وإلى تكذيب الرسول الذي يخبر عن نفسه بما يرد افتراءات أولئك الزائغين الضالين، وإن زعموا وزعم لهم شياطينهم أنهم أشد الناس حبًا للرسول وتعظيمًا للرسول، فما مثلهم إلا كمثل النصارى مع عيسى سواء بسواء، حذو النعل بالنعل، فكن على بينة من أمرك، واحذر أن تكون مع الجاهلين المفتونين المخدوعين عن دينهم ونبيهم بخرافات وجهالات عششت وباضت وفرخت في رؤوسهم وقلوبهم فحجبتها عن نور العلم النبوي، والهدي المحمدي الذي أخرج الناس من الظلمات إلى النور، وأفلح به أصحابه الصادقون والتابعون المقتدون والأئمة المهتدون والعلماء العارفون، ولم يخطر مع هذا ببال واحد منهم تلك الفرى الكاذبة، فإن ما أوتوا من علم وإيمان رد عنهم كيد شياطين الإنس والجن، فلم يستطيعوا أن يدسوا في رؤوسهم تلك الخزعبلات والجهالات، وأغناهم في معرفة الرسول وإجلاله وتفديته بأنفسهم ما أفادهم من العلم والإيمان، وما أنقذهم من شرك ووثنية، ولقد كانوا من قبل لفي ضلال مبين، أولئك قوم اختارهم الله لصحبة نبيه ونصرة دينه: ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾.

نعم، محمد - ﷺ - بشر في خلقه، بشر في ولادته، بشر في طعامه وشرابه، بشر

في محياه ومماته، ولكنه لا يستطيع عاقل – فضلاً عن مسلم – أن ينكر أو يجحد أنه أعلى أنواع البشرية في كل خصائصها ومزاياها. فروحه أطهر الأرواح، وعقله أكبر العقول، ونفسه أزكى النفوس، وفطرته أسلم الفطر، وتفكيره أوسع أفقًا من كل تفكير وفطنته أنبه الفطن، ورجولته أكمل رجولة، وشجاعته أقوى شجاعة، وقوته أشد قوة، وقلبه أبر القلوب وأرحمها.

وبالجملة فكماله البشري لم يكن ولن يكون له فقه مساوٍ ولا ضريب ولا مثيل. وليس في ذلك مثال خردلة من غلو. فقد أخبر الله أنه على خلق عظيم و ﴿ **الله أعلم حيث يجعل رسالته** ﴾ ، وأنه صنع موسى على عين عنايته ورعايته، فأولى سيد الأنبياء وخاتم المرسلين، وحدثتنا سيرته ﷺ في البخاري ومسلم عن كل ذلك وعن خير من ذلك .

ولد محمد – ﷺ – الولادة الثانية الروحية المعنوية، النبوية العلمية، بعد انقضاء أربعين سنة من عمره الشريف .

في ليلة القدر من ليالي شهر رمضان المعظم، بينما محمد – ﷺ – في غار حراء يتحنث – والتحنث الابتعاد عن المآثم وما يوجب الحنث والعصيان – وقد فر من مكة ومجالسها ومجامعها، ومن أهل مكة ووثنيتهم وجاهليتهم، وأخلاقهم الفاسدة وسيرتهم المعوجة، حيث لا يجد عنده من العلم ما يستطيع أن يرشدهم به، ولا من الدين الحق ما يقدر أن يرجعهم به عن غيهم وكفرهم، فلم يجد لنفسه الحائرة، وقلبه المفعم بالآلام لحال مكة وسكانها وجيرانها الأقربين والأبعدين، إلا البعد عنهم حتى لا يرى ما يزيد في لهيب تلك الآلام في نفسه، ويضاعف الهموم والأحزان التي أقضت مضجعه ومنعته لذة العيش في ذلك الوسط المشرك.

وهكذا النفوس الطيبة، والأرواح الطاهرة لا يهنأ عيشها، وتنعم بالحياة في الأوساط الفاسدة، فإما أن تبذل النصح وتعمل على الإصلاح، وإما أن تهجر ذلك الوسط وتفر منه، ولو إلى الكهوف والغيران، تنعم بوحدتها، وتأنس بالطبيعة الساكنة وما فيها من المخلوقات الصامتة ترى فيها من آيات الله، وخضوع العبودية ما لا تراه من الإنسان الخصيم المبين لربه ونفسه .

في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر مضت على العالم في ظلمة الجهل الحالكة، وشقاء الوثنية الطاغية ؛ تمخضت هذه الليلة عن ولادة النبوة، وتكشفت عن السراج المنير الذي ملأ الدنيا نوراً وهدى ورحمة .

في ليلة القدر هذه بينما محمد – ﷺ – في غار حراء؛ غارق في بحار التفكير في

خلق السموات والأرض، وفي قومه والناس جميعًا وضلالهم ، وفي نفسه وحيرتها أمام هذه الطرق الملتوية ، والسبل المعوجة المظلمة التي يسلكها الناس إلى ربهم وفطرته تأبى له أن يسلك شيئًا من مسالكهم ولا ترضى لهم تلك المسالك، وتحاول السمو إلى معرفة الملك القويم والصراط المستقيم، إذ فجأه الحق ، فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ، يعني: فإني أمي لم أتعلم القراءة ولا الكتابة، وأين من القراءة والكتابة ناشئ قضى كل أوقاته في رعاية الغنم والتجارة بين جبال مكة وفي صحراء جزيرة العرب التي يقل فيها النبت والمرعى؟ فأخذه الملك وضمه إليه ضمة بلغت منه الجهد، وعصره عصرة كادت روحه تزهق معها، ثم خلاه، فقال: اقرأ. فقال: ما أنا بقارئ، لقد أسمعتك أني لست بقارئ، وأعلمتك أني لا أقرأ، فكيف تأمرني بعدها بالقراءة؟ فأخذه وضمه الثانية أشد من الأولى، ثم خلاه وقال له: اقرأ. فقال: ماذا أقرأ؟ علمني الذي أقرأه، فماذا تريدني أقرأ؟ فضمه الثالثة أشد من الأولين، ثم خلاه وقال له: ﴿**اقرأ باسم ربك الذي خلق. خلق الإنسان من علق . اقرأ وربك الأكرم . الذي علم بالقلم . علم الإنسان ما لم يعلم**﴾ .

فأخذه الدهش لتلك الفجأة مع تلك العصرات الشديدة البالغات، فارتجف فؤاده، ورعدت فرائصه، وأسرع الأوبة إلى السيدة الطاهرة البرة الكريمة أم المؤمنين خديجة - رضي الله عنها - ، وقد كانت تنتظر تلك الساعة بفارغ الصبر، وتعد الأيام والليالي لها، لما كانت ترى على زوجها الكريم من مخائل النبوة، ولما كانت تسمع من ابن عمها ورقة من صفات النبي الخاتم الذي بشر به عيسى ابن مريم، وكانت لا تراها متمثلة إلا في زوجها الكريم محمد - ﷺ - .

جاءها وهو على تلك الحال من الدهشة والرجفة، وقال: «زملوني زملوني»، وأخذ يستعرض مفاجأة جبريل بمفتاح الهداية، ومصباح النور الذي طالما تشوفت إليه نفسه التائهة، وقلبه الحائر، وأنه بذلك قد آن لنفسه أن تطمئن إلى هداية الله بذلك الوحي والقرآن له وللناس، وآن لقلبه أن يستريح من حيرته المضنية العنيفة إلى روح الله ونوره الذي يهدي به من يشاء إلى صراط مستقيم .

وأخذ يستعرض حال القلوب وما استحكم عليها من أغلال الجاهلية والهوى، والتقليد الأعمى للآباء والأجداد، وهل من الممكن لذلك المفتاح الذي وضعه الله في يده أن يطلق القلوب من هذه القيود ويفتح هذه الأغلال ؟ إن ذلك لمن أشق الأمور وأحوجها إلى أقوى الجهود، لذلك ضمه جبريل تلك الضمات إشارة إلى ما في ذلك الحمل الذي حمله الله إياه من ثقل ﴿**إنا سنلقي عليك قولاً ثقيلاً**﴾ ، وما سينال فيه من مجهود شاق ؛ وجهاد عنيف .

ثم هدأت نفسه بعد ذلك الاستعراض ، واطمأنت إلى قول خديجة - رضي الله عنها- : «كلا ، لن يخزيك الله أبدًا» . ووقر في نفسه يقين بأن الذي حمله ذلك الحمل الثقيل هو القوي العزيز، وأنه لابد ناصره ومعينه بقوته وتوفيقه .

كان ذلك مبدأ الولادة الثانية لمحمد، فكان رسول الله ، وخرج من ظلمات الحيرة التي طالما ضاق بها صدره، ووضع عن كاهله ما كان ينقضه من هموم التفكير الطويل في طريق الوصول إلى الله، والتفكير المضني في إنقاذ أولئك المساكين الذين أشقتهم وثنيتهم وجاهليتهم .

ثم ما زال الوحي يترى، والنبوة تنمو، ونور الهدى والفرقان تتسع آفاقه حتى تمت كلمة ربك صدقًا وعدلاً لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم، وأتم الله نوره على كره من الكافرين، وجعل كلمته هي العليا وكلمة الذين كفروا السفلى ، والله عزيز حكيم، وأنزل ختام ذلك وآية تمامه، وبلوغه الحد الذي لا مزيد عليه في الخير والهداية: ﴿**اليوم أكلمت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا**﴾ .

وإن هذه الولادة الثانية لأجلّ قدراً وأعظم خطراً في نفس رسول الله - ﷺ - وفي نفس المؤمنين والعقلاء من الولادة الأولى، بل إنه لا نسبة بينهما بحال، فلقد لبث بعد الولادة الأولى عمراً طويلاً - هو أربعون سنة - محمد بن عبد الله الهاشمي القرشي العربي لا يتلو شيئًا من آيات الله ولا يُعَلِّم أحدًا، ولا يستطيع أن يزكي نفسًا من أرجاس الشرك والوثنية، قال الله تعالى: ﴿**وكذلك أوحينا إليك روحًا من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا**﴾ ، وقال: ﴿**وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذًا لارتاب المبطلون . بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم**﴾ .

وقال: ﴿**فقد لبثت فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾ ، وقال: ﴿**قل لو شاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثتُ فيكم عُمراً من قبله أفلا تعقلون**﴾ ؟

فما كان الفضل الأعظم؛ والرحمة العامة الشاملة، والهداية التي أخرجت الناس إلى النور من محمد بن عبد الله، وإنما كانت من محمد رسول الله ، وما كانت هذه الرسالة إلا بعد تلك الولادة الروحية الثانية، التي كانت ليلة القدر من شهر رمضان بعد بلوغه سن الأربعين .

فلئن كان شيء من هاتين الولادتين جديراً بالتذكير والإحياء فهي الولادة النبوية لا الولادة البشرية، وإنه لمن أوجب الفروض إحياء هذه الذكرى في قلب المؤمن ونفسه وبيته

ومتجره ونظام معيشته وإدارة شئونه العامة والخاصة .

وإن من أقوى أسباب سعادة الأمة أن تحيي هذه الذكرى في حكومتها ونظامها وإداراتها وقضاتها، وملكها وجميع شئونها الاقتصادية والسياسية والدولية، ولن يكون ذلك الإحياء بالاحتفال يومًا معينًا أو ليلة واحدة من السنة، لا، وإنما يكون ذلك في كل وقت ولحظة، وفي كل عمل وشأن، تبقى هذه الذكرى النبوية ألزم للإنسان من طعامه وشرابه، لا تبرح قلبه ولا تخرج من نفسه، لتكون هي المقومة لعمله، والمهذبة لخلقه والهادية له في شئونه كلها إلى الصراط المستقيم وطريق الرشاد القويم .

هذه الذكرى تتصل بالروح والأخلاق والآداب لا بالظواهر الفارغة من شموع تضاء وخيام تنصب، وطبول وزمور، فإن هذه الولادة الروحية تمقت أشد المقت كل الزور، وتكره أشد الكره تلك المظاهر الفارغة .

ولقد وفق الصحابة والتابعون والأئمة المهتدون وسلفنا الصالحون - رضي الله عنهم- إلى الانتفاع بهذه الذكرى المجيدة وأحلوها من نفوسهم المحل الأرفع إيمانًا، وهداية، وطاعة لله ولرسوله وأخلاقًا كريمة، وشدة على الكفار، وتراحمًا بينهم، وركوعًا وسجودًا وأمرًا بالمعروف ونهيًا عن المنكر، وعدلاً وإنصافًا، وصدقًا وبرًا، فكانوا بهذه الذكرى خير أمة أخرجت للناس .

وأعرضوا كل الإعراض عن ذكرى الولادة البشرية، فلم يحتفلوا بها ولم يقيموا لها وزنًا ؛ لأنهم يعلمون أن في شهر ربيع الأول كانت الولادة البشرية، وفيه كانت الوفاة البشرية، فأي الحادثتين يذكرون؟ أما الولادة الروحية فلم تنقطع ولم تقبر ولن تقبر، حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين، ولا يزال فضلها وخيرها يعم أهل الأرض غضًا طريًا كأول شأنه في حياة رسول الله - ﷺ - البشرية .

والذكريات تحفز المحتفل إلى تعرف خصائص ومزايا هذه الذكرى وتحضه على البحث والتنقيب على ما امتاز به المحتفل بذكره واختص به عن غيره، وتدوين تلك المزايا ونشرها وبثها في الذكرى وفي الناس ليكون لهم منه قدوة نافعة، وأسوة حسنة والذاكر لا يجتهد في أن يصور تلك الذكرى بأقصى ما يستطيع وأروع ما يقدر ليكون لها في النفوس الأثر الذي يريده .

فالصحابة والسلف الصالح - رضي الله عنهم - لشدة حرصهم على ذكرى الولادة النبوية الروحية يبذلون أقصى ما يستطيعون في حفظ أحاديث رسول الله - ﷺ - ومعرفة أخلاقه النبوية، وآدابه الرسولية، وينشرونها في الناس، ويتحملون في سبيل نشرها في

نواحي العالم أشق الجهود وأبعد الأسفار، وما زالوا كذلك يفعلون حتى ملأوا الأرض بالهدي النبوي وعمت رحمة الله في مشارق الأرض ومغاربها، بفضل أولئك الذي كانوا يعرفون محمداً رسول الله، لا محمداً البشر العربي، ويعرفون رسالته، لا جسمه، ويعرفون نور هدايته النبوية وإشراق صحيفة ملته، لا نور عينيه، ولا بياض وجهه وتورد خدّيه!! .

ثم أتى من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات، وعميت بصائرهم عن ذكرى النبوة، فدس لهم أعداؤهم من اليهود والنصارى فتنة الاحتفال بذكرى البشرية وعظموها في نفوسهم، وشغلوهم بها كل الانشغال حتى لتكاد تعتقد أنها عندهم كل شيء فيتكلفون لها الأمور التي لا تعرف، ويتحدثون عنها، ويؤلفون فيها ما لا يرضاه مسلم عاقل عن نبيه - ﷺ - ، فمن قصائد تشبيب وغزل، ومن وصف لتورد خديه، وسواد عينيه، وطول أهدابه، ووصف لفمه ولبطنه، ولكذا وكذا. وتفننوا ما اشتهت نفوسهم المنحطة في وصفه - ﷺ - ، حتى ليظن السامع والقارئ أنهم إنما يصفون امرأة حسناء، لا نبيًا هو أفضل خلق الله وأشرف رُسل الله، ولا إمامًا هو خير الأئمة شجاعة ومروءة وكرم أخلاق وسخاء نفس، ولا مجاهداً في سبيل الدعوة إلى الله، كان أكمل الأمثلة الصالحة للمجاهدين الصابرين المحتسبين الذين لا يخطر لهم ببال حظ أنفسهم ولا شهوة هواهم، وإنما ملك نفسه حب الله وحب دين الله، وحب الخير للناس أن يكونوا محبين لله ومحبين لدين الله، ومهتدين بهدى الله .

فما أسمج تلك القصص التي يسمونها «موالد» ، وما أبعدها عن دين الله، وما أعظم شرها في تذكير الناس برسول الله، وما أشدها فتكًا بدين الله، وما أقبحها في تنفير الناس من محمد رسول الله الهادي إلى سواء السبيل، وتعشيقهم لمحمد الحلو الجميل، أحمر الخدود، وأسود العيون، وممشوق القدم، ونحيل الخصر، بئسما صنعت وتصنع، وبئسما كانوا يصنعون :

لمثل هذا يذوب القلب من كمد   إن كان في القلب إسلام وإيمان

قال ابن إسحاق : فشب رسول الله - ﷺ - يكلؤه الله ويحفظه، ويحوطه من أقذار الجاهلية، لما يريد من كرامته ورسالته، حتى بلغ أن كان رجلاً أفضل قومه مروءة وأحسنهم خلقًا، وأكرمهم حسبًا، وأحسنهم جوارًا، وأعظمهم حلمًا، وأصدقهم حديثًا، وأعظمهم أمانة، وأبعدهم عن الفحش والأخلاق التي تدنس الرجال، تنزهًا وتكرمًا حتى سماه قومه الأمين .

وذكر أبو نعيم في دلائل النبوة، وغيره من أهل السير والتاريخ عن ابن عباس -

رضي الله عنهما - قال: «حدثتني أم أيمن - حاضنة رسول الله ﷺ - قالت كان لقريش صنم تحضره وتعظمه، وتنسك له النسائك - أي: تذبح له الذبائح - ويصنعون له الطعام - كما يصنع الناس اليوم في الموالد من ذبائح وأطعمة - ويحلقون رءوسهم عنده، ويعكفون عنده يومًا إلى الليل، وذلك يوم في السنة، وكان أبو طالب يحضره مع قومه، كان يكلم رسول الله - ﷺ - أن يحضر ذلك العيد مع قومه، فيأبى رسول الله - ﷺ - ، حتى رأيت أبا طالب غضب عليه أسوأ الغضب، فيقول: إنا نخاف عليك مما تصنع من اجتناب آلهتنا، وجعلنا نقول: ما تريد يا محمد أن تحضر لقومك عيداً، ولا تكثر لهم جمعًا؟ قالت: فلم يزالوا به حتى ذهب، فغاب عنهم ما شاء الله ثم رجع إلينا مرعوبًا، فقلن عماته: ما دهاك؟ قال: إني أخشى أن يكون بي لمم، فقلن: ما كان الله عز وجل ليبتليك بالشيطان، وفيك من خصال الخير ما فيك، فما الذي رأيت؟ قال: إني كلما دنوت من صنم منها تمثل لي رجل طويل أبيض يصيح بي: وراءك يا محمد، لا تمسه، قالت أم أيمن: فما عاد إلى عيد لهم» .

لقد كان هذا في طفولته - ﷺ - فأبى عليه ربه أن يحضر لهم عيداً (مولداً) من موالدهم، ولا أن يشاركهم في زور من اجتماعاتهم التي كانوا يحيون بها ذكرى أوليائهم، وبغض الله في قلبه أشد البغض تلك الأعياد والموالد الجاهلية التي صرفت الناس عن الله وعبادته إلى أولئك الموتى تعظيمًا من دون الله، وتفزع إليها، وتتمسح بما نصب على قبورها، كما بغض الله إليه كل ما كانوا فيه من فسوق ومعاص، ورذائل ونقائص، حتى شرَّفه الله وشرف الأرض برسالته، فكان قد تمكن منه بغض تلك الأعياد والموالد، وانجلى له كل الانجلاء ما كان لها من أسوأ الأثر في إفساد القلوب والعقائد، وأنها ما تقام إلا لمحادة الله والكفر به، وما يقصد منها إلا جر المغانم لأولئك الدجالين الطغاة الذين استعبدوا الناس واستولوا على قلوبهم فأفسدوها باسم أولئك الموتى، وموالدهم وأعيادهم .

فقام رسول الله - ﷺ - في حرب هذه الأعياد أشد قيام، وجاهد الدعاة إليها من سدنة أولئك الموتى أشد جهاد، وما زال حتى طهر الأرض منها، ونكس أعلامها، وقشع عن القلوب غياهبها وظلماتها، وعرف الصحابة بنور العلم النبوي فساد ما كانوا فيه قبلُ وضلاله وشقاءه، فعاونوا رسول الله - ﷺ - على إبطاله أعظم المعاونة ونصروه عليها وعلى المفتونين بها أعز نصر .

ثم كان رسول الله - ﷺ - يعرف من طباع الأمم وتحويلها عن دين الحق ما رأى في اليهود والنصارى وقريش، ويزيده الله تعالى بذلك علمًا، ويخشى على أمته أن تتردى في

مثل ما تردى فيه أولئك المرتدون، ويعلم الله أن أهل الكتاب لا بد أن يحاولوا رد كثير من المسلمين عن دينهم إن استطاعوا، وسيبذلون في ذلك كل الجهود، وحذر رسول الله - ﷺ - أمته من تلك الفتنة، وخوفها أشد التخويف من دسائس أهل الكتاب، وأعطانا سلاحًا قويًا ندفع به عن أنفسنا كيد أعداء الأنبياء من شياطين الجن والإنس، ذلك هو القرآن الذي تولى الله تعالى صيانته بنفسه، وضمن حفظه والسنة المطهرة التي تركها فينا رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من تمسك بها فلن يضل ولن يشقى ومن أعرض عنهما فإن له معيشة ضنكًا، قال - ﷺ - : «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدي: كتاب الله وسنتي**» . وقال: «**وإنه من يعش منكم فسيرى اختلافًا كثيراً، فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي، تمسكوا بها وعضوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة**». وقال: «**لتركبن سنن من كان قبلكم شبراً بشبر، وذراعًا بذراع، حتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتموه**» . وقال: «**لتتبعن سنن من كان قبلكم حذو القذة بالقذة**» . وقال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى عيسى**» .

كل ذلك يدلنا دلالة واضحة على أن النبي - ﷺ - كان حذراً أشد الحذر على أمته من الافتتان بما سيوحيه شياطين الجن والإنس من زخرف القول وغروره، رداً لهم عن دينهم ، وإرجاعًا لهم إلى الكفر بعد إذ أنقذهم الله منه، وبين لنا أن سبيل الشيطان إلى فتنة النصارى وغيرهم هي بعينها سبيله إلى هذه الأمة، وأن علينا أن ننظر في أصل كفر هؤلاء، وما أدى بهم إلى عدواة عيسى ابن مريم وغيره من الأنبياء، لنعرفه فنتقيه ونعلمه فنحذره، فإن جهلنا ذلك. وقلنا: إن اليهود والنصارى وغيرهم كفروا؛ لأنهم يهود ونصارى، لا لأنهم غلوا في عيسى، ولا لأنهم شرعوا في دين الله ما لم يأذن به الله واتخذوا قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد ومعابد، واتخذوا لها الأعياد والذكرانات، ولا لأنهم وضعوا في أعناقهم أغلال التقليد الأعمى لقسيسيهم ومطارنتهم ورهبانهم وأن قاعدتهم وعمدتهم في الدين والعمل « حطها في رقبة عالم واطلع سالم » .

وإذا جهلنا ذلك ولم نتبينه حق التبين وقعنا في شر مما وقعوا، واتخذناه نحن كذلك على مثل ما اتخذوه، عملاً صالحًا وقربة إلى الله، وخيراً نافعًا: ولا يزال ذلك حتى يملك علينا قلوبنا ويصبغها بصبغة الهوى والوثنية، فتنعكس فطرتها وتنقلب حقيقتها فترى المنكر معروفًا والمعروف منكرًا، والصالح باطلاً والباطل صالحًا، وأهل الخير والهدى أهل ضلال، وأهل الضلال والزيغ أهل الخير والهدى، وحينئذٍ يعمنا الله بعذاب من عنده وتحق علينا آية: ﴿**لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون . كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه**﴾ .

ومن أجل هذا كله نجد القرآن الكريم قد كشف عن أحوال هؤلاء الكفار والمشركين وأسباب كفرهم وأعمال شركهم أتم كشف وكذلك السنة المطهرة؛ لنأخذ العبرة ولنتقي ذلك ونحذره .

ومع هذا فقد حذَّر رسول الله - ﷺ - عن تلك الأعمال الجاهلية، والأعياد الشركية نصًا صريحًا لا يقبل التأويل، ولا يصرفه عن مراده ومقصده، إلا مشاق لله ولرسوله، ومتبع غير سبيل المؤمنين، فقال - صلى الله عليه وسلم - : «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» . قالت عائشة - رضي الله عنها - : يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره. وقال: «**لا تتخذوا قبري عيداً**» . وقال: «**لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد، والموقدين عليها السرج**» .

وقال أبو الهياج الأسدي: «بعثني علي - رضي الله عنه - وقال: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم ؟ ألا تجد قبرًا مشرفًا إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته» . وقال غير ذلك كثيراً، ولكن الناس اليوم غلبت عليهم اليهودية والنصرانية والجاهلية، فطرحوا كل هذه النصوص وراء ظهورهم، واتبعوا ما شرعه لهم أحبار هذه الأمة ورهبانها وقساوستها من تلك الأعياد التي لم يأذن الله ولا رسوله بها، واتخذوا أحبارهم ورهبانها أربابًا من دون الله، يحلون لهم ما حرم الله، ويحرمون عليهم ما أحل الله، وبنوا على القبور والمساجد ونصبوا عليها الستور، ووضعوا عندها صناديق النذور، واحتفلوا لها بالأعياد السنوية كل ذلك مضاهاة للمشركين الأولين، وإماتة لسنة وشرعة سيد المرسلين، وطاعة للشيطان الرجيم .

وزين لهم شياطين الجن والإنس ذلك بما أوحوا إليهم من زخرف القول: بأن ذلك تعظيم للنبي - ﷺ - وتعظيم لآل بيته وحب له وحب للصالحين، وكذبوا، فوالله ما هو إلا تعظيم للشرك والمشركين وحب للشيطان وحزبه الخاسرين، وإلا فهل كان هؤلاء المفتونون الجاهلون الضالون في آخر الزمان الذين يبيعون دين الله بأبخس الأثمان، ويشترون بآيات الله ثمناً قليلاً، أعرف بفضل رسول الله - ﷺ- وما يعظمه من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وبقية الصحابة والتابعين والأئمة المهتدين - رضي الله عنهم - وهم أحرص على حب وطاعة الله والرسول، من هؤلاء الذين لا يعلمون الكتاب إلا أماني؟ كلا والله وألف مرة كلا .

فما بال هؤلاء السلف أعرضوا عن تلك الأعياد، وعن تلك الأنصاب والقباب؟ بل ما بالهم كانوا يحاربونها، ويهدمونها ويطهرون الأرض منها؟ والله ما هي إلا القلوب التي

طبع الله عليها، فأبغضت سنة رسول الله - ﷺ - وحاولت إطفاء نور الله وبذلت في ذلك الأموال لتبلغ غايتها، وتحيي ما أمات رسول الله وتميت ما أحيا رسول الله، وما كانت تلك القلوب الخبيثة المجرمة إلا قلوب مدعي الإسلام من اليهود والنصارى ومجوس الفرس لبسوا للناس ثوب الإسلام الظاهر، حين رأوا أن ثوب الحرب لم يفدهم شيئًا، مع استمساك المسلمين بحبل الله المتين وعروة الله الوثقى .

فأعملوا في القلوب والعقائد سلاح بدعهم وأباطيلهم حتى ظفروا بها بالجهل واستعمروها وتمكنوا منها، فخربت من ذكرى الله، ومن دين الله، ومن نور الله، فصرفهم على ذلك في الديار، بعد ما استعبدوا القلوب والنفوس ببدعهم وضلالتهم، ورحم الله مالك بن أنس -رضي الله عنه- إذ قال: «والله لا يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها»

هذه بدعة الأعياد الجاهلية باسم رسول الله، وهو منها بريء، بأبي هو وأمي، وباسم آل بيت رسول الله، وهم منها برآء، وهذه بدعة القباب، ورفع القبور باسم آل بيت رسول الله ، وهم منها برآء، هذه البدع كلها: أول من ابتدعها الدولة اليهودية الباطنية المجرمة الخبيثة الفاسدة المفسدة دولة العبيدين المتسماة كذبًا وزوراً وخداعًا وتغريراً باسم «الفاطميين» وهم برآء من فاطمة الزهراء عليها السلام وهي بريئة منهم، هم أول من أحدث قبة على القبر الذي بنوه بالقاهرة باسم الحسين - رضي الله عنه - والحسين بريء منهم ومن قبرهم، وزعموا كذبًا أنهم أحضروا رأسه الشريف من المدينة إلى ذلك القبر، ليموهوا على الدهماء والعامة، وكذبهم التاريخ ولا يزال رأس الحسين - رضي الله عنه - بالمدينة لم يخرج منها، وليس في هذا القبر إلا هواء كما أن أفئدة العاكفين عنده والمعظمين له والطائفين به وعابديه هواء في هواء .

ثم أول مولد أحدثه هؤلاء العبيدين الملاعين باسم الحسين - رضي الله عنه - وكانوا يزخرفون هذا المنكر بكثرة ما يذبحون وما يطعمون من الطعام وما يخلعون من الخلع وما يبذلون من الأموال يشترون بها الذين باعوا دينهم في سوق الدنيا لأولئك المجرمين، واشتروا الحياة الدنيا بالآخرة وكانوا يقيمون من الألعاب واللهو ما يفتنوا به العامة، وكانوا مع هذه الدعوى في حب الحسين وآل الحسين يسبون أبا بكر وعمر - رضي الله عنهما- على المنابر والمآذن، وينادون بالإفك عن عائشة الصدِّيقة بنت الصدِّيق، تكذيبًا لما أنزل الله من براءتها، ثم يصلون على خليفة الشيطان باسم المذل لدين الله والهادم لشرعة رسول الله - ﷺ - ، قبحهم الله وأذاقهم من عذابه وشديد عقابه ما هم له أهل .

وليس هذا من أولئك اليهود عجبًا، فهم أشد الناس عداوة للذين آمنوا، وإنما العجب

أن يقلدهم في ذلك من ينتسب إلى الإسلام ويترك اتباع النبي - ﷺ - وصحابته ، واتباع علي - رضي الله عنه - وآل بيته، وهل يستطيع أحد أن يدعي أن علياً أحيى مولداً للنبي - ﷺ؟ أو أن الحسن والحسين أو أحد أولاد علي - رضي الله عنهم - أحيوا مولداً لأبيهم؟ وهل يستطيع أحد أن يقول: إن الحسن أو الحسين - رضي الله عنهما - بنوا على قبر أبيهم قبة، ووضعوا عليه مقاصير النحاس المفضضة وستروه بأستار الحرير، وأضاءوا عنده الشموع والسرج؟.

أليس هذا من أعجب العجب، أن يكون علي - رضي الله عنه - هو الذي وظفه رسول الله - ﷺ - في هدم القبور العالية وتسويتها بالأرض، وطمس الأنصاب وإزالتها، ثم يجيء المجرمون فيقيمونها باسم علي وأولاد علي؟ اللهم إني أشهد أن هذا أفجر الفجور، وأفحش الفحش، وأشهد أن علياً والمؤمنين من أولاد علي - رضي الله عنهم - مبرءون من كل هذه القباب والمقاصير والأعياد والموالد الشركية الجاهلية، وأنهم لو بعثوا اليوم لكانوا أول من يهدمها ويحارب المعظمين لها والمحتفلين بها، ومهما زعموا زوراً وبهتاناً أنهم أشد الناس حباً لعلي وأولاده، فهم في الواقع الذي ينطق به القرآن والسنة وتنطق به سيرة علي وأولاده، أعداء علي، وأعداء أولاده، وأعداء الله ، وأعداء رسول الله ﷺ، ورضي الله عن أهل بيته، كعداوة النصارى لعيسى .

ووالله إن ذلك الحب المزعوم، ما يتخذه أولئك السدنة الدجالون إلا شبكة يصيدون بها العامة والدهماء ليأكلوا أموالهم بالباطل، ولو أغلقت هذه الصناديق وأزيلت تلك القباب، وأبطلت تلك الأعياد، وانقطع مورد السحت الذي يملأون به بطونهم، لو وقع هذا ما فكروا في علي ولا في أولاد علي، ولا في أحد من أولئك الموتى الصالحين، ولا خطر لهم ذلك ببال، وهو لم يخطر لهم اليوم ببال، وإنما هو الدجل الذي كان يتأكل منه رهبان النصارى وأحبار اليهود باسم أنبيائهم وصالحيهم، طريقة واحدة سلوكها، وشبكة واحدة أتقنوا صنعها، وإنا لله وإنا إليه راجعون .

هذا، ولم يزل علماء الإسلام ومصابيح الهداية الذين لم يستطع العبيديون ولا غير العبيديين أن يشتري ضمائرهم ولا ذممهم مهما كان من مال أو وظيفة أو رياسة أو دنيا، ولم تجد زخارف الشيطان إلى قلوبهم سبيلاً، لا يزال يشع على قلوبهم نور الإيمان والعلم النبوي، ولا تزال نفوسهم حية قوية الحياة بروح القرآن وهدايته ولم يزل أولئك العلماء المهتدون، ولا يزالون قائمين على الحق، واقفين لحزب الشيطان بالمرصاد قد أخذوا عدتهم، وادعوا السنة المحمدية، ورفعوا سيف القرآن على عنق البدعة وأهلها، يعرضون بها في كل وقت وينادون بها في كل مجتمع وبلد، ويصبرون على ما ينالهم من أذى ألسنة المبتدعين

وأيديهم، ويقتدون برسول الله - ﷺ - وإخوانه الأنبياء **﴿ولا مبدل لكلمات الله﴾** ، يقولون كلمة الحق عالية مهما آذت الخرافيين، ويصكون في وجوههم بسيرة السلف الصالح، وإن كانوا لها كارهين، لا يثنيهم عن ذلك تشنيع دعاة البدعة، عمي الأبصار والبصائر، ولا يهمهم ما يشيعونه عنهم من بهتان مبين، ولا يعبئون بما يزخرفونه على الدهماء والعامة من أن فلانًا يكره النبي - ﷺ - لأنه يمنع من إقامة المولد له، ويبغض الحسين وآل البيت - رضي الله عنهم- ؛ لأنه يكره ما أقيم على قبورهم من أنصاب وأوثان، وما يفعله أمثال الأنعام عندها من دعاء للمقبور واستغاثة به، وتقبيل الأحجار والمقاصير وتمسح بها وطواف حولها كذلك من التشنيع والتهويش لا يعبأ به أنصار سنة الرسول - ﷺ - ولا يعيرونه من نفوسهم أدنى التفات، ولا يزيدون على **﴿قل موتوا بغيظكم إن الله عليم بذات الصدور﴾** .

لا يزال أولئك العلماء يقومون لله ولرسوله - ﷺ - بمحاربة هذه البدع وتحذير الناس منها في كل زمان ومكان ابتغاء وجه الله، لا يريدون من الناس جزاءً ولا شكورًا، ولا يخافون في الله لومة لائم .

فمن أولئك العلماء الأجلاء الذين أنكروا بدعة مولد النبي - ﷺ- : الإمام أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي من أئمة العلماء بالمغرب، وشارح كتاب الموطأ، أحد شيوخ الإمام ابن عبد البر الأندلسي، والمتوفى سنة ٤٩٤هـ. وقد سُئل عن بدعة المولد فقال - رحمه الله ورحمنا معه- : لا أعلم لهذا المولد أصلاً في كتاب ولا سنة، ولا ينقل عمله عن أحد من علماء الأمة الذين هم القدوة في الدين، المتمسكون بآثار المتقدمين، بل هو بدعة أحدثها البطالون، وشهوة نفس اعتنى بها الأكالون، بدليل أنا إذا أدرنا عليه الأحكام الخمسة، قلنا: إما أن يكون واجبًا، أو مندوبًا، أو مباحًا، أو مكروهًا، أو محرمًا، وليس هو بواجب إجماعًا ولا بمندوب؛ لأن حقيقة المندوب ما طلبه الشرع من غير ذم على تركه، وهذا لم يأذن فيه الشرع ولا فعله الصحابة، ولا التابعون ولا العلماء المتدينون فيما علمت وهذا جوابي عليه بين يدي الله تعالى إن سئلت عنه .

ولا جائز أن يكون مباحًا؛ لأن الابتداع في الدين ليس مباحًا بإجماع المسلمين. فلم يبق إلا أن يكون مكروهًا أو حرامًا، وحينئذٍ يكون الكلام فيه في فصلين والتفرقة بين حالين: إحداهما: أن يعمله رجل من عين ماله لأهله وأصحابه وعياله ولا يجاوزون في ذلك الاجتماع أكل الطعام؛ ولا يقترفون شيئًا من الآثام، وهذا الذي وصفناه بأنه بدعة مكروهة وشناعة، إذ لم يفعله أحد من متقدمي أهل الطاعة الذين فيهم فقهاء الإسلام وعلماء الأنام، وسرج الأزمنة ، وزين الأمكنة .

والثاني: أن يعمله رجل من عين ماله لغير أهله ونفسه تتبعه وقلبه يؤمله ويوجعه، لما يجد من ألم الحيف. وقد قال العلماء: أخذ المال بالحياء كأخذه بالسيف، لا سيما إذا انضاف إلى ذلك شيء من الغناء مع البطون الملأى بآلات الباطل مع الدفوف والشبانات واجتماع الرجال مع الشباب المرد والنساء الفاتنات، أو مختلطات بهم أو متشرفات، والرقص بالتثني والانعطاف، والاستغراق في اللهو، ونسيان يوم المخاف، وكذلك النساء إذا اجتمعن على انفرادهن رافعات أصواتهن بالتهنيك والتطريب في الإنشاد والخروج في التلاوة والذكر عن المشروع والأمر المعتاد، غافلات عن قوله تعالى: ﴿**إن ربك لبالمرصاد**﴾.

وهذا الذي لا يختلف في تحريمه اثنان، ولا يستحسنه ذوو المروءة للفتيان، وإنما يحلو ذلك لنفوس موتى القلوب وغير المستقلين من الآثام والذنوب، وأزيدك أنهم يرونه من العبادات، لا من المنكرات المحرمات، فإنا لله وإنا إليه راجعون «**بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ**».

أما بعد: فليست تلك الملاهي والمفاسد التي تُقام باسم النبي - ﷺ- وليس ما يعمله أهل الطرق الصوفية من رقصهم وغنائهم، وألاعيبهم التي يضيعون لأجلها الصلوات ويهتكون بها المحرمات، ويشاقون بها الله والرسول، ليس شيء من ذلك مما يحبه الله والرسول، ولا كان يدعو إليه الرسول، وإنما كان من أشد ما ينهى عنه الرسول - ﷺ - .

وإنما إحياء ذكرى الرسول - ﷺ - كما قلنا - بإحياء العمل بسنته، واتباع دينه، والوقوف عند حدوده، لا بتلك المهازل التي تدمي قلب الإسلام، وتصيبه في الصميم من فسوق وفجور وسفه وطيش، وبدع وخرافات.

وإن أفضل ما تحيى به ذكرى رسول الله - ﷺ - في هذه الظروف الحاضرة إمداد فلسطين الدامية، ومساعدتها بكل ما يستطيع ويملك المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها، وعلى الأخص مصر، وأولى ثم أولى من تلك الملاهي والأنوار الكهربائية والألعاب التي تذهب فيها أموال طائلة إلى جيوب الأعداء الذين احتلونا بشركاتهم اقتصاديًا، أن توفر هذه الأموال وتقدم مساعدة لفلسطين، يشترى بها سلاح وعدة لدفع غائلة الحشرات اليهودية وأعوانها المجرمين الذين يقتطعون الأمة الإسلامية قطعة قطعة.

والمسلمون لاهون في أعيادهم الوثنية وتهريجهم يستنزلون غضب الله بمحاربة رسالة رسوله، ويحطمون قواهم بهذه المهازل والألعاب التي يفجرون أعظم الفجور بإلصاقها برسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

وإنا لنرجو الرجاء كله أن يفيق قادة الأمة من هذه الغفلة اللاهية، وأن يأخذوا

الإسلام بقوة وجد كما أخذه الصحابة والتابعـون والأئمة المهتدون، لعل الله سبحانه يغير ما بهم إذا علم أنهم حريصـون على أن تمحى هذه البدع والأعيـاد الجاهلية، وأن تؤخـذ الأمة بالشدة والقوة إلى الصراط المستقيم الذي سنه رسول الله - ﷺ - وأوصى الله تعالى به في قوله: **﴿وأن هذا صراطي مستقيمًا فاتبعـوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون﴾**.

وفق الله الجميع لحب الرسول - ﷺ - وحب سنته وديـنه الحب الصادق الذي هو ثمرة العلم والهدى والإيمان والذي يبعثنا على طاعته وإحياء العمل برسالته والتحاكم إلى ما جاءنا به من الهدى والشريعة الصالحة المصلحة، والكفر بالطاغوت كله؛ لنكون من المفلحين.

● ● ●

نواقض الإسلام

اعلم أيها المسلم - هداني الله وإياك إلى الصراط المستقيم وجنبني وإياك أن نعبد الأصنام - أن من نواقض الإسلام ما يأتي:

الأول: الشرك في عبادة الله تعالى بجميع أنواعها: كفر ناقض للإسلام ومبطل للأعمال الصالحة ومناف لإخلاص العبادة لله التي ما خلقنا إلا لها .

قال الله تعالى: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** [الذاريات: ٥٦] .

وقال تعالى: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ومن يشرك بالله فقد افترى إثمًا عظيمًا﴾** [النساء: ٤٨] .

وقال تعالى: **﴿لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يا بني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾** [المائدة: ٧٢] .

وقال الله تعالى: **﴿قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليَّ أنما إلهكم إله واحد فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملاً صالحًا ولا يشرك بعبادة ربه أحدًا﴾** [الكهف: ١١٠] .

فمن صرف شيئًا من العبادة لغير الله فهو مشرك، وهذا هو الذي أرسلت الرسل وأنزلت الكتب بالإنذار عنه، وترتبت عليه عقوبات الدنيا والآخرة في حق من لم يتب منه، قال الله تعالى: **﴿قل أي شيء أكبر شهادة قل الله شهيد بيني وبينكم وأوحي إليَّ هذا القرآن لأنذركم ومن بلغ أئنكم لتشهدون أن مع الله آلهةً أخرى قل لا أشهد قل إنما هو إله واحد وإنني بريء مما تشركون﴾** [الأنعام: ١٩].

وقال الله تعالى: **﴿قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به﴾** [الرعد: ٣٦] .

وقال الله تعالى: **﴿قل إني أمرت أن أعبد الله مخلصًا له الدين﴾** [الزمر: ١١] ، والدين هو العبادة .

وقال الله تعالى: **﴿قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون﴾** [آل عمران: ٦٤] .

وقال الله تعالى، بعد أن ذكر كثيراً من الرسل: نوح وإبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب وداود وسليمان وأيوب ويونس ويوسف وموسى وهارون وزكريا ويحيى وعيسى وإلياس واليسع ولوط، وأنه هداهم إلى صراط مستقيم: ﴿ **ذلك هدى الله يهدي به من يشاء من عباده ولو أشركوا لحبط عنهم ما كانوا يعملون** ﴾ [الأنعام: ٨٨] ، وقال الله تعالى: ﴿ **قل أفغير الله تأمروني أعبد أيها الجاهلون . ولقد أوحي إليك وإلى الذين من قبلك لئن أشركت ليحبطن عملك ولتكونن من الخاسرين . بل الله فاعبد وكن من الشاكرين** ﴾ [الزمر: ٦٤-٦٦].

وقال الله تعالى: ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة . إن الذين كفروا من أهل الكتاب والمشركين في نار جهنم خالدين فيها أولئك هم شر البرية** ﴾ [البينة: ٥-٦] .

الثاني: من جعل بينه وبين الله وسائط يدعوهم لكشف الضر وجلب النفع أو يسألهم الشفاعة في عالم البرزخ أو في حال الغيبة ويتوكل عليهم: كفر، إجماعًا بين علماء المسلمين من الصحابة والتابعين وأئمة الهدى من المفسرين والمحدثين والفقهاء والمتكلمين، بل النهي عن ذلك هو دين الأنبياء جميعاً؛ لأن الله تعالى لم يبعث رسله ولم ينزل كتبه لتعريف خلقه بأنه الخالق الرازق المحيي المميت مدبر الأمور ، فإن هذا يقرُّ به جميع المشركين قبل بعثة الرسل عليهم السلام، ويعترفون بأن أولياءهم لا تخلق ولا ترزق ولا تحيي ولا تميت، ولا تدبر أمر من دعاها، ولم يكن شركهم إلا باعتقادهم أن الأولياء الذين اتخذوهم من دون الله ينفعونهم ويضرونهم ويقربونهم إلى الله تعالى ويشفعون لهم عنده تعالى .

قال الله تعالى: ﴿ **قل من يرزقكم من السماء والأرض أمن يملك السمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون . فذلكم الله ربكم الحق فماذا بعد الحق إلا الضلال فأنى تصرفون** ﴾ [يونس: ٣١، ٣٢].

وقال الله تعالى: ﴿ **قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيقولون لله قل أفلا تتقون. قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجير ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أنى تسحرون** ﴾ [المؤمنون: ٨٤-٨٩].

وقال الله تعالى: ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض وسخر الشمس والقمر ليقولن الله فأنى يؤفكون** ﴾ [العنكبوت: ٦١].

وقال الله تعالى: ﴿ **ولئن سألتهم من خلقهم ليقولن الله فأنى يؤفكون** ﴾ [الزخرف: ٨٧].

وقال تعالى: ﴿ **ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم** ﴾ [الزخرف: ٩].

فها هم أولاء يشهدون بأن الله منفرد بصفات الربوبية كلها من خلق ورزق وإحياء وإماتة وإنزال غيث، وإخراج نبات، وتسخير الشمس والقمر، وتدبير الأمور من السماء إلى الأرض، وهو مالك السموات والأرض وما فيها، وأنه يملك السمع والأبصار والأفئدة، وكل ما يضيفون إلى أوليائهم الذين اتخذوهم آلهة من دون الله تعالى من الفضل وينسبون إليها من العمل أنها تشفع لهم وأنها تقربهم إليه زلفى .

قال الله تعالى: ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ [يونس: ١٨] .

وقال الله تعالى: ﴿ **إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق فاعبد الله مخلصًا له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار** ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

وكانوا يقولون في تلبيتهم بالحج: لبيك لا شريك لك، إلا شريكًا هو لك، تملكه وما ملك، وكان يسمعهم النبي – صلى الله عليه وسلم – عند قولهم: لا شريك لك، فيقول: قد أفردوه جل جلاله لو تركوا قولهم إلا شريكًا هو لك، فنفس شركهم بالله إقرار به تعالى ، وهذا فرعون مع غلوه في كفره ودعواه أقبح دعوى، ونطقه بالكلمة الشنعاء: ﴿ **أنا ربكم الأعلى** ﴾ [النازعات: ٢٤]، و ﴿ **ما علمت لكم من إله غيري** ﴾ [القصص: ٣٨]، يقول الله في حقه حاكيًا عن موسى عليه السلام: ﴿ **قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السموات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبورًا** ﴾ [الإسراء: ١٠٢] ، ويقول الله تعالى عن فرعون وقومه: ﴿ **فلما جاءتهم آياتنا مبصرة قالوا هذا سحر مبين . وجحدوا بها واستيقنتها أنفسهم ظلمًا وعلوًا فانظر كيف كان عاقبة المفسدين** ﴾ [النمل: ١٣، ١٤] .

وإبليس – لعنه الله – يعرف الله ويعترف به، ويقول كما ذكر الله عنه في القرآن الكريم: ﴿ **إني أخاف الله رب العالمين** ﴾ ، ﴿ **رب فأنظرني إلى يوم يبعثون** ﴾ ، ﴿ **قال رب بما أغويتني لأزينن لهم في الأرض ولأغوينهم أجمعين . إلا عبادك منهم المخلصين** ﴾ ، بل ويعترف بأن الله تعالى رب السموات والأرض وما فيهما، ولهذا نجد كل ما ورد في الكتاب

العزيز في شأن خالق الخلق في مخاطبة الكفار معنونًا باستفهام التقرير: ﴿ **هل من خالق غير الله** ﴾، ﴿ **أفي الله شك فاطر السموات والأرض** ﴾ ، ﴿ **فأروني ماذا خلق الذين من دونه** ﴾؟ .

﴿ **أفمن يخلق كمن لا يخلق** ﴾؟ ﴿ **أروني ماذا خلقوا من الأرض أم لهم شرك في السموات** ﴾؟ واحتج بذلك الرسل على المشركين وهم مقرون بذلك لا ينكرون، ولم ينفعهم الإقرار بالله مع إشراكهم بالعبادة، ولم يدخلهم ذلك الإقرار بجميع صفات الربوبية في الإسلام .

وإذا علمت هذا وذاك فاعلم أن الله تعالى أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم عليهم الصلاة والسلام ليدعو العباد إلى إفراد الله تعالى بالعبادة؛ لأنه وحده الذي له الخلق والأمر، وبيده النفع والضر، لا شريك له، ولا يشفع عنده أحد إلا بإذنه تعالى، ولا يشفع المأذون للشفاعة إلا لمن رضي الله عنه وشاء له الشفاعة، ولا يرضى من العمل إلا ما كان خالصًا له .

وأنزل الله كتبه جميعًا لإخلاص توحيده، وإفراده بالعبادة، وأنه لا معبود بحق غيره تعالى، قال الله تعالى: ﴿ **وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون** ﴾ [الأنبياء: ٢٥] .

وقال الله تعالى: ﴿ **لا إكراه في الدين قد تبين الرشد من الغي فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم . الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور والذين كفروا أولياؤهم الطاغوت يخرجونهم من النور إلى الظلمات أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون** ﴾ [البقرة: ٢٥٦، ٢٥٧] .

والكفر بالطاغوت أن تعتقد بطلان عبادة غير الله تعالى، وتتركها وتبغضها، وتكفر أهلها وتعاديهم، وصفة الإيمان بالله، أن تعتقد أن الله تعالى هو الإله المعبود وحده المستحق للعبادة على خلقه جميعًا دون سواه وتخلص جميع أنواع العبادة كلها لله تعالى، وتنفيها عن كل معبود سواه، وتحب أهل الإخلاص وتواليهم، وتبغض أهل الشرك وتعاديهم، وهذا تفسير كلمة التوحيد « لا إله إلا الله » ، ومعناها: إفراد الله تعالى بالعبادة والإلهية، والنفي والبراءة من كل معبود سواه، وقد قال رسول الله – ﷺ – : « **من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل** » . رواه مسلم .

وهذه ملة إبراهيم خليل الرحمن – عليه السلام – : ﴿ **من يرغب عن ملة إبراهيم إلا من سفه نفسه ولقد اصطفيناه في الدنيا وإنه في الآخرة لمن الصالحين** ﴾ [البقرة: ١٣٠] .

وهذه هي الأسوة الحسنة التي أخبر الله بها في قوله تعالى: ﴿ **قد كانت لكم أسوة**

حسنة في إبراهيم والذين معه إذ قالوا لقومهم إنا برآء منكم ومما تعبدون من دون الله كفرنا بكم وبدا بيننا وبينكم العداوة والبغضاء أبداً حتى تؤمنوا بالله وحده إلا قول إبراهيم لأبيه لأستغفرن لك وما أملك من الله من شيء ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير ﴾ [الممتحنة: ٤].

وقوله تعالى: ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيراً** ﴾ [الأحزاب: ٢١].

وهذا هو دين كل الأنبياء ودعوة جميع الرسل عليهم الصلاة والسلام: ﴿ **أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده** ﴾.

ومع ذلك فأكثر أهل الأرض مفتونون بعبادة غير الله تعالى، ولم يتخلص منها إلا الحنفاء أتباع ملة إبراهيم، قال الله تعالى: ﴿ **فريق في الجنة وفريق في السعير** ﴾.

فالفرقة الناجية هي من كان على ما كان عليه الرسول - ﷺ - وأصحابه رضي الله عنهم وهم واحد من كل ألف ﴿ **وما آمن معه إلا قليل** ﴾، ﴿ **وقليل من عبادي الشكور** ﴾.

وأما فريق السعير فتسعمائة وتسعون من كل ألف، كما صح عن النبي - صلى الله عليه وسلم -، وقال تعالى: ﴿ **ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون** ﴾.

وقال الله تعالى: ﴿ **وما يؤمن أكثرهم بالله إلا وهم مشركون** ﴾، ﴿ **فأبى أكثر الناس إلا كفوراً** ﴾، ﴿ **وإن تطع أكثر من في الأرض يضلوك عن سبيل الله** ﴾، ﴿ **وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين** ﴾، ﴿ **وما وجدنا لأكثرهم من عهد وإن وجدنا أكثرهم لفاسقين** ﴾.

واستمع الآن أيها الأخ المسلم طرفًا من دعوة الرسل عليهم الصلاة والسلام إلى إفراد الله تعالى بالعبادة، وأجوبة أقوامهم لهم عن ذلك التوحيد.

● دعوة نوح - عليه السلام - إلى الله - تعالى - وجواب قومه:

قال الله تعالى: ﴿ **لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه فقال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إني أخاف عليكم عذاب يوم عظيم. قال الملأ من قومه إنا لنراك في ضلال مبين** ﴾ [الأعراف: ٥٩، ٦٠].

وقال الله تعالى: ﴿ **وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً** ﴾ [نوح: ٢٣]، وعن ابن عباس - رضي الله عنهما - أنه قال: هذه أسماء رجال

صالحين من قوم نوح، فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم: أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم ففعلوا، ولم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونسي العلم عبدت. رواه البخاري.

وقال الله تعالى: ﴿ **ولقد أرسلنا نوحًا إلى قومه فلبث فيهم ألف سنة إلا خمسين عامًا فأخذهم الطوفان وهم ظالمون. فأنجيناه وأصحاب السفينة وجعلناها آية للعالمين** ﴾[العنكبوت: ١٤، ١٥].

● دعوة إبراهيم - عليه السلام - إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وجواب أبيه وقومه:

قال الله تعالى: ﴿ **واتل عليهم نبأ إبراهيم. إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون. قالوا نعبد أصنامًا فنظل لها عاكفين. قال هل يسمعونكم إذ تدعون. أو ينفعونكم أو يضرون. قالوا بل وجدنا آباءنا كذلك يفعلون** ﴾ [الشعراء: ٧٠- ٧٤].

وقال الله تعالى: ﴿ **واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقًا نبيًا. إذ قال لأبيه يا أبت لم تعبد ما لا يسمع ولا يبصر ولا يغني عنك شيئًا** ﴾؟ الآيات: ﴿ **قال أراغب أنت عن آلهتي يا إبراهيم لئن لم تنته لأرجمنك واهجرني مليًا** ﴾ [مريم: ٤١-٤٦].

وقال الله تعالى: ﴿ **قال أفتعبدون من دون الله ما لا ينفعكم شيئًا ولا يضركم. أف لكم ولما تعبدون من دون الله أفلا تعقلون. قالوا حرقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين. قلنا يا نار كوني بردًا وسلامًا على إبراهيم. وأرادوا به كيدًا فجعلناهم الأخسرين** ﴾ [الأنبياء: ٦٦-٦٩]، واحتجاج إبراهيم على أبيه وقومه مستفيض في سورة الأنعام.

● دعوة هود - عليه السلام - إلى إفراد الله - تعالى - بالعبادة وجواب قومه:

قال الله تعالى: ﴿ **قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره أفلا تتقون. قال الملأ الذين كفروا من قومه إنا لنراك في سفاهة وإنا لنظنك من الكاذبين** ﴾ [الأعراف: ٦٥، ٦٦]، وقال الله تعالى: ﴿ **وإلى عاد أخاهم هودًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره إن أنتم إلا مفترون. يا قوم لا أسألكم عليه أجرًا إن أجري إلا على الذي فطرني أفلا تعقلون. ويا قوم استغفروا ربكم ثم توبوا إليه يرسل السماء عليكم مدرارًا ويزدكم قوة إلى قوتكم ولا تتولوا مجرمين. قالوا يا هود ما جئتنا ببينة وما نحن بتاركي آلهتنا عن قولك وما نحن لك بمؤمنين. إن نقول إلا اعتراك بعض آلهتنا بسوء قال إني أشهد الله واشهدوا أني بريء مما تشركون** ﴾ [هود: ٥٠-٥٤].

● دعوة صالح - عليه السلام - إلى إفراد الله - تعالى - بالعبادة وجواب قومه:

قال الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم هذه ناقة الله لكم آية فذروها تأكل في أرض الله ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب أليم . واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد وبوأكم في الأرض تتخذون من سهولها قصوراً وتنحتون الجبال بيوتًا فاذكروا آلاء الله ولا تعثوا في الأرض مفسدين . قال الملأ الذين استكبروا من قومه للذين استضعفوا لمن آمن منهم أتعلمون أن صالحًا مرسل من ربه قالوا إنا بما أرسل به مؤمنون . قال الذين استكبروا إنا بالذي آمنتم به كافرون﴾ [الأعراف: ٧٣-٧٦].

وقال الله تعالى: ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره هو أنشأكم من الأرض واستعمركم فيها فاستغفروه ثم توبوا إليه إن ربي قريب مجيب . قالوا يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا أتنهانا أن نعبد ما يعبد آباؤنا وإننا لفي شك مما تدعونا إليه مريب﴾ [هود: ٦١، ٦٢].

● دعوة شعيب - عليه السلام - إلى إفراد الله - تعالى - بالعبادة وجواب قومه:

قال الله تعالى: ﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا في الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين﴾ [الأعراف: ٨٤].

﴿قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن في ملتنا قال أولو كنا كارهين . قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا في ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علما على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين . وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذًا لخاسرون﴾ [الأعراف: ٨٨ - ٩٠].

﴿وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره ولا تنقصوا المكيال والميزان إني أراكم بخير وإني أخاف عليكم عذاب يوم محيط . ويا قوم أوفوا المكيال والميزان بالقسط ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تعثوا في الأرض مفسدين . بقية الله خير لكم إن كنتم مؤمنين وما أنا عليكم بحفيظ . قالوا يا شعيب أصلاتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا أو أن نفعل في أموالنا ما نشاء إنك لأنت الحليم الرشيد﴾ [الأعراف: ٨٤ - ٨٧].

● دعوة موسى - عليه السلام - إلى إفراد الله - تعالى - بالعبادة وجواب قومه:

قال الله تعالى: ﴿وقال موسى يا فرعون إني رسول من رب العالمين . حقيق على أن لا

أقول على الله إلا الحق قد جئتكم ببينة من ربكم فأرسل معي بني إسرائيل . قال إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين . فألقى عصاه فإذا هي ثعبان مبين . ونزع يده فإذا هي بيضاء للناظرين﴾ الآيات [الأعراف: ١٠٤-١٠٧] ، ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الأرض ويذرك وآلهتك قال سنقتل أبناءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون . قال موسى لقومه استعينوا بالله واصبروا إن الأرض لله يورثها من يشاء من عباده والعاقبة للمتقين﴾ [الأعراف: ١٢٧، ١٢٨] وقال تعالى: ﴿فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا إن هذا لسحر مبين * قال موسى أتقولون للحق لما جاءكم أسحر هذا ولا يفلح الساحرون * قالوا أجئتنا لتلفتنا عما وجدنا عليه آباءنا وتكون لكما الكبرياء في الأرض وما نحن لكما بمؤمنين * وقال فرعون ائتوني بكل ساحر عليم * فلما جاء السحرة قال لهم موسى ألقوا ما أنتم ملقون * فلما ألقوا قال موسى ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين * ويحق الله الحق بكلماته ولو كره المجرمون * فما آمن لموسى إلا ذرية من قومه على خوف من فرعون وملئهم أن يفتنهم وإن فرعون لعال في الأرض وإنه لمن المسرفين * وقال موسى يا قوم إن كنتم آمنتم بالله فعليه توكلوا إن كنتم مسلمين﴾ [يونس: ٧٦-٨٤] .

وقال الله تعالى: ﴿ولقد أرسلنا موسى بآياتنا وسلطان مبين . إلى فرعون وهامان وقارون فقالوا ساحر كذاب * فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه واستحيوا نساءهم وما كيد الكافرين إلا في ضلال . وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾ [غافر: ٢٣ - ٢٦] .

• دعوة خاتم الرسل محمد بن عبد الله - عليه الصلاة والسلام - إلى إفراد الله تعالى بالعبادة وجواب قومه:

قال الله تعالى: ﴿قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعًا الذي له ملك السموات والأرض لا إله إلا هو يحيي ويميتُ فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته واتبعوه لعلكم تهتدون﴾ [الأعراف: ١٥٨] ، وقال تعالى: ﴿قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئًا وبالوالدين إحسانًا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ذلكم وصاكم به لعلكم تعقلون * ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا الكيل والميزان بالقسط لا نكلف نفسًا إلا وسعها وإذا قلتم فاعدلوا ولو كان ذا قربى وبعهد الله أوفوا ذلكم وصاكم به لعلكم تذكرون * وأن هذا صراطي مستقيمًا

فاتبعوه﴾ [الأنعام: ١٥١ - ١٥٣] .

وقال الله - تعالى - : ﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾ - الآيات - ﴿ذلك مما أوحى إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إلهًا آخر فتلقى في جهنم ملومًا مدحوراً﴾ [الإسراء: ٢٣ - ٣٩] .

وقال الله - تعالى- : ﴿وأن أقم وجهك للدين حنيفًا ولا تكونن من المشركين . ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين﴾ [يونس: ١٠٥ ، ١٠٦] ، والظلم هنا الشرك؛ لقول الله تعالى: ﴿لا تشرك بالله إن الشرك لظلم عظيم﴾ [لقمان: ١٣] ، وكأن سائلاً سأل الله - سبحانه وتعالى - فقال: ما الذي لا ينفع ولا يضر فلا يُدْعى ؟ فأجاب الله بقوله: ﴿وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم﴾ [يونس: ١٠٧] . وهذه الآية تساوي قوله تعالى: ﴿ادعوني أستجب لكم﴾ ، ﴿فلا تدعوا مع الله أحدًا﴾ .

وقال الله - تعالى - : ﴿يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين يدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب﴾ [الحج: ٧٣] ، وقال الله تعالى: ﴿له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ [الرعد: ١٤] ، وقال الله تعالى: ﴿إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين . ألهم أرجل يمشون بها أم لهم أيد يبطشون بها أم لهم أعين يبصرون بها أم لهم آذان يسمعون بها قل ادعوا شركاءكم ثم كيدون فلا تنظرون . وإن وليي الله الذي نزل الكتاب وهو يتولى الصالحين . والذين تدعون من دونه لا يستطيعون نصركم ولا أنفسهم ينصرون﴾ [الأعراف: ١٩٤ - ١٩٧].

وقال الله - تعالى - : ﴿والذين يدعون من دون الله لا يخلقون شيئًا وهم يخلقون . أموات غير أحياء وما يشعرون أيان يبعثون . إلهكم إله واحد فالذين لا يؤمنون بالآخرة قلوبهم منكرة وهم مستكبرون﴾ [النحل : ٢٠-٢٢] ، وقال الله تعالى: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً﴾ [الإسراء: ٥٦ - ٥٧] .

وقال الله - تعالى - : ﴿أفحسب الذين كفروا أن يتخذوا عبادي من دوني أولياء إنا أعتدنا جهنم للكافرين نزلاً . قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً . الذين ضل سعيهم في الحياة

الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعًا . أولئك الذين كفروا بآيات ربهم ولقائه فحبطت أعمالهم فلا نقيم لهم يوم القيامة وزنًا . ذلك جزاؤهم جهنم بما كفروا واتخذوا آياتي ورسلي هزواً . إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات كانت لهم جنات الفردوس نزلاً ﴾ [الكهف : ١٠٢ – ١٠٧] .

وقال الله – تعالى – : ﴿ مثل الذين اتخذوا من دون الله أولياء كمثل العنكبوت اتخذت بيتًا وإن أوهن البيوت لبيت العنكبوت لو كانوا يعلمون . إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء وهو العزيز الحكيم . وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾ [العنكبوت : ٤١ – ٤٣] .

وقال الله – تعالى – : ﴿ ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير ﴾ [الحج : ٦٢] ، وقال الله – تعالى – : ﴿ قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له ﴾ [سبأ : ٢١ ، ٢٢] .

وقال – تعالى – : ﴿ ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير ﴾ [فاطر : ١٣، ١٤]، وقال الله تعالى : ﴿ وما يستوي الأعمى والبصير . ولا الظلمات ولا النور . ولا الظل ولا الحرور . وما يستوي الأحياء ولا الأموات إن الله يسمع من يشاء وما أنت بمسمع من في القبور . إن أنت إلا نذير ﴾ [فاطر : ١٩ – ٢٣]، وقال الله تعالى : ﴿ ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين ﴾ [الأحقاف : ٥ ، ٦] .

وقال الله تعالى : ﴿ وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً . وأنه لما قام عبد الله يدعوه كادوا يكونون عليه لبداً . قل إنما أدعو ربي ولا أشرك به أحداً . قل إني لا أملك لكم ضراً ولا رشداً . قل إني لن يجيرني من الله أحد ولن أجد من دونه ملتحداً . إلا بلاغًا من الله ورسالاته ومن يعص الله ورسوله فإن له نار جهنم خالدين فيها أبداً ﴾ [الجن : ١٨ – ٢٣]، وقال الله تعالى : ﴿ شرع لكم من الدين ما وصى به نوحًا والذي أوحينا إليك وما وصينا به إبراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه كبر على المشركين ما تدعوهم إليه الله يجتبي إليه من يشاء ويهدي إليه من ينيب ﴾ [الشورى : ١٣] ، وقال الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا للذين آمنوا لو كان خيراً ما سبقونا إليه وإذ لم يهتدوا به فسيقولون هذا إفك

قديم ﴾ [الأحقاف : ١١] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون** ﴾ [فصلت : ٢٦]، وقال الله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قالوا ما هذا إلا رجل يريد أن يصدكم عما كان يعبد آباؤكم وقالوا ما هذا إلا إفك مفترى وقال الذين كفروا للحق لما جاءهم إن هذا إلا سحر مبين** ﴾ [سبأ : ٤٣] .

ولقد علمنا من هذه الآيات البينات مبلغ حرص القبوريين في كل زمان ومكان على أوليائهم الذين اتخذوا معبودات من دون الله تعالى، وأنه إذا دعاهم داعي الحق إلى عبادة الله وحده، والإعراض عن هذه الأباطيل، أخذتهم العزة بالإثم، وغضبوا أشد الغضب واشمأزت قلوبهم من توحيد الله، وقد سجل الله تعالى عليهم هذا الجمود والغباء في كتابه العزيز بالآيات السابقة والآتية :

قال الله تعالى : ﴿ **وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب . أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب . وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إن هذا لشيء يراد . ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق . أأنزل عليه الذكر من بيننا بل هم في شك من ذكري بل لما يذوقوا عذاب** ﴾ [ص : ٤ - ٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون** ﴾ [الزمر : ٤٥] .

وقال الله تعالى : ﴿ ذلكم بأنه إذا دعي الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير ﴾ [غافر : ١٢] ، وقال الله تعالى : ﴿ قالوا أجئتنا لنعبد الله وحده ونذر ما كان يعبد آباؤنا فأتنا بما تعدنا إن كنت من الصادقين ﴾ [الأعراف : ٧٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات تعرف في وجوه الذين كفروا المنكر يكادون يسطون بالذين يتلون عليهم آياتنا قل أفأنبئكم بشر من ذلكم النار وعدها الله الذين كفروا وبئس المصير** ﴾ [الحج : ٧٢]، وقال الله تعالى : ﴿ **ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** ﴾ [الحجر : ٨] ، وقال الله تعالى : ﴿ **وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما وجدنا عليه آباءنا أولو كان الشيطان يدعوهم إلى عذاب السعير** ﴾ [لقمان : ٢١]، وقال الله تعالى : ﴿ **وإذا تتلى عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين** ﴾ [الأنفال : ٣١] .

- **دين الأنبياء واحد :**

قال الله تعالى : ﴿ **إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً وإن من أمة إلا خلا فيها نذير** ﴾ [فاطر : ٢٤] .

وقال الله تعالى: ﴿وما أرسلنا في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا بما أرسلتم به كافرون﴾ [سبأ: ٣٤].

وقال الله تعالى: ﴿ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت فمنهم من هدى الله ومنهم من حقت عليه الضلالة فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين﴾ [النحل: ٣٦].

والطاغوت: كل ما عبد من دون الله، ورضي بالعبادة من معبود أو متبوع، أو مطاع في غير طاعة الله ورسوله - ﷺ - ولا شك في أن العابد لغير الله، والمعبود من دون الله وهو راضٍ بالعبادة، يدخلون جهنم خالدين فيها أبدًا، لقول الله تعالى: ﴿ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم كذلك نجزي الظالمين﴾ [الأنبياء: ٢٩]. ولقول الله تعالى: ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون. لو كان هؤلاء آلهة ما وردوها وكل فيها خالدون. لهم فيها زفير وهم فيها لا يسمعون﴾ [الأنبياء: ٩٨ - ١٠٠]، ولقول الله تعالى: ﴿وقال الذين كفروا للذين آمنوا اتبعوا سبيلنا ولنحمل خطاياكم وما هم بحاملين من خطاياهم من شيء إنهم لكاذبون. وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم وليسألن يوم القيامة عما كانوا يفترون﴾ [العنكبوت: ١٢، ١٣].

• تخاصم العابد والمعبود في النار:

قال الله تعالى: ﴿إن الله لعن الكافرين وأعد لهم سعيراً. خالدين فيها أبداً لا يجدون وليًا ولا نصيراً. يوم تقلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسولا. وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا. ربنا آتهم ضعفين من العذاب والعنهم لعنًا كبيراً﴾ [الأحزاب: ٦٤ - ٦٨].

وقال الله تعالى: ﴿وإذ يتحاجون في النار فيقول الضعفاء للذين استكبروا إنا كنا لكم تبعًا فهل أنتم مغنون عنا نصيبًا من النار. قال الذين استكبروا إنا كل فيها إن الله قد حكم بين العباد. وقال الذين في النار لخزنة جهنم ادعوا ربكم يخفف عنا يومًا من العذاب. قالوا أولم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾ [فاطر: ٥٠].

قال الله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم ما بين أيديهم وما خلفهم وحق عليهم القول في أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين. وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون. فلنذيقن الذين كفروا عذابًا شديدًا ولنجزينهم أسوأ الذي كانوا يعملون. ذلك جزاء أعداء الله النار لهم فيها دار الخلد جزاء بما

كانوا بآياتنا يجحدون . وقال الذين كفروا ربنا أرنا الذين أضلانا من الجن والإنس نجعلهما تحت أقدامنا ليكونا من الأسفلين﴾ . وقال الله تعالى : ﴿**ألقيا في جهنم كل كفار عنيد . مناع للخير معتد مريب . الذي جعل مع الله إلهًا آخر فألقياه في العذاب الشديد . قال قرينه ربنا ما أطغيته ولكن كان في ضلال بعيد . قال لا تختصموا لدي وقد قدمت إليكم بالوعيد**﴾ [ق : ٢٤ – ٢٩] .

وأما الأنبياء والملائكة – عليهم الصلاة والسلام– ، والأولياء، والصالحون – رضي الله تعالى عنهم – الذين أمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ولم يرضوا بعبادتهم، بل قالوا للناس: اعبدوا ربكم، ولا تعبدوا معه أحدًا، ثم عبدهم الخلف بعد ذلك ظنًّا منهم أن هذا يرضيهم وأنهم يستحقون بذلك شفاعتهم، فليس عليهم شيء من العذاب، وإنما العقاب على الذين ظلموا وبدلوا قولاً غير الذي قيل لهم وخلطوا عملاً صالحًا وآخر سيئًا، وألبسوا إيمانهم بظلم، قال الله تعالى : ﴿**إن الذين سبقت لهم منا الحسنى أولئك عنها مبعدون**[1] . **لا يسمعون حسيسها وهم في ما اشتهت أنفسهم خالدون**﴾ [الأنبياء: ١٠١ ، ١٠٢]. وقال الله تعالى : ﴿**إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا تتنزل عليهم الملائكة ألا تخافوا ولا تحزنوا وأبشروا بالجنة التي كنتم توعدون**﴾ [فصلت : ٣٠] .

وقال الله تعالى : ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد . يوم لا ينفع الظالمين معذرتهم ولهم اللعنة ولهم سوء الدار**﴾ [غافر: ٥١، ٥٢]، وقال الله تعالى : ﴿**لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعًا**﴾ [النساء: ١٧٢]، وقال الله تعالى : ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون . الذين آمنوا وكانوا يتقون . لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم**﴾ [يونس: ٦٣ ، ٦٤] .

وقال الله تعالى : ﴿**إن المتقين في جنات ونهر . في مقعد صدق عند مليك مقتدر**﴾ [القمر: ٥٤ – ٥٥] .

وهذا، ويكون في يوم القيامة اتهام واستجواب ، وإنكار ومرافعة، وتبرؤ ومحاكمة، تنتهي بالحكم بالبراءة بالفوز العظيم بالجنة من أحكم الحاكمين للذين أحسنوا ، والإدانة والخزي الأليم بالنار للذين ظلموا، قال الله تعالى : ﴿**وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما في نفسي ولا أعلم ما في نفسك إنك أنت علام**

---

(١) الضمير عائد إلى جهنم في قوله تعالى في الآية قبلها : ﴿إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم﴾ .

الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيداً ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد . إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم . قال الله هذا يوم ينفع الصادقين صدقهم لهم جنات تجري من تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً رضي الله عنهم ورضوا عنه ذلك الفوز العظيم . لله ملك السموات والأرض وما فيهن وهو على كل شيء قدير ﴾ [المائدة : ١١٦ - ١٢٠] .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن أظلم ممن افترى على الله كذبًا أو كذب بآياته إنه لا يفلح الظالمون . ويوم نحشرهم جميعًا ثم نقول للذين أشركوا أين شركاؤكم الذين كنتم تزعمون . ثم لم تكن فتنتهم إلا أن قالوا والله ربنا ما كنا مشركين . انظر كيف كذبوا على أنفسهم وضل عنهم ما كانوا يفترون ﴾ [الأنعام : ٢١ - ٢٤] .

وقال الله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعًا ثم يقول للملائكة أهؤلاء إياكم كانوا يعبدون . قالوا سبحانك أنت ولينا من دونهم بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون . فاليوم لا يملك بعضكم لبعض نفعًا ولا ضراً ونقول للذين ظلموا ذوقوا عذاب النار التي كنتم بها تكذبون ﴾ [سبأ : ٤٠ - ٤٢] ، وقال الله تعالى : ﴿ ويوم يحشرهم جميعًا يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس وقال أولياؤهم من الإنس ربنا استمتع بعضنا ببعض وبلغنا أجلنا الذين أجلت لنا قال النار مثواكم خالدين فيها ﴾ [الأنعام : ١٢٨] .

وقال الله تعالى : ﴿ ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حبًا لله ولو يرى الذين ظلموا إذ يرون العذاب أن القوة لله جميعًا وأن الله شديد العذاب . إذ تبرأ الذين اتُّبعوا من الذين اتَّبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب . وقال الذين اتبعوا لو أن لنا كرة فنتبرأ منهم كما تبرؤوا منا كذلك يريهم الله أعمالهم حسرات عليهم وما هم بخارجين من النار ﴾ [البقرة : ١٦٥ - ١٦٧]، وقال الله تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لن نؤمن بهذا القرآن ولا بالذي بين يديه ولو ترى إذ الظالمون موقوفون عند ربهم يرجع بعضهم إلى بعض القول يقول الذين استضعفوا للذين استكبروا لولا أنتم لكنا مؤمنين* قال الذين استكبروا للذين استضعفوا أنحن صددناكم عن الهدى بعد إذ جاءكم بل كنتم مجرمين. وقال الذين استضعفوا للذين استكبروا بل مكر الليل والنهار إذ تأمروننا أن نكفر بالله ونجعل له أنداداً وأسروا الندامة لما رأوا العذاب وجعلنا الأغلال في أعناق الذين كفروا هل يجزون إلا ما كانوا يعملون ﴾ [سبأ : ٣١ - ٣٣]، وقال الله تعالى : ﴿ تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون . ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات

الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم ﴾ [الجاثية: ٦-٨] .
وقال الله تعالى: ﴿ **فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدى من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [القصص: ٥٠] .

وعن ابن مسعود - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «من مات وهو يدعو من دون الله نداً دخل النار» . رواه البخاري .

وعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله ﷺ قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئاً دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئاً دخل النار**» . رواه مسلم . وعن معاذ بن جبل - رضي الله عنه - عن النبي ﷺ أنه قال: «**حق الله على العباد أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، وحق العباد على الله أن لا يعذب من لا يشرك به شيئاً**» . روه البخاري ومسلم .

● الإجماع على كفر متخذي الوسائط عند الله - تعالى - :

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في «رسالة الوسائط»(١) : من جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويسألهم جلب المنافع وسد الفاقات وتفريج الكربات فهو كافر بإجماع المسلمين . انتهى .

وقال في «شرح الإقناع» : من جعل بينه وبين الله وسائط يتوكل عليهم ويدعوهم، كفر؛ لأن ذلك كفعل عابدي الأصنام قائلين: ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾. انتهى.

وقال الإمام البكري في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿ **والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ كانوا إذا سئلوا: من خلق السموات والأرض؟ قالوا: الله، وإذا سئلوا عن عبادة الأولياء قالوا: ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى، لأجل طلب شفاعتهم عند الله تعالى، وهذا كفر. انتهى كلامه .

دعاء المخلوق فيما لا يقدر عليه إلا الله، شرك صريح عند الفقهاء من جميع المذاهب الإسلامية . قال شيخ الإسلام تقي الدين في «الإقناع» : إن من دعا ميتاً وإن كان من الخلفاء الراشدين فهو كافر، ومن شك في كفره فهو كافر . انتهى كلامه . وقال العلامة الفقيه ابن حجر الهيتمي في شرح الأربعين له: من دعا غير الله فهو كافر .

دعاء الأنبياء والأولياء والملائكة والجن من دون الله ، وتوسيطهم عند الله شرك صريح بإجماع العلماء .

---

(١) لا نعلم لشيخ الإسلام ابن تيمية رسالة بهذه التسمية، ولعل الكاتب أراد رسالته المسماة (الواسطة بين الخلق والحق)

وقال الحافظ ابن كثير -رحمه الله- في تفسيره عند قول الله تعالى: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ أي: فما يحملهم على عبادتهم أنهم عمدوا إلى أصنامهم اتخذوها على صور الملائكة المقربين فعبدوا تلك الصور تنزيلاً لذلك منزلة عبادتهم الملائكة ليشفعوا لهم عند الله في نصرهم ورزقهم وما ينوبهم من أمر الدنيا .

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - في الرسالة السنية: كل من غلا في نبي أو رجل صالح وجعل فيه نوعًا من الإلهية مثل أن يقول: يا سيدي فلان انصرني، أو أغثني، أو ارزقني، أو أنا في حسبك، ونحو هذه الأقوال، فكل هذا شرك صريح وضلال يستتاب صاحبه . فإن تاب وإلا قتل. فإن الله سبحانه وتعالى إنما أرسل الرسل وأنزل الكتب ليعبد وحده لا شريك له، ولا يدعى معه إله آخر، والذين يدعون مع الله آلهة أخرى مثل المسيح والملائكة والأولياء لم يكونوا يعتقدون أنها تخلق الخلائق أو تنزل المطر أو تنبت النبات، وإنما كانوا يعبدونهم أو يعبدون قبورهم أو يعبدون صورهم، قائلين ما حكى الله عنهم: ﴿**والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى**﴾ [الزمر: ٣]، ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله**﴾ [يونس: ١٨] ، فبعث الله سبحانه وتعالى رسله تنهى أن يدعى أحد من دونه، لا دعاء عبادة ولا دعاء استغاثة. اهـ .

وقال الحافظ ابن القيم - رحمه الله - : ومن أنواع الشرك طلب الحوائج من الموتى والاستغاثة بهم والتوجه إليهم، وهذا أصل شرك العالم، فإن الميت قد انقطع عمله وهو لا يملك لنفسه نفعًا ولا ضرًا، فضلاً عمن استغاث به وسأله أن يشفع له إلى الله، وهذا من جهله بالشافع والمشفوع عنده . اهـ .

وقال صاحب الفتاوى البزازية في كتب الحنفية: قال علماؤنا: من قال: أرواح المشايخ حاضرة تعلم، يكفر . اهـ .

وقال الشيخ صنع الله الحنفي رحمه الله في الرد على من ادعى أن للأولياء تصرفات في الحياة وبعد الممات ، على سبيل الكرامة: هذا وإنه قد ظهر الآن فيما بين المسلمين جماعات يدعون أن للأولياء تصرفات في حياتهم وبعد مماتهم، ويستغاث بهم في الشدائد والبليات وبهممهم تكشف الملمات، فيأتون قبورهم وينادونهم في قضاء الحاجات، زاعمين أن ذلك منهم كرامات، وقالوا منهم أبدال، ونقباء، وأوتاد، ونجباء، وسبعون ، وسبعة وأربعون، وأربعة، والقطب هو الغوث للناس، وعليه المدار بلا التباس، وجوزوا لهم الذبائح والنذور، وأثبتوا لهم فيها الأجور. قال: وهذا كلام فيه تفريط وإفراط، بل فيه

الهلاك الأبدي والعذاب السرمدي لما فيه من روائح الشرك المحقق، ومصادمة الكتاب المصدق، ومخالفة عقائد الأمة وما اجتمعت عليه الأمة . وفي التنزيل: ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: ١١٥] .

وقال العلامة الفقيه ابن حجر الهيثمي من أئمة الشافعية في كتابه «فتح المبين شرح الأربعين»: من دعا غير الله فهو كافر . اهـ .

وقال شيخ الإسلام أبو العباس رحمه الله، وقد سئل عن رجل قال: لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله؟ قال: من جعل الملائكة والأنبياء والأولياء وسائط يدعوهم ويسألهم جلب المنافع وسد الفاقات وتفريج الكربات، فهو كافر بإجماع المسلمين . اهـ .

وقال الإمام العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني، في تطهير الاعتقاد: من اعتقد في شجر أو حجر أو قبر أو ملك أو جني أو حي أو ميت أن ينفع أو يضر أو أنه يقرب إلى الله تعالى، أو يشفع عنده في حاجة من حوائج الدنيا بمجرد التشفع والتوسل إلى الرب تعالى فإنه قد أشرك مع الله غيره، واعتقد ما لا يحل اعتقاده، كما اعتقد المشركون في الأوثان. اهـ .

وقال صاحب تبيين المحارم المذكورة في القرآن، وهو من أئمة الحنفية: من أشرك في الله غيره فإنه يكفر بالإجماع، ويقتل إن أصر على ذلك، وإن تاب تاب الله عليه، وسَلِمَ من القتل . اهـ .

وقال الإمام محمد بن علي الشوكاني - رحمه الله - في إخلاص كلمة التوحيد: لا شك أن من اعتقد في ميت من الأموات أو حي من الأحياء، أنه يضره أو ينفعه إما استقلالاً، أو مع الله تعالى وناداه أو توجه إليه أو استغاث به في أمر من الأمور التي لا يقدر عليها المخلوق: لم يخلص التوحيد لله ولا إفراده بالعبادة ، إذ الدعاء بطلب وصول الخير إليه ودفع الضر عنه، هو نوع من أنواع العبادة، ولا فرق بين أن يكون هذا المدعو من دون الله أو معه حجراً أو شجراً أو ملكًا أو شيطانًا أو إنسانًا من الأحياء أو الأموات، وكل عالم يعلم ذلك ويقرّ به فإن العلة واحدة، وعبادة غير الله تعالى وتشريك غيره معه يكون للحيوان كما يكون للجماد، وللحي كما يكون للميت، فمن زعم أن ثم فرقًا بين من اعتقد في وثن من الأوثان أنه يضر أو ينفع، وبين من اعتقد في ميت من بني آدم أو حي منهم أنه يضر أو ينفع أو يقدر على أمر لا يقدر عليه إلا الله تعالى فقد غلط غلطًا بينًا وأقرّ على نفسه بجهل كثير . اهـ .

والمقصود: أن أهل العلم ما زالوا ينكرون هذه الأمور الشركية التي عمت بها

البلوى، واعتقدها أهل الأهواء، فلو تتبعنا كلام العلماء المنكرين لهذه الأمور الشركية لطال الكلام، والبصير يدرك الحق من أول دليل، ويكفي المؤمن الصادق أن يقرأ آية واحدة في القرآن الكريم ويتدبر معناها من الآيات الكثيرة التي أنكر الله فيها على من يدعو أحدًا من دونه ممن لا يملك ضراً ولا نفعًا، مثل قول الله - تعالى -: ﴿**ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين . وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو إن يردك بخير فلا راد لفضله يصيب به من يشاء من عباده وهو الغفور الرحيم**﴾ [الزمر: ١٠٦ - ١٠٧].

وقول الله - تعالى - : ﴿**إن الذين يعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقًا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون**﴾ [العنكبوت: ١٧].

وقول الله - تعالى - : ﴿**ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل وأن الله هو العلي الكبير**﴾ [الحج: ٦٢].

وقول الله - عز وجل - : ﴿**والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير . إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير**﴾ [فاطر: ١٣، ١٤].

وقول الله - تعالى - : ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له**﴾ [سبأ: ٢١، ٢٢].

وقول الله - تعالى - : ﴿**ومن أضلُّ ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الأحقاف: ٥، ٦].

وقول الله - تعالى - : ﴿**يا أيها الناس ضرب مثل فاستمعوا له إن الذين تدعون من دون الله لن يخلقوا ذبابًا ولو اجتمعوا له وإن يسلبهم الذباب شيئًا لا يستنقذوه منه ضعف الطالب والمطلوب**﴾ [الحج: ٧٣].

﴿**تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون . ويل لكل أفاك أثيم . يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبراً كأن لم يسمعها فبشره بعذاب أليم**﴾ [الجاثية: ٦ - ٨].

ومن قال قولاً بلا برهان فقوله ظاهر البطلان، مخالف لما عليه أهل الحق والإيمان، المتمسكون بحكم القرآن، المستجيبون لداعي الحق والإيمان. وصلى الله على محمد وآله

وصحبه وسلم .

الثالث من نواقض الإسلام: الذبح لغير الله: لأنه عبادة كالصلاة، وصرفها لغير الله شرك، والذبيحة محرمة، والذابح مشرك، ومن يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار، وإليك الآيات القرآنية الصريحة في ذلك:

قال الله - تعالى- : **﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾** [الأنعام: ١٢١]، وقال الله - تعالى- : **﴿قل إنني هداني ربي إلى صراط مستقيم دينًا قيمًا ملة إبراهيم حنيفًا وما كان من المشركين . قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾** [الأنعام: ١٦١ - ١٦٣] .

وقال الله - تعالى- : **﴿فصل لربك وانحر﴾** [الكوثر: ٢] .

وقال الله - تعالى- : **﴿يا أيها الذين آمنوا كلوا من طيبات ما رزقناكم واشكروا لله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل به لغير الله فمن اضطر غير باغٍ ولا عاد فلا إثم عليه إن الله غفور رحيم﴾** [البقرة: ١٧٢، ١٧٣] ، وقال الله - تعالى- : **﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به﴾** [المائدة: ٣] ، وقال الله - تعالى- : **﴿قل لا أجد في ما أوحي إليَّ محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقًا أهل لغير الله به﴾** [الأنعام: ١٤٥]، وقال الله - تعالى- : **﴿فكلوا مما رزقكم الله حلالاً طيبًا واشكروا نعمت الله إن كنتم إياه تعبدون . إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به فمن اضطر غير باغٍ ولا عادٍ فإن الله غفور رحيم﴾** [النحل: ١١٤، ١١٥] .

تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون، والإهلال في الأصل هو رفع الصوت عند رؤية الهلال، ثم استعمل في رفع الصوت مطلقًا، ومنه إهلال الصبي، والإهلال بالحج .

وكانوا في الجاهلية إذا أرادوا ذبح ما قربوه إلى أوليائهم سموا عليها أسماءها كاللات والعزى ومناة، ورفعوا بها أصواتهم .

والمراد بما أهل به لغير الله: ما ذكر على ذبحه غير اسم الله تعالى من أسماء المخلوقات كائنًا من كان، وما أعلن أنه منذور به لغير الله، وكذلك كل طعام يصنع ليوزع على العاكفين عند القبور باسمها وعلى بركتها هو بما أهل به لغير الله، فلو ذبح إنسان لغير الله متقربًا إليه فذبيحته محرمة، وإن قال فيه باسم الله؛ لأنها مما أهل به لغير الله؛ ولأنها

ذبيحة مرتد وتسميته اللفظية لاغية، والعبرة بالإهلال الحقيقي بما انطوى عليه من قصد التقرب به لغير الله، كما يفعله الذين يتقربون إلى الكواكب والجن بالذبح والبخور ونحو ذلك باسم الزار وإخراج الجن المتلبس بالإنس بزعمهم، ويدقون لذلك القبور، ولهذا ورد في الحديث عن النبي - ﷺ - : «**أنه نهى عن ذبائح الجن**» .

وقال الزمخشري في شرح ذلك: كانوا إذا اشتروا داراً أو بنوها أو استخرجوا عينًا ذبحوا ذبيحة خوفًا أن تصيبهم الجن، فأضيفت إليهم الذبائح لذلك .

وهاك أيها الأخ المسلم بعضًا من الأحاديث الصحيحة التي صرح فيها الرسول - ﷺ - على أن الذابح لغير الله ملعون ومصيره إلى النار:

عن علي - رضي الله عنه - قال: حدثني رسول الله - ﷺ - بأربع كلمات: «**لعن الله من ذبح لغير الله، لعن الله من لعن والديه، لعن الله من آوى محدثًا، لعن الله من غير منار الأرض**» . رواه مسلم .

عن طارق بن شهاب - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «**دخل الجنة رجل في ذباب، ودخل النار رجل في ذباب، قالوا: وكيف ذلك يا رسول الله؟ قال: مر رجلان على قوم لهم صنم لا يجوزه أحد حتى يقرب له شيئًا، فقالوا لأحدهما: قرب، قال: ليس عندي شيء أقرب، قالوا له: قرب ولو ذبابًا، فقرب ذبابًا فخلوا سبيله فدخل النار، وقالوا للآخر: قرب، فقال: ما كنت لأقرب لأحد شيئًا دون الله عز وجل، فضربوا عنقه فدخل الجنة**» . رواه الإمام أحمد، فإذا كان هذا فيمن قرب للصنم ذبابًا فكيف بمن يستسمن الإبل والغنم ليتقرب بنحرها وذبحها لمن كان يعبده من دون الله؟ .

وقد قال الله - تعالى- : ﴿**يا أيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم ناراً وقودها الناس والحجارة عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون**﴾ [التحريم: ٦] .

عن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**قال الله تعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك معي فيه غيري تركته وشركه**» رواه مسلم .
وعن جابر - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «**من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة، ومن لقيه يشرك به شيئًا دخل النار**» رواه مسلم .

هذه أحاديث رسول الله - ﷺ - الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحى .

قال الله - تعالى- : ﴿وما أتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا واتقوا الله إن الله شديد العقاب﴾ [الحشر: ٧]، وقال الله تعالى: ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾ [النور: ٦٣].

وقال الله تعالى: ﴿يا أيها الذين آمنوا استجيبوا لله وللرسول إذا دعاكم لما يحييكم﴾ [الأنفال: ٢٤]، وقال الله تعالى: ﴿للذين استجابوا لربهم الحسنى والذين لم يستجيبوا له لو أن لهم ما في الأرض جميعًا ومثله معه لافتدوا به أولئك لهم سوء الحساب ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾ [الرعد: ١٨]، وقال الله تعالى: ﴿ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

الرابع من نواقض الإسلام: النذر لغير الله تعالى: لأنه عبادة لا يجب على الناذر الوفاء به إلا إذا نذره لله، فيكون النذر لغير الله شركًا ويصير الناذر مشركًا به: ﴿من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار﴾ والمنذور باطل لا يجوز الوفاء به.

الآيات القرآنية الدالة على أن النذر عبادة وصرفه لغير الله شرك: قال الله تعالى: ﴿وما أنفقتم من نفقة أو نذرتم من نذر فإن الله يعلمه وما للظالمين من أنصار﴾ [البقرة: ٢٧٠]، وقال الله تعالى: ﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه وإنه لفسق وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم وإن أطعتموهم إنكم لمشركون﴾ [الأنعام: ١٢١]، وقال الله تعالى: ﴿وجعلوا لله مما ذرأ من الحرث والأنعام نصيبًا فقالوا هذا لله بزعمهم وهذا لشركائنا فما كان لشركائهم فلا يصل إلى الله وما كان لله فهو يصل إلى شركائهم ساء ما يحكمون﴾ [الأنعام: ١٣٦]، وقال الله تعالى: ﴿وقالوا هذه أنعام وحرث حجر لا يطعمها إلا من نشاء بزعمهم وأنعام حرمت ظهورها وأنعام لا يذكرون اسم الله عليها افتراء عليه سيجزيهم بما كانوا يفترون﴾ [الأنعام: ١٣٨]، وقال الله تعالى: ﴿قل لا أجد في ما أوحي إليَّ محرمًا على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دمًا مسفوحًا أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقًا أهل لغير الله به﴾ [الأنعام: ١٤٥]، وقال الله تعالى: ﴿إن الأبرار يشربون من كأس كان مزاجها كافورًا . عينًا يشرب بها عباد الله يفجرونها تفجيرًا . يوفون بالنذر ويخافون يومًا كان شره مستطيرًا﴾ [الإنسان: ٦، ٧].

وإذا علمت ذلك من الآيات القرآنية، فهذه النذور الواقعة من عباد القبور تقربًا بهم إليهم ليقضوا لهم حوائجهم وليشفعوا لهم عند الله، كل ذلك شرك في العبادة بلا ريب؛ ذلك لأن الناذر لله وحده قد علق رغبته به، لعلمه بأن ما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن،

وأنه لا مانع لما أعطى ولا معطي لما منع، فتوحيد القصد هو توحيد العبادة، ولهذا ترتب عليه وجوب الوفاء فيما نذره طاعة لله، والعبادة إذا صرفت لغير الله صار ذلك شركًا بالله فيكون الصارف قد أثبت ما نفته: «لا إله إلا الله» من إلهية غير الله ولم يثبت ما أثبتته من الإخلاص: ﴿**وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين**﴾ [البينة: ٥] .

• الأحاديث الدالة على أن النذر لغير الله باطل، لا يجوز للناذر لغير الله الوفاء به ولا يحل للسدنة قبضه:

عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله - ﷺ - قال: «**من نذر أن يطيع الله فليطعه، ومن نذر أن يعصي الله فلا يعصه**» . رواه البخاري .

وعن ثابت بن الضحاك - رضي الله عنه - قال: «نذر رجل أن ينحر إبلاً ببوانة فسأله النبي ﷺ فقال: **هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟ فهل فيها عيد من أعيادهم؟** قالوا: لا، فقال رسول الله - ﷺ - : **أوف، فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله، ولا فيما لا يملك ابن آدم**» . رواه أبو داود .

• إجماع العلماء المحققين على أن النذر لغير الله معصية لا يجوز الوفاء به ولا يحل للآخذين أكله:

قال الحافظ ابن حجر: اتفقوا على تحريم النذر في المعصية، وتنازعوا هل ينعقد موجبًا للكفارة أم لا؟ والراجح لا كفارة عليه .

قال شيخ الإسلام رحمه الله: وأما ما نُذر لغير الله كالنذر للأصنام والشمس والقمر والقبور ونحو ذلك ، فهو بمنزلة أن يحلف بغير الله من المخلوقات، لا وفاء عليه ولا كفارة، وكذلك الناذر للمخلوقات فإن كلاهما شرك، والشرك ليس له حرمة بل عليه أن يستغفر الله من هذا ويقول ما قال النبي - صلى الله عليه وسلم - : «**من حلف وقال في حلفه: واللات والعزى، فليقل: لا إله إلا الله**» . رواه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي وابن ماجة عن أبي هريرة رضي الله عنه .

وقال فيمن نذر للقبور: هذا النذر معصية باتفاق المسلمين لا يجوز الوفاء به، وكذلك إذا نذر مالاً للسدنة أو المجاورين العاكفين بتلك البقعة، فإن فيهم شبهًا من السدنة التي كانت عند اللات والعزى ومناة، ويأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله.

وفيهم أيضًا شبه من الذين قال فيهم الخليل عليه السلام: ﴿**ما هذه التماثيل التي أنتم لها عاكفون**﴾؟ والذين اجتاز بهم موسى عليه السلام وقوله: ﴿**وجاوزنا ببني إسرائيل البحر فأتوا على قوم يعكفون على أصنام لهم**﴾ ، فالنذر لأولئك السدنة، «الخلفاء» والمجاورين في

هذه البقاع نذر معصية، وقال الرافعي في شرح المنهاج: وأما النذر للمشاهد التي على قبر ولي أو شيخ . . . فهذا النذر باطل غير منعقد .

وقال الشيخ قاسم الحنفي في شرح درر البحار: النذر الذي ينذره أكثر العوام على ما هو مشاهد كأن يكون للإنسان غائب أو مريض أو له حاجة فيقول: يا سيدي فلان، إن رد الله غائبي أو شفا مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب أو الفضة أو من الطعام أو من الماء أو من الشمع أو الزيت كذا. فهذا النذر باطل بالإجماع لوجوه:

منها: أنه نذر لمخلوق ، والنذر للمخلوق لا يجوز، ولأنه عبادة لا تكون لمخلوق، ومنها أنه ظن أن الميت يتصرف في الأمور دون الله واعتقاد ذلك كفر . . . إلى أن قال: إذا علمت هذا، فما يؤخذ من الدراهم والشمع والزيت وغيرها وينقل إلى ضرائح الأولياء تقربًا إليها فحرام بإجماع المسلمين .

وقال الشيخ صنع الله الحلبي في الرد على من أجاز الذبح والنذر للأولياء: فهذا الذبح والنذر إن كان على اسم فلان فهو لغير الله فيكون باطلاً ، قال الله تعالى: **﴿ولا تأكلوا مما لم يذكر اسم الله عليه﴾** .

وقال الله تعالى: **﴿قل إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين . لا شريك له﴾** [الأنعام: ١٦٢، ١٦٣]، والنذر لغير الله إشراك مع الله كالذبح لغيره .

وقال العلامة محمد بن إسماعيل الصنعاني في تطهير الاعتقاد : فإن قلت هذه النذور والنحائر ما حكمها؟ قلت: قد علم كل عاقل أن الأمور عزيزة عند أهلها يسعون في جمعها ولو بارتكاب كل معصية، ويقطعون الفيافي من أدنى الأرض والأقاصي، فلا يبذل أحد من ماله شيئًا إلا معتقدًا لجلب نفع أكثر منه أو دفع ضرر. فالناذر للقبر ما أخرج من ماله إلا لذلك، وهذا اعتقاد باطل، ولو عرف الناذر بطلان ما أراده ما أخرج درهمًا، فإن الأموال عزيزة عند أهلها ، قال الله تعالى: **﴿ولا يسألكم أموالكم . إن يسألكموها فيحفكم تبخلوا ويخرج أضغانكم﴾** ، فالواجب تعريف من أخرج النذر بأنه إضاعة لماله وأنه لا ينفعه ما يخرجه ولا يدفع عنه ضرراً، وقد قال - ﷺ - : **«إن النذر لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل»**

ويجب رد نذر المعصية إليه، وأما القابض للنذر فإنه حرام عليه قبضه؛ لأنه أكل لمال الناذر بالباطل لا في مقابلة شيء، وقد قال تعالى: **﴿ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل﴾** ، ولأنه أعان على إقرار الناذر على شركه وقبح اعتقاده ورضاه بذلك، ولا يخفى حكم الراضي بالشرك: **﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به﴾** ، فهو مثل حلوان الكاهن ومهر البغي،

ولأنه تدليس على الناذر وإيهام له أن الولي ينفعه ويضره، فأي تقرير لمنكر أعظم من قبض النذر على الميت؟ وأي تدليس أعظم وأي رضاء بالمعصية أبلغ من هذا؟ وأي تصيير لمنكر معروفًا أعجب من هذا؟ .

وما كانت النذور للأصنام والأوثان إلا على هذا الأسلوب: يعتقد الناذر جلب النفع في الصنم ودفع الضرر، فينذر له جزءًا من ماله ويقاسمه في غلات أطيانه ويأتي به إلى سدنة الأصنام فيقبضونه منه ويوهمونه حقية عقيدته، وكذلك يأتي بنحيرته فينحرها بباب الصنم .

وهذه الأفعال هي التي بعث الله الرسل لإزالتها ومحوها والنهي عنها. اهـ.

●●●

الرد على المستنجدين بالمقبور

الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب هدًى وذكرى لأولي الألباب، ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لينذر من كان حيًّا ويحق القول على الكافرين، والصلاة والسلام على محمد خاتم النبيين الذي أرسله الله رحمة للعالمين، هاديًا ومبشراً للمؤمنين، وأوحى إليه أن يتبع ملة إبراهيم حنيفًا، وما كان من المشركين وعلى آله وأصحابه أجمعين.

أما بعد: فقد سألتني أيها الأخ الكريم والصديق الحميم أن أجمع رسالة تشتمل على نبذة كافية لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد فيما يتعلق ببناء القباب والمساجد على قبور الصالحين وغير الصالحين، وما ورد عن النبي - ﷺ - من النهي والتحذير والوعيد الشديد لمن فعل ذلك، لعل الله أن يفتح بها آذانًا صمًا وعيونًا عميًا، وقلوبًا غلفًا، وأن ينفع بها المسلمين عامة، وإخواننا أهل المغرب خاصة، فإنهم قوم عندهم إيمان وتدين وشجاعة، ولكن الجهل قد فتك بهم فتكًا ذريعًا، ومهد السبيل للمضلين الذين يطلبون المال والجاه والإمامة، والملك بالدين والعلم، ويخدعون ضعفاء العقول بما يزخرفون لهم من الأقوال والأشكال، فيستعبدونهم ويسلبون أموالهم وعقولهم وأديانهم، ويستعملون لذلك حيلاً ووسائل كثيرة يقعون بها في حبائلهم.

وقد تلقيت اقتراحك بالقبول، وجمعت في هذه الرسالة على صغر حجمها ما فيه تبصرة وذكرى لكل عبد منيب، وإرشاد لكل ضال، وشفاء لكل جاهل، ومن لم يجعل الله له نورًا، فما له من نور، ولا يخفى على ألمعيتك أن أهل المغرب كانوا على صراط مستقيم في عقائدهم وعباداتهم، إلى أن غزتهم العقائد الكلامية المبتدعة في القرن الخامس وما بعده فصدتهم عن سواء السبيل، ثم نشأ فيهم الغلو في الصالحين وفي قبورهم في زمان بني مرين، ففتح عليهم باب جديد من الضلال والشقاء، وعمت هاتان البدعتان علماءهم وعقلاءهم، وفتنوا بهما فتنة عظيمة، إلا من رحم ربك، وقليل ما هم، ولم يخل المغرب في تلك الأزمنة كلها من علماء محققين مخلصين لله ناصحين لعباد الله، ولكنهم لقلتهم خفي أمرهم على أكثر الناس. وكان لهم ظهور في الجملة إلى زمان السلطان الإمام سليمان العلوي - رحمه الله رحمة واسعة - وهو من المصلحين، ورسالته المدرجة في كتاب الاستقصاء التي وجهها إلى علماء الأمة وخطبائها وواعظيها وعامتها، وأمر أن تتلى على المنابر، لا تبقى أدنى ريب فيما ذكرنا، والذي يناسب رسالتنا هذه هو الكلام في فتنة

القبور، وقد انتشرت هذه الفتنة انتشارًا عظيمًا منذ عهد بني مرين في المدن والقرى، وحتى في البادية، وكثر اجتماع الجهال عندها واتخاذها أعيادًا يحجون إليها، وينذرون لها النذور، ويذبحون لها الذبائح، ويقربون لها القرابين، فصار لكل بلد - وإن صغر - طائفة من القباب والأضرحة، لا يحصى عددها، ولا ينادي وليدها، وشاعت عبادة المدفونين فيها بالطواف والتقبيل والتمسح، والركوع والتعلق بالأستار، والتمرغ والبكاء والتضرع والخوف والرجاء والتوكل، والمحبة البدعية الشركية، وقد بالغ السدنة والمنتسبون إلى من بنيت عليه تلك القباب، إما ببنوة صادقة أو كاذبة، أو بكونهم عبيدًا أو خدامًا لهم، أو بأنهم أول من بنى ذلك المقام، إلى غير ذلك، بالغ هؤلاء في زخرفتها بنصب التوابيت وسترها بستور الحرير، وأحيانًا يجعلون عليها شاخصًا عليه عمامة وبرنس، وهذا هو الصنم بعينه، فالتابوت والقبة وثن، والشاخص صنم، ويزينون أرضها وجدرانها وسقفها بالنقوش، وإيقاد الثريات الملونة الجميلة، وتعليق أنواع المصابيح والتحف، وفرش أرضها بالزرابي[(١)]، وإيقاد الأنوار، وكثرة البخور والطيب، مما زاد على زخرفة كنائس النصارى، وكل ذلك مما يملأ قلوب الجهال روعة وعظمة وخوفًا ويزيد السدنة على ذلك بأكاذيب يلفقونها على أنها كرامة لصاحب الضريح، فيتخذها الجهال قضايا مسلمة، وتصبح عندهم عقائد ثابتة يؤمنون بها أكثر من إيمانهم بالله ورسوله .

ومنذ كثرت هذه القباب وعبادها ومواسمها وأعيادها، كثر الفساد باختلاط الرجال والنساء في تلك الأعياد، وظهرت الفواحش ، فازداد القوم فتنة على فتنتهم، وضلالات على ضلالهم، وصار من بقي فيه بقية إخلاص وتقوى من العلماء لا يتجرءون على إعلان الإنكار، وإنما يهمسون به همسًا لبعض أصحابهم، أو يودعونه كتبهم. ومنذ ذلك العهد ضعف أمر الجهاد، وأخذ العدو يجتاح أرض المسلمين بلدًا بلدًا، وكلما ازدادوا عبادة للقبور، وغلوًا فيها، واستغاثة بأهلها توالت عليهم الهزائم، وخارت منهم العزائم، حتى صاروا عبيدًا أرقاء لأعدائهم، ولم تبق لهم دنيا ولا دين، فصاروا يمنون أنفسهم ﴿**يعدهم ويمنيهم وما يعدهم الشيطان إلا غرورًا**﴾ [النساء: ١٢٠]، وصارت شياطينهم تسليهم إذا ضربهم شباب الأوربيين بالنعال على القذال[(٢)] ، تقول لهم : لا بأس، كلوا هذه النعال ، واصبروا فالأولياء راضون عنكم، فإنكم مخلصون في خدمتهم تلهجون بأسمائهم في الليل والنهار، وفي القيام والقعود، وجزاؤكم الجنة في الدار الآخرة، وقد اتفق الأولياء على أن يهبوا أرض المسلمين وحكمها والتصرف فيها للأوربيين ، وما أراده الأولياء لا يرد، فاصبروا

(١) الزرابي: هي السجاجيد .
(٢) القذال: جماع مؤخر الرأس، وجمعه أقذلة وقذل .

حتى يأتي صاحب الوقت فهو الذي يرفع عنكم هذا المقت، وحينئذٍ تسيل مدافعهم بالماء وتخر طائراتهم من السماء، فقبح الله عقولاً يبلغ بها السخف ويطمع فيها الشيطان إلى هذا الحد .

أما قرأوا قوله تعالى: ﴿**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلاً**﴾ [الإسراء: ٧٢] ، وقوله تعالى: ﴿**إن تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم**﴾ [محمد: ٧] ، وقوله تعالى: ﴿**إن ينصركم الله فلا غالب لكم وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده**﴾ [آل عمران: ١٦٠] ، وقوله تعالى في السورة نفسها: ﴿**ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين**﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وقوله تعالى: ﴿**ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين**﴾ [المنافقين: ٨] ، وقوله تعالى: ﴿**إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد**﴾ [غافر: ٥١] .

فمن خذله الله في الدنيا وجعله في أسفل سافلين وأذل الأذلين، ومنعه النصر والعزة والغلبة والخلافة في شيء من الأرض، ولو في عقر داره، كيف يكون من أولياء الله الصالحين، بل كيف يكون من المؤمنين؟! وقد صرح القرآن بنفي الإيمان عنه: ﴿**إلا المستضعفين من الرجال والنساء والولدان لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلاً . فأولئك عسى الله أن يعفو عنهم**﴾ [النساء: ٩٨، ٩٩]، ألم تروا ما جرى عليكم في زمان حكومة «بيتان»(١)، فكان الألمانيون يحكمون في شرذمة الفرنسيين القاطنين في المغرب ويستعبدونهم ويستخدمونهم، وتلك الشرذمة من الفرنسيين تحكم فيكم وتذيقكم صنوف العذاب، فهل كنتم في ذلك الوقت من أولياء الله، ومن أهل الجنة والكرامة عند الله؟ وهل كان الأولياء والقطب الذي تدعون وجوده راضين بحالكم، وقد سخط الله عليكم، ومنعكم ثمرة الإيمان؛ لأنكم لستم بمؤمنين، ومن سخط الله عليه فلا يرضى عنه إلا الشيطان، أما أولياء الرحمن فإنهم يتبرءون منه، كما قال تعالى: ﴿**إذ تبرأ الذين اتبعوا من الذين اتبعوا ورأوا العذاب وتقطعت بهم الأسباب**﴾ [البقرة: ١٦٦] .

ومن الغريب أن عقيدة السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان في مسألة البناء على القبور بقي لها وجود ورواية يرويها الآخر عن الأول في بعض بلاد المغرب إلى زماننا هذا. فمن ذلك ما يرويه العامة عن العامة في قبر الشيخ عبد السلام ابن مشيش الإدريسي(٢) ، فإن الناس لا يزالون يرون عنه عامة عن عامة أنه لا يحب البناء

---

(١) كان يحكم فرنسا بعد هزيمتها الساحقة من الألمان أيام الحرب العالمية الأخيرة .

(٢) هذا صاحب الصلاة المشهورة باسمه، وقد نعق فيها بوحدة الوجود نعيقًا صريحًا .

على قبره، وتعظيم أهل المغرب كلهم له لا يختلف في ذلك اثنان، ملوكهم وعلماؤهم، ولم يتجرأ أحد على مخالفة هذه الرواية، ولم تبن عليه قبة ولا شيء، وهي حجة عليهم لو كانوا يعقلون، وكذلك ما يروى عن جدنا عبد القادر بن هلال الحسيني، المدفون عند سور قريته بالغرفة من (سجلماسة)، فمع ما تواتر في تلك البلاد من صلاحه وولايته وتعظيم الناس له في حياته وبعد موته، ولا يزال قبره إلى الآن من المزارات المشهورة، ولم تبن عليه قبة؛ لرواية العامة عن العامة عنه أنه لا يحب البناء على القبور، وكذلك الشيخ عبد العزيز المغراوي المدفون في مقبرة بالقرب منه لم تبن عليه قبة، لما استقر عند العامة أنه لا يحب البناء على القبور، وليس مقصودنا بذكر هذه الروايات الاستدلال بها على تحريم البناء على القبور، ولكننا سقناها للعبرة، وفيما يأتي من أحاديث النبي - ﷺ - غنية وكفاية لقوم يؤمنون .

واعلم أنني قصدت بجمع هذه الرسالة نصيحة لإخواني، ثم أبناء وطني، ولم أقصد بها التبجح والتصنيف، والتزمت ذكر عبارات الأئمة المحققين في شرح الأحاديث واستنباط الأحكام منها، وأكثرت النقل من كلام الإمام عبد الرحمن بن حسن الخرجي رحمه الله .

ثم من كلام ابن القيم وغيرهما، وقد أشرت إلى ذكر أسمائهم في الغالب، ولم أستعمل عبارتي إلا عند الحاجة إليها عندما يعرض لي معنى لم أجد فيه كلاماً لأحد الأئمة أو وجدت فيه كلاماً، ولكنني رأيته مطولاً فاختصرته، أو مغلقاً فأوضحته، وما أبرئ نفسي من الخطأ والزلل، والله يوفقنا جميعاً في القول والعمل .

ثم اعلم أننا لا نريد بهذا الكتاب إلقاء الفتنة بين الناس ولا الطعن في أحد من أهل القبلة، كيف ونحن الآن في أشد الحاجة إلى التعاون مع كل من ينتسب إلى الإسلام، بل مع كل من يسالم الإسلام، لكثرة أعدائه، وقلة أوليائه في هذا الزمان، ولكننا نعلم يقيناً أن من النصح للمسلمين السعي في تطهير عقائدهم وتوجيههم إلى اتباع القرآن والرسول والسابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، فإن ما وعد الله به المسلمين من النصر والسعادة لا يتحقق بكثرة العدد، بل بتحقق التوحيد والاتباع[1] ، كما قال تعالى : ﴿ **كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين** ﴾ [البقرة : ٢٤٩]، وقال تعالى : ﴿ **قل لا يستوي الخبيث والطيب ولو أعجبك كثرة الخبيث** ﴾ [المائدة : ١٠٠]، ونحن معترفون بأن الدعوة إلى الحق يجب أن تكون بالتي هي أحسن قولاً ونية، ولا تساء النية والقول إلا لمن ظهر عناده وإعراضه وصدوده عن الحق بعدما تبين له لغرض دنيوي حقير، وهذا أيضاً لا ينبغي

(١) هذا كلام جميل بالحق ، جميل بالوضوح، فهل يتدبر الذين ينابذون ما ندعو إليه .

أن يوصف بأكثر مما وصفه الله في كتابه والرسول في حديثه .

وإذا حسنت نية المخالف في غير التوحيد واتباع الرسول، فإننا نتعاون معه فيما اتفقنا من الحق، ونرجو أن يهديه الله لما خفي عليه منه، وفي الصحيح مرفوعًا: «**يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا**» ، والله يهدي إلى صراط مستقيم .

وسميت هذه الرسالة: «العلم المأثور ، والعلم المنصور، واللواء المنشور في الرد على أهل الغرور، المستنجدين بالمقبور» ، والله أسأل أن ينفع بها مؤلفها وسائر المسلمين، والحمد لله رب العالمين .

* * *

أصل عبادة الأصنام

قال الله - تعالى - حكاية عن قوم نوح: ﴿**وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن ودًا ولا سواعًا ولا يغوث ويعوق ونسرًا**﴾ [نوح: ٢٣].

أخرج البخاري في «صحيحه» عن ابن عباس في تفسير هذه الآية قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب بعد. أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسر فكانت لحمير لآل ذي كلاع، وهي[1] أسماء رجال صالحين من قوم نوح - عليه السلام - فلما هلكوا أوحى الشيطان إلى قومهم أن انصبوا إلى مجالسهم التي كانوا يجلسون فيها أنصابًا وسموها بأسمائهم، ففعلوا فلم تعبد، حتى إذا هلك أولئك ونُسخ العلم عُبدت. وكذا روي عن عكرمة والضحاك وقتادة وابن إسحاق نحو من هذا.

وقال علي بن أبي طلحة عن ابن عباس: وكانت هذه أصنام تعبد في زمان نوح.

وروى ابن جرير عن محمد بن قيس، أن يعوق ونسرا: كانوا قومًا صالحين، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فقال أصحابهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم لصورهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم.

وروى جماعة من الأئمة أنها أسماء قوم صالحين من قوم نوح، كان الناس يعظمونها ويقتدون بها، فلما ماتوا حزنوا عليهم وعكفوا على قبورهم، ثم زين لهم الشيطان أن يصنعوا لهم تماثيل تذكرهم بها فصنعوها، ولم يعبدوهم حتى انقرض ذلك الجيل، وذهب أهل العلم، وكثر الجهل وزادوا في الغلو، حتى عبدوهم من دون الله.

قال ابن كثير في تفسيره بعد ما روى آثاراً في معنى ما تقدم، وقوله تعالى: ﴿**وقد أضلوا**﴾ يعني الأصنام التي اتخذوها أضلوا بها خلقًا كثيرًا، فإنه قد استمرت عبادتها في القرون إلى زماننا هذا في العرب والعجم وسائر صنوف بني آدم، وقد اتفق المحققون من أهل العلم على أن أصل عبادة الأصنام؛ الغلو في الصالحين وتعظيم قبورهم واتخاذ المساجد عليها، وسيرد عليك من كلامهم ما يثلج صدرك، ويكشف عنك كل لبس، ويجلي لك

(١) أي: ود وسواع ويغوث ويعوق ونسر.

الحق، إن كنت من أهله .

قال القرطبي: «وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم، ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، فوسوس إليهم الشيطان، أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها» .

وقال ابن القيم رحمه الله: «وما زال الشيطان يوحي إلى عبادة القبور ويلقي إليهم أن البناء والعكوف عليها من محبة أهل القبور من الأنبياء والصالحين، وأن الدعاء عندها مُستجاب، ثم ينقلهم من هذه المرتبة إلى الدعاء بها والإقسام على الله بها، فإن شأن الله أعظم من أن يقسم عليه، أو يسأل بأحد من خلقه» .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى دعائه[١] وعبادته، وسؤاله الشفاعة من دون الله، واتخاذ قبره وثنًا عليه القناديل والستور، ويطاف به ويستلم ويقبل، ويحج إليه، ويذبح عنده، فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم إلى دعاء الناس إلى عبادته واتخاذه عيدًا ومنسكًا، ورأوا أن ذلك أنفع لهم في دنياهم وأخراهم، وكل هذا مما قد علم بالاضطرار في دين الإسلام أنه مضاد لما بعث الله به رسوله - ﷺ - من تجديد التوحيد، وأن لا يُعبد إلا الله .

فإذا تقرر ذلك عندهم نقلهم منه إلى أن من نهى عن ذلك فقد تنقص أهل هذه الرتب العالية، وحطهم عن منزلتهم، وزعم أنه لا حرمة لهم ولا قدر، فغضب المشركون واشمأزت قلوبهم، قال تعالى: ﴿**وإذا ذكر الله وحده اشمأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخرة وإذا ذكر الذين من دونه إذا هم يستبشرون**﴾ [الزمر: ٤٥]، وسرى ذلك في نفوس كثير من الجهال والطغام وكثير ممن ينتسب إلى العلم والدين، حتى عادوا أهل التوحيد، ورموا بالعظائم ، ونفروا الناس عنهم، ووالوا أهل الشرك وعظموهم، وزعموا أنهم أولياء الله وأنصار دينه ورسوله، ويأبى الله ذلك: ﴿**وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون**﴾ [الأنفال: ٣٤] . انتهى . .

وروى البخاري ومسلم عن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد الله، فقولوا: عبد الله ورسوله**» .

وأخرج أحمد والترمذي وابن ماجة عن ابن عباس، قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**إياكم والغلو ، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» . ومعنى الإطراء الغلو، الزيادة في تعظيم المخلوق إلى أن يوصف بصفات الخالق المنافية للعبودية الشاملة لجميع الخلق، قال تعالى:

(١) لعله أفرد الضمير في هذا وما بعده بقصد إعادته على أحد، وإلا فالوجه أن يقول: دعائها، وكذا ما بعده . .

﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾ [مريم: ٩٣] ، وأخرج مسلم عن ابن مسعود أن رسول الله - ﷺ- قال: «**هلك المتنطعون**» . قالها ثلاثًا. قال الخطابي: المتنطع المتعمق في الشيء المتكلف البحث عنه على مذاهب أهل الكلام الداخلين فيما لا يعنيهم الخائضين فيما لا تبلغه عقولهم. ومن التنطع الامتناع من المباح مطلقًا، كالذي يمتنع من أكل اللحم والخبز، ومن لبس الكتان والقطن، ولا يلبس إلا الصوف، ويمتنع من نكاح النساء، ويظن أن هذا من الزهد المستحب .

قال الشيخ أحمد بن عبد الحليم: فهذا جاهل ضال. وقد استعمل «المتنطع» في كل متعمق قولاً وفعلاً . وقوله: قالها ثلاثًا [١] مبالغة في التعليم والإرشاد .

فجزاه الله عنا أفضل ما جزى نبيًّا عن قومه ورسولاً عن أمته .

● ● ●

(١) أي في حديث: «هلك المتنطعون» .

تحريم العبادة عند قبور الصالحين

اعلم – وفقك الله لتوحيده – أنه وردت أحاديث وآثار عن النبي - ﷺ – وأصحابه لا تبقى شكًا في تحريم اتخاذ قبور الصالحين مواضع للعبادة، وإن كانت العبادة خالصة لله تعالى؛ لأن تحري العبادة عند قبور الصالحين يفضي إلى الغلو فيهم، ومجاوزة الحد في تعظيمهم، وذلك يفضي إلى عبادتهم واتخاذ قبورهم أوثانًا تعبد من دون الله، ودونك البيان:

١– روى البخاري ومسلم عن عائشة – رضي الله عنها – أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة، وما فيها من الصور فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور أولئك شرار الخلق عند الله**» . وفي رواية : أن أم حبيبة وأم سلمة[١] ذكرتا لرسول الله ﷺ ... إلخ .

وفي هذه الرواية أنهما ذكرتا لرسول الله – ﷺ – من حسن تلك الكنيسة وتصاوير فيها، فقال: « أولئكِ » بكسر الكاف خطاب للمرأة، وقوله عليه الصلاة والسلام: « أولئك شرار الخلق عند الله » ، يقتضي تحريم اتخاذ قبور الصالحين وما حولها أماكن للعبادة، ولقد لعن الرسول ﷺ من فعل ذلك ، وذكر أن غضب الله اشتد عليهم كما سيأتي .

فأي خير في العبادة التي توجب لصاحبها هذه الصفات: أن يكون من شرار الخلق عند الله، أو من المتبعين لهم، وأن يكون ممن اشتد عليهم غضب الله، وأن يكون ممن لعنهم رسول الله ﷺ أو ممن يقتدي بهم بعد تحذير الرسول – ﷺ – من الاقتداء بهم .

واعلم أن أصحاب تلك الكنيسة جمعوا بين فتنتين؛ فتنة العبادة عند قبور الصالحين، وفتنة نصب تماثيلهم وصورهم، وكلتا هاتين الفتنتين من موجبات غضب الله .

قال القرطبي: وإنما صور أوائلهم الصور ليتأسوا بها، ويتذكروا أفعالهم الصالحة، فيجتهدوا كاجتهادهم ويعبدوا الله عند قبورهم، ثم خلفهم قوم جهلوا مرادهم، ووسوس لهم الشيطان أن أسلافهم كانوا يعبدون هذه الصور ويعظمونها، فحذر النبي – ﷺ – عن

---

(١) أم حبيبة وأم سلمة من أمهات المؤمنين، وكلتاهما ممن هاجر إلى الحبشة قبل التزوج برسول الله ﷺ

مثل ذلك سداً للذريعة المؤدية إلى ذلك .

قال العلماء: وهذه العلة هي التي من أجلها نهى رسول الله - ﷺ- عن اتخاذ المساجد على القبور، هي التي أوقعت كثيراً من الأمم، إما في الشرك الأكبر، أو فيما دونه من الشرك، فإن النفوس قد أشركت بتماثيل الصالحين، وتماثيل يزعمون أنها طلاسم الكواكب ونحو ذلك . فإن الشرك بقبر الرجل الذي يعتقد صلاحه أقرب إلى النفوس من الشرك بخشبة أو حجر، ولهذا تجد أهل الشرك يتضرعون عندها، ويخشعون ، ويخضعون ويعبدون بقلوبهم عبادة لا يفعلونها في بيوت الله وقت السحر، ومنهم من يسجد لها، وأكثرهم يرجون من بركة الصلاة عندها والدعاء ما لا يرجون في المساجد، فلأجل هذه المفسدة حسم النبي - ﷺ - مادتها حتى نهى عن الصلاة في المقبرة مطلقًا ، وإن لم يقصد المصلي بركة البقعة بصلاته، كما يقصد بصلاته بركة المساجد، كما نهى عن الصلاة وقت طلوع الشمس وغروبها، لأنها أوقات يقصد فيها المشركون الصلاة للشمس، فنهى أمته عن الصلاة حينئذٍ، وإن لم يقصدوا ما قصده المشركون سدًّا للذريعة .

وأما إذا قصد الرجل الصلاة عند القبور متبركًا بالصلاة في تلك البقعة ، فهذا عين المحادة لله ورسوله والمخالفة لدينه ، وابتداع دين لم يأذن به الله، فإن المسلمين قد أجمعوا على ما علموه باضطرار من دين الرسول - ﷺ - أن الصلاة عند القبور منهي عنها، وأنه لعن من اتخذها مساجد، فمن أعظم محدثات وأسباب الشرك الصلاة عندها واتخاذها مساجد وبناء المساجد عليها، وقد تواترت النصوص عن النبي - ﷺ - بالنهي عن ذلك والتغليظ فيه، وقد صرح عامة الطوائف بالنهي عن بناء المساجد عليها متابعة منهم للسنة الصحيحة الصريحة، وصريح أصحاب أحمد وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريم ذلك، وطائفة أطلقت الكراهة، والذي ينبغي أن تحمل على كراهة التحريم إحسانًا للظن بالعلماء، وأن لا نظن بهم أن يجوزوا فعل ما تواتر عن رسول الله - ﷺ - لعن فاعله والنهي عنه .

٢- أخرج البخاري ومسلم أيضًا عن عائشة - رضي الله عنها - لما نُزِل برسول الله ﷺ طفق يطرح خميصة له على وجهه، فإذا اغتم بها كشفها، فقال وهو كذلك: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» . يحذر ما صنعوا، ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً .

• معاني الحديث :

(**لما نزل**) بضم النون وكسر الزاي: أي: نزل به ملك الموت. و(**الخميصة**): كساء له

أعلام[١]، كان النبي - ﷺ - متغطيًا به، **(فإذا اغتم بها)** أي: أصابه غم وضيق نفس ولم توافقه، كشفها عن وجهه فقال وهو في تلك الحال من المرض الشديد والاحتضار ونزول الموت: «**لعن الله اليهود النصارى...**» إلخ. ولماذا لعن رسول الله - ﷺ - اليهود والنصارى؟ فهل كان قصده مجرد السب والشتم؟ كلا وحاشا، فإنه في جميع أحواله لا يتكلم إلا لهداية الأمة ولتبليغ ما أمر الله بتبليغه، كما قال تعالى في سورة النجم: ﴿**وما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحي يوحى**﴾ [النجم: ٣، ٤]، كيف وقد صرح الحديث نفسه ببيان السبب والعلة لهذا اللعن في تلك الحال التي لا يشغل فيها فكره ولسانه إلا بأهم الأمور وأحسن النصائح والوصايا، فإنما قال ذلك تحذيرًا لأمته ونصحًا لهم وخوفًا عليهم أن يفعلوا ذلك الأمر، وهو اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد بتحري العبادة عندها، لعلمه أن ذلك هو سبب الضلال، وهو الموجب لغضب الله ولعنته للأمم التي تفعله، وإخراجها من رحمته ونعمته.

فكيف يتساهل عاقل لنفسه ولأمته، بل ناصح لله ولرسوله ولكتابه في هذا الأمر العظيم، ويلتمس لنفسه ولأمثاله من المفتونين الفاتنين المعاذير الواهية التي هي أوهى من بيت العنكبوت!!.

وقوله: **(غير أنه خشي)** روي بفتح الخاء وكسر الشين، وروي أيضًا بضم الخاء، فعلى الرواية الأولى يكون معناه: إنما حذر رسول الله - ﷺ - أمته عند موته من سلوك سنة أهل الكتاب في اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد؛ لأنه خاف على أمته عند موته أن تفعل بعده مثل ذلك، وعلى رواية الضم خاف أصحابه من بعده، أن يتخذ قبره مسجدًا ومكانًا للدعاء والعبادة لما فهموه من تحذيره - عليه الصلاة والسلام - ، فلم يبرزوا قبره، أي لم يدفنوه في البقيع مثلاً، أو في مكان آخر خارج البلد خوفًا على الجهال الفتنة الموصلة إلى الشرك الموصل إلى الشقاء الأبدي في الدنيا والآخرة.

وقوله: **(يحذر ما صنعوا)** يعني: يحذر أمته من هذا الصنيع الذي كانت تفعله اليهود والنصارى في قبور أنبيائهم، فإنه من الغلو في الأنبياء، ومن أعظم الوسائل إلى الشرك، ومن غربة الإسلام أن هذا الذي لعن رسول الله - ﷺ - فاعليه تحذيرًا لأمته، أن يفعلوه معه - ﷺ - ، ومع الصالحين من أمته، قد فعله الخلق الكثير من متأخري هذه الأمة واعتقدوه قربة من القربات، وهو من أعظم السيئات والمنكرات، وما شعروا أن ذلك محادة لله ولرسوله.

---

(١) أي: كساء من خز أو صوف فيه خطوط، وقيل: لا تسمى خميصة إلا أن تكون سوداء معلمة.

قال القرطبي في هذا الحديث: وكذلك لقطع الذريعة المؤدية إلى عبادة من فيها، كما كان السبب في عبادة الأصنام، قال: ولهذا بالغ المسلمون في سد الذريعة في قبر النبي - ﷺ - فأعلوا حيطان تربته، وسدوا المداخل إليها وجعلوها محدقة بقبره - ﷺ - ثم خافوا أن يتخذ قبره قبلة، إن كان مستقبل المصلين، فتصور الصلاة إليه بصورة العبادة، فبنوا جدارين من ركني القبر الشماليين وحرفوهما حتى التقيا على زاوية مثلثة من ناحية الشمال حتى لا يتمكن أحد من استقبال القبلة .

أقول: وإذا تأملنا هذا الحديث وتدبرناه، وجدنا فيه فوائد كثيرة، وجواهر نفيسة، وأنوار ساطعة، توضح أصل العقيدة الإسلامية، والدعوة المحمدية، منها: أن من بنى لله مسجداً يعبد الله فيه على قبر رجل صالح بنية حسنة يكون عاصياً للرسول، وسالكاً سبيل المغضوب عليهم؛ لأن ذلك ذريعة مفضية إلى الغلو المفضي إلى الشرك، ومنها أن اتخاذ المساجد على القبور من سنن اليهود والنصاري في أنبيائهم وصالحيهم، وقد أُمرنا بمخالفتهم في مثل ذلك، ومنها لعن النبي - ﷺ - لفاعل ذلك تخويفاً لأمته وإنذاراً لهم، ليعلموا أنه أمر عظيم فينتهوا عنه .

٣- أخرج مسلم عن جندب بن عبد الله قال: سمعت رسول الله - ﷺ - قبل أن يموت بخمس وهو يقول: «**إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل، فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً، ولو كنت متخذاً من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً، ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد إني أنهاكم عن ذلك**» .

• توضيح معنى الحديث:

(أبرأ إلى الله): أمتنع عما لا يجوز لي أن أفعله. (الخليل): هو المحبوب غاية الحب، من الخلة بضم الخاء، وهي أعلى من المحبة، فالخليل هو الذي تخللت مودته في القلب ملأته وشغلته عن غيره . قال الشاعر:

قد تخللت مسالك الروح مني ... ولذا سمي الخليل خليلا

قال القرطبي: «وإنما كان ذلك لأن قلبه - ﷺ - قد امتلأ من محبة الله وتعظيمه ومعرفته فلا يسع خلة غيره» .

قال ابن القيم رحمه الله: «وأما ما يظنه بعض الغالطين أن المحبة أكمل من الخلة، وأن إبراهيم خليل الله، ومحمداً حبيب الله فمن جهلهم، فإن المحبة عامة، والخلة خاصة،

وهي نهاية المحبة، وقد أخبر النبي - ﷺ - أن الله قد اتخذه خليلاً، ونفى أن يكون له خليل غير ربه، مع إخباره بحبه لعائشة وأبيها ولعمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل وغيرهم - رضي الله عنهم - . وأيضًا فإن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين، ويحب الصابرين، وخلته خاصة بالخليلين» .

وقوله: «ولو كنت متخذًا من أمتي خليلاً لاتخذت أبا بكر خليلاً» فيه فضل الصديق على غيره من الصحابة، وفيه الرد على من جحد فضله، ففي هذا الحديث النهي المؤكد بمؤكدات عديدة عن اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، أي أماكن للعبادة، في آخر حياته عليه الصلاة والسلام .

وفي حديث عائشة: لعن من فعل ذلك، وهو عليه الصلاة والسلام في سياق الموت، فإن لم يكن هذا كافيًا لتحريم ذلك العمل وكونه من الكبائر فلا يوجد نهي يثبت به حكم، ومن تجاسر على تأويل هذه النصوص وتحريفها فقد أبعد النجعة، وبلغ في تحريف الكلام عن مواضعه مبلغًا عظيمًا لا يبقى معه انتفاع بعقل ولا علم ولا نصوص، وأن دلالتها كالشمس في رابعة النهار، وقد نهى عن طاعة هؤلاء فقال في سورة الكهف: ﴿ **ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطًا** ﴾ [الكهف: ٢٨]، وقال تعالى في سورة ص: ﴿ **ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله إن الذين يضلون عن سبيل الله لهم عذاب شديد بما نسوا يوم الحساب** ﴾ [ص: ٢٦]، وما أحسن قول الشاعر:

ونهج سبيلي واضح لمن اهتدى ... ولكنما الأهواء عمت فأعمت

وقال غيره:

يأبى الفتى إلا اتباع الهوى ... ومنهج الحق له واضح

فمن كان من أهل الصدق في الإيمان والإخلاص لله تعالى في القصد والعمل يعرف الحق بنص واحد من هذه النصوص ومن اتبع هواه فأعماه، (والهوى يعمي ويصم)، لم تنفعه ذكرى، وإن كانت صادرة من خاتم النبيين إليه مشافهة .

قال بعض المحققين إتمامًا للكلام على حديث الباب؛ فكيف يسوغ مع هذا التغليظ من سيد المرسلين أن تعظم القبور ويبنى عليها، ويصلى عندها وإليها؟ .

هذا أعظم مشاقة ومحادة لله ولرسوله - ﷺ - لو كانوا يعقلون، فتقرر واستبان أن الصلاة عند القبور، أو عند القبر الواحد، أيّ قبر كان محرمة ومعصية، بل محادة لله، سواء بني عليه مسجداً أو لم يبن، والمسجد هو موضع السجود والذكر والعبادة والدعاء مطلقًا، سواء أكان خطًّا أو جدارًا أو لا يحده شيء .

٤- أخرج أحمد وأهل السنن وصححه ابن حبان والحاكم عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**» .

قال ابن القيم - رحمه الله - : (وبالجملة ، فمن له معرفة بالشرك وأسبابه وذرائعه، وفهم عن رسول الله - ﷺ - مقاصده جزم جزمًا لا يحتمل النقيض أن هذه المبالغة واللعن والنهي بصيغته ، صيغة لا تفعلوا ، وصيغة أني أنهاكم عن ذلك، ليس لأجل النجاسة، بل هو لأجل نجاسة الشرك اللاحقة لمن عصاه، وارتكب ما عنه نهاه، واتبع هواه، ولم يخش ربه ومولاه، وقل نصيبه أو عدم من (لا إله إلا الله)، فإن هذا وأمثاله من النبي صيانة لحمى التوحيد أن يلحقه الشرك ويغشاه، وتجريد له، وغضب لربه أن يعدل به سواه، فأبى المبتدعون إلا معصية لأمره، وارتكابًا لنهيه، وغرهم الشيطان بأن هذا تعظيم لقبور المشايخ والصالحين - يعني: وسوس إليهم الشيطان قائلاً- : وكلما كنتم لها أشد تعظيمًا وأشد فيهم غلواً كنتم بقربهم أسعد، ومن أعدائهم أبعد، ولعمر الله، من هذا الباب دخل الشيطان على عباد يغوث ويعوق ونسرا، ودخل على عباد الأصنام منذ كانوا إلى يوم القيامة. فجمع المشركون بين الغلو فيهم والطعن في طريقتهم، فهدى الله أهل التوحيد لسلوك طريقتهم، وإنزالهم منازلهم التي أنزلهم الله إياها، من العبودية وسلب خصائص الإلهية) . انتهى كلام ابن القيم .

وممن علل بخوف الفتنة بالشرك الإمام الشافعي، وأبو بكر الأثرم، وأبو محمد المقدسي، وشيخ الإسلام وغيرهم، وهو الحق الذي لا ريب فيه، فتبين بما ذكرنا أن اتخاذ المساجد على القبور معصية لله ولرسوله، وليست من العبادات في شيء، سواء أبني مسجد حول القبر بقصد التبرك به، أو بدون قصد، أو لم يبن مسجد، وإنما اتخذ القبر وما حوله مكانًا للدعاء والصلاة، فأنه يصير بذلك مسجداً كما قال النبي - ﷺ-: «**جعلت لي الأرض مسجدًا وطهورًا**» . أي: موضعًا للسجود والصلاة، ومعنى ذلك أن أهل الكتاب لم تبح لهم الصلاة إلا في بيعهم وكنائسهم، وقد أباح الله لهذه الأمة الصلاة حيث كانوا، تخفيفًا عليهم وتيسيرًا، ثم خص من جميع المواضع الحمام والمقبرة والمكان النجس.

٥- أخرج أحمد بسند جيد وابن حبان في صحيحه عن ابن مسعود قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**إن من شرار الناس من تدركهم الساعة وهم أحياء، والذين يتخذون القبور مساجد**» .

قوله: «**إن من شرار الناس**» بكسر الشين جمع شرير. وقوله: «**من تدركهم الساعة وهم أحياء**» مقدماتها، كخروج الدابة وطلوع الشمس من مغربها، وبعد ذلك ينفخ في

الصور نفخة الفزع. قوله: «**والذين يتخذون القبور مساجد**» معطوف على خبر إن في محل نصب على نية تكرار العامل، أي: وإن من شرار الناس الذين يتخذون القبور مساجد، أي بالصلاة عندها وإليها وبناء المساجد عليها، وتقدم في الأحاديث الصحيحة أن هذا من عمل اليهود والنصارى، وأن النبي - ﷺ - لعنهم على ذلك تحذيرًا للأمة أن يفعلوا مع نبيهم وصالحيهم مثل اليهود والنصارى.

فما رفع أكثرهم بذلك رأسًا، بل اعتقدوا أن هذا الأمر قربة إلى الله، وهو مما يبعدهم عن الله، ويطردهم عن رحمته ومغفرته.

والعجب أن أكثر من يدعي العلم ممن هو من هذه الأمة لا ينكرون ذلك، بل ربما استحسنوه ورغبوا في فعله، فلقد اشتدت غربة الإسلام، وعاد المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة، والبدعة سنة، نشأ على هذا الصغير، وهرم عليه الكبير!!.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله -: أما بناء المساجد على القبور، فقد صرح عامة الطوائف بالنهي عنه متابعة للأحاديث الصحيحة، وصرح أصحابنا وغيرهم من أصحاب مالك والشافعي بتحريمه، وقال: «ولا ريب في القطع بتحريمه، ثم ذكر الأحاديث في ذلك، إلى أن قال: وهذه المساجد المبنية على قبور الأنبياء والصالحين، أو الملوك، وغيرهم تتعين إزالتها بهدم أو غيره، هذا مما لا أعلم فيه خلافًا بين العلماء المعروفين».

وقال ابن القيم - رحمه الله -: «يجب هدم القباب التي بنيت على القبور؛ لأنها أسست على معصية الرسول - ﷺ -، وقد أفتى جماعة من الشافعية بهدم ما في القرافة من الأبنية، منهم ابن الجميزي والظهير والترميني وغيرهما».

قال القاضي ابن كج: «لا يجوز أن تجصص القبور، ولا أن يبنى عليها قباب ولا غير قباب، والوصية بها باطلة».

وقال الأذرعي: «وأما بطلان الوصية ببناء القباب وغيرها من الأبنية، وإنفاق الأموال الكثيرة، فلا ريب في تحريمه».

وقال القرطبي في حديث جابر - رضي الله عنه -: «نهى أن يجصص على القبور أو يبنى عليه» وبظاهر هذا الحديث قال مالك. وكره البناء والجص على القبور، وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

وقد أجازه غيره، وهذا الحديث حجة عليه.

قال ابن رشد: كره مالك البناء على القبور وجعل البلاطة المكتوبة، وهو من بدع أهل الطول، أحدثوه إرادة الفخر والمباهاة والسمعة وهو مما لا اختلاف فيه.

وقال الزيلعي في شرح الكنز: ويكره أن يبنى على القبر . وذكر قاضي خان: أنه لا يجصص القبر ولا يبنى عليه، لما روي عن النبي - ﷺ - أنه نهى عن التجصيص والبناء فوق القبر، والمراد بالكراهة - عند الحنفية رحمهم الله - كراهة التحريم، وقد ذكر ذلك ابن بجيم في شرح الكنز .

وقال الشافعي - رحمه الله - : «أكره أن يعظم مخلوق بجعل قبره مسجداً مخافة الفتنة عليه وعلى من بعده» .

وكلام الشافعي - رحمه الله - يبين أن مراد الكراهة ، كراهة التحريم، وجزم النووي - رحمه الله - في شرح المهذب بتحريم البناء مطلقًا، وذكر في شرح مسلم نحوه أيضًا .

وقال أبو محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة إمام الحنابلة، صاحب المصنفات الكبار، كالمغني والكافي وغيرهما، رحمه الله : «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور؛ لأن النبي - ﷺ - قال: «**لعن الله اليهود والنصارى**» الحديث . وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام ، تعظيم الأموات واتخاذ صورهم، والتمسح بها والصلاة عندها» . اهـ.

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وأما المقبرة فلا فرق فيها بين الجديدة والعتيقة، انقلبت تربتها أو لم تنقلب، ولا فرق بين أن يكون بينه وبين القبر حائل أو لا، لعموم الاسم وعموم العلة، ولأن النبي - صلى الله عليه وسلم - لعن الذين اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ومعلوم أن قبور الأنبياء لا تنجس .

وبالجملة فمن علل النهي عن الصلاة في المقبرة بنجاسة التربة خاصة، فهو بعيد عن مقصود النبي - ﷺ - ثم لا يخلو أن يكون القبر قد بنى عليه مسجد، فلا يصلى في هذا المسجد، سواء صلى خلف القبر أو أمامه بغير خلاف في المذاهب؛ لأن النبي - ﷺ - قال: «**إن من كان قبلكم كانوا يتخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتخذوا القبور مساجد، فإني أنهاكم عن ذلك**» . وخص قبور الأنبياء؛ لأن عكوف الناس على قبورهم أعظم، واتخاذها مساجد أشد، وكذلك إن لم يكن بني عليه مسجده فهذا قد ارتكب حقيقة المفسدة التي كان النهي عن الصلاة على القبور من أجلها، فإن كل مكان صلى فيه يسمى مسجداً، كما قال - ﷺ -: «**جعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً**» . وإن كان موضع قبر أو قبرين .

قال بعض أصحابنا: لا يمنع الصلاة فيها؛ لأنه لا يتناولها اسم المقبرة، وليس في كلام أحمد ولا بعض أصحابه الفرق، بل عموم كلامهم يقتضي منع الصلاة عند كل قبر .

وقد تقدم عن علي - رضي الله عنه - أنه قال: لا أصلي في حمام ولا عند قبر. فعلى هذا ينبغي أن يكون النهي متناولاً تحريم القبر وفنائه، ولا تجوز الصلاة في مسجد بني في مقبرة، سواء كان له حيطان تحجز بينه وبين القبر، أو كان مكشوفًا.

قال في رواية الأثرم: إذا كان المسجد بين القبور لا يصلى فيه الفريضة، وإن كان بينها وبين المسجد حاجز، فرخص أن يصلى فيه على الجنائز، ولا يصلى فيه على غير الجنائز، وذكر حديث أبي مرثد عن النبي - صلى الله عليه وسلم - : **«لا تصلوا إلى القبور»**. وقال: إسناده جيد. انتهى.

ولو تتبعنا كلام العلماء في ذلك لاحتمل عدة أوراق، فتبين بهذا أن العلماء -رحمهم الله- بينوا أن علة النهي مما يؤدي إلى ذلك، من الغلو فيها وعبادتها من دون الله كما هو الواقع، والله المستعان.

وقد حدث بعد الأئمة الذين يعتد بقولهم أناس كثر في أبواب العلم بالله اضطرابهم، وغلظ عن معرفة ما بعث الله به رسوله من الهدى والعلم حجابهم، فقيدوا نصوص الكتاب والسنة بقيود أوهنت الانقياد وغيروا بها ما قصده الرسول - ﷺ- بالنهي عن الصلاة فيها، وعللوه بتنجسها بصديد الموتى، وهذا كله باطل من وجوه:

منها: أنه من القول على الله بلا علم، وهو حرام بنص الكتاب.

ومنها: أن ما قالوه لا يقتضي لعن فاعله والتغليظ عليه، وما المانع له أن يقول: من صلى في بقعة نجسة فعليه لعنة الله؟! ويلزم على ما قاله هؤلاء، أن النبي - ﷺ - لم يبين العلة، وأحال الأمة في بيانها على من يجيء بعده - ﷺ-، وبعد القرون المفضلة والأئمة، وهذا باطل قطعًا وعقلاً وشرعًا، لما يلزم عليه من أن الرسول - ﷺ - عجز عن البيان، أو قصر في البلاغ، وهذا من أبطل الباطل، فإن النبي - ﷺ - بلغ البلاغ المبين، وقدرته في البيان فوق قدرة كل أحد، فإذا بطل اللازم بطل الملزوم.

ويقال أيضًا: هذا اللعن والتغليظ الشديد، إنما هو فيمن اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وجاء في بعض النصوص ما يعم الأنبياء وغيرهم، فلو كانت هذه هي العلة لكانت منتفية في قبور الأنبياء، لكون أجسادهم طرية لا يكون لها صديد يمنع من الصلاة عند قبورهم، فإذا كان النهي عن اتخاذ المساجد عند القبور يتناول قبور الأنبياء بالنص، علم أن العلة ما ذكره هؤلاء العلماء الذين قد نقلت أقوالهم، والحمد لله على ظهور الحجة، وبيان المحجة.

الغلو في قبور الصالحين يصيرها أوثانًا

تقدم أن اتخاذ المساجد عند قبور الصالحين من أعظم الذرائع إلى الغلو فيهم، وهو ذريعة توصل مباشرة بالشرك بالله، وتأمل هذا الحديث:

١- روى مالك في الموطأ عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار أن رسول الله -ﷺ- قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». هذا الحديث رواه مالك مرسلاً، ورواه البزار عن زيد عن عطاء عن أبي سعيد الخدري مرفوعًا، ورواه ابن أبي شيبة في مصنفه عن ابن عجلان عن زيد بن أسلم، ولم يذكر عطاء.

وله شاهد عند الإمام أحمد بسنده عن سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال: «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». في هذا الحديث فوائد يجب تأملها:

الأولى: سؤال النبي - ﷺ - ربه أن يصون قبره من أن تصل إليه أيدي المبتدعين الغلاة فتصيره وثنًا يعبد من دون الله.

الثانية: أن الله قد استجاب دعاءه فصان قبره من الشرك والابتداع، بأن وفق الصحابة والتابعين فبنوا عليه ثلاثة جدران، ليس لها منفذ ولا باب ولا كوة ولا غيرها، فلا يصل إليه بصر ولا يد.

الثالثة: يفهم من هذا الحديث، أن قبر النبي أو الصالح، إذا وصل إليه المشركون وغلوا فيه بالطواف والتمسح والتقبيل والابتهال والدعاء عنده وذبح الذبائح، ونذر النذور، صار ذلك القبر وثنًا بلا ريب، ومن هذا تعلم أن كثيراً من قبور الصالحين قد صارت أوثانًا تعبد من دون الله حقيقة، وهذا مشاهد بالعيان في كل مكان.

الرابعة: قوله: «**لعن الله قومًا اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». عقب ذلك الدعاء دلَّ دلالة واضحة على أن تحري الدعاء والعبادة عند قبور الصالحين هو الطريق الموصل إلى اتخاذها أوثانًا بلا ريب، ولذلك نهى عنه النبي - صلى الله عليه وسلم - ولعن فاعله وكرر ذلك في مرضه الذي توفي فيه، ولم يغفل عنه حتى الموت، فهل بعد هذا بيان ؟ فبأي حديث بعده يؤمنون؟ .

الخامسة: قوله - ﷺ - : «**اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» . وفي رواية أبي سعيد: «**لعن الله قومًا...**» إلخ. في رواية أبي هريرة أعظم برهان على تحريم اتخاذ المساجد عند قبور الصالحين، بل وتحريم العبادة والدعاء عندها، وإن لم يتخذ مسجد مبني؛ لأن كل عمل يوجب غضب الله ويوجب لصاحبه اللعن فهو محرم .

فالعجب ممن يدعي الإيمان كيف يتعامى عن هذه البراهين؟ ويتناقض في أقواله وأفعاله، فيرتكب العمل الملعون صاحبه، المشتد غضب الله عليه؟ ويريد من هذا العمل أن يكون وسيلة إلى رضوان الله ومغفرته، فيكون كحالب تيس، ومبتغ في الماء جذوة نار، فنسأل الله العافية من اتباع الهوى وعمى البصائر، وما أحسن ما قاله الإمام ابن القيم - رحمه الله - في النونية مشيراً إلى هذا الحديث :

ولقد نهانا أن نصير قبره وثنًا حذار الشرك بالديان
ودعا بأن لا يجعل القبر الذي قد ضمّه وثنًا من الأوثان
فأجاب رب العالمين دعاءه وأحاطه بثلاثة الجدران
حتى غدت أرجاؤه بدعائه في عزة وحماية وصيان

واليوم قد ألف الناس اتخاذ المساجد عند قبور الصالحين، وزين لهم الشيطان ذلك حتى صار أمراً معتاداً معروفًا غير منكر، بل ذلك في كثير من المدن والقرى، يكاد يكون شرطًا في بناء المسجد، فما بالك بمساجد أسست على معصية الرسول، كيف توصل أهلها إلى رضوان؟ وكيف توجب لهم مغفرة الله؟ وكيف يستجاب دعاؤهم؟ وكيف ينصرون؟ ولقد أحسن الشيخ ابن حجر المكي الشافعي إذ قال في كتاب «الفتاوى الحديثية»: إن هذه المساجد المبنية على القبور هي أحق بالهدم من مساجد الضرار الذي ذكره الله في القرآن، يعني في سورة التوبة الآية (١٠٧) .

وعن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: كيف أنتم إذا لبستكم فتنة يهرم فيها الكبير، وينشأ فيها الصغير، تجري على الناس يتخذونها سنة، إذا غيرت، قيل غيرت السنة، ولخوف الفتنة نهى عمر عن تتبع آثار النبي - صلى الله عليه وسلم - .

قال ابن وضاح: سمعت عيسى بن يونس يقول: أمر عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بقطع الشجرة التي بويع تحتها النبي - صلى الله عليه وسلم - فقطعها؛ لأن الناس كانوا يذهبون فيصلون تحتها، فخاف عليهم الفتنة. انتهى.

﴿**أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده**﴾ [الأنعام: ٩٠]، ﴿**والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات**

تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبدًا ذلك الفوز العظيم﴾ [التوبة: ١٠٠]، فرحم الله عمر، ما أعلمه بحقيقة دين الله الذي جاء به محمد رسول الله - ﷺ - وما أنصحه له، وما أعظم إخلاصه لله، فهذه الشجرة التي قطعها عمر جلس تحتها رسول الله-ﷺ- بايع أصحابه تحتها وعاهدوه على القتال حتى الموت في سبيل الله، وهذه الشجرة مذكورة في القرآن، قال تعالى في سورة الفتح: ﴿لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة﴾ [الفتح: ١٨]، فأين هذه السيرة الطاهرة الطيبة والعقيدة التوحيدية الخالصة من أحوال أهل هذا العصر السيئة وعقائدهم الفاسدة، وعبوديتهم للأشجار والأحجار والأبنية؟.

وإني لأعرف أماكن بنيت عليها قباب ومساجد واتخذت أوثانًا يحج إليها الناس من أقاصي البلدان، ويسوقون إليها الأنعام ليذبحوها عندها تقربًا إلى من سميت بأسمائهم ونسبت إليهم، وإن كانوا أشخاصًا وهميين مجهولين لا وجود لهم في الحقيقة، وإنما اعتمد من بنى ذلك البناء على رؤيا تحلمها بعض الدجاجلة، وعندنا بالمغرب أماكن كثيرة منها من هذا القبيل. وفي الشرق والغرب أشجار وأماكن معلمة بعلامات ككوم من الحجارة أو طرف كدية أو جبل . وهناك مياه حارة وباردة قد اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله بدون سبب، ولا ادعاء بصدق أو كذب .

وبمصر شجرة يتبرك بها الناس ويقصدونها من جميع الجهات لطلب الحاجات وشفاء الأمراض، وجعل العقيم ولودًا، والمرأة التي تلد الإناث تلد الذكور، وكانت تلك الشجرة - وقد تكون موجودة إلى الآن - بقرب قرية تسمى (كفر عامر) والكفر معناه القرية، فعزم بعض أهل العلم المحققين للتوحيد المتبعين لرسول الله ولخلفائه المقتدين بعمر بن الخطاب في قطعه لشجرة بيعة الرضوان، وعزم على قطع تلك الشجرة، فقصد إليها ليلاً، وبيده فأس، فأخذ يعمل في قطعها حتى طلوع الفجر، فلم يتم قطعها، لأنها عظيمة، ولكنه قطع جانبًا عظيمًا من أغصانها وخاف على حياته، إن هو استمر في قطعها نهارًا أن يطلع على ذلك عبّادها فيقتلوه، فنجا بنفسه ورجع إلى بيته، فلما رأى ذلك المتبركون بها حزنوا له حزنًا شديدًا واتهموه بأنه صاحب ذلك العمل، ولم يستطع أن يعترف بذلك، وأرادوا أن يحاكموه، فلم يجدوا عليه بينة، ووقع بينه وبينهم نزاع كبير، ولا يزال هذا الأستاذ حيًا يرزق إلى الآن، وأما الشجرة فلا أدري هل هي باقية أم فنيت، وكان ذلك سنة ١٣٤١هـ .

قال المعرور بن سويد: صليت مع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بطريق مكة صلاة الصبح، ثم رأى الناس يذهبون مذاهب، فقال: أين يذهب هؤلاء ؟ فقيل: يا أمير المؤمنين، مسجد صلى فيه النبي - ﷺ - فهم يصلون فيه ، فقال: إنما هلك من كان قبلكم

بمثل هذا، كانوا يتبعون آثار أنبيائهم ويتخذونها كنائس وبيعًا، فمن أدركته الصلاة في المساجد فليصل، ومن لا فليمض، ولا يتعمدها .

وفي مغازي ابن إسحاق من زيادات يونس بن بكير عن أبي خلدة خالد بن دينار حدثنا أبو العالية قال: لما فتحنا تستر وجدنا في بيت مال الهرمزان سريرًا عليه رجل ميت، عند رأسه مصحف، فأخذنا المصحف فحملناه إلى عمر، فدعا له كعبًا فنسخه بالعربية، فأنا أول رجل قرأه من العرب، قرأته مثل ما أقرأ القرآن، فقلت لأبي العالية: ما كان فيه؟ قال: سيرتكم وأموركم ولحون كلامكم وهو كائن بعد، قلت: فماذا صنعتم بالرجل؟ قال: حفرنا له بالنهار ثلاثة عشر قبرًا متفرقة، فلما كان الليل دفناه وسوينا القبور كلها لنعميه على الناس لا ينبشونه، قلت: وما يرجون منه؟ قال: كانت السماء إذا حبست عنهم برزوا بسريره فيمطرون، فقلت: من كنتم تظنون الرجل؟ قال: رجل يقال له: دانيال، فقلت: منذ كم وجدتموه مات؟ قال: منذ ثلاثمائة سنة. قلت: ما كان تغير منه شيء؟ قال : لا، إلا شعيرات من قفاه ، إن لحوم الأنبياء لا تبليها الأرض .

قال ابن القيم - رحمه الله - : ففي هذه القصة ما فعله المهاجرون والأنصار - رضي الله عنهم - من تعمية قبره لئلا يفتتن به، يبرزوه للدعاء عنده والتبرك به، ولو ظفرت به المتأخرون لجالدوا عليه بالسيوف ولعبدوه من دون الله .

قال شيخ الإسلام - رحمه الله - : وهو إنكار منهم لذلك، فمن قصد بقعة يرجو الخير بقصدها - ولم يستحب الشارع قصدها - فهو من المنكرات وبعضه أشد من بعض، سواء قصدها ليصلي عندها أو ليدعو عندها، أو ليقرأ عندها، أو ليذكر الله عندها، أو لينسك عندها، بحيث يخص تلك البقعة بنوع من العبادات لم يشرع تخصيصها به، لا نوعًا ولا عينًا، إلا أن ذلك قد يجوز بحكم الاتفاق ، لا لقصد الدعاء فيها، كمن يزورها ويسلم عليها، ويسأل الله العافية له وللموتى، كما جاءت به السنة، أما تحري الدعاء عندها بحيث يستشعر أن الدعاء هناك أجوب منه في غيره، فهذا هو المنهي عنه. انتهى ملخصًا .

وروى ابن جرير بسنده عن مجاهد في تفسير قوله تعالى في سورة النجم ﴿ **أفرأيتم اللات والعزى** ﴾ الآية [النجم: ١٩]، قال: كان اللات رجلاً يلت السويق للحجاج، أي يبله بالماء ويطعمهم إياه، فمات فعكفوا على قبره، وكذلك قال أبو الجوزاء عن ابن عباس (كان يليت السويق للحجاج) والسويق طحين حب مقلي حنطة وشعير وما أشبهها. يعني ثم بعد ذلك جعلوا له تمثالاً، فصار أحد الأصنام المشهورة، وهذا الأثر رواه البخاري في صحيحه بسنده عن ابن عباس، وهو يوضح خوف النبي - ﷺ - من أن يصير قبره وثنًا .

٢- أخرج أصحاب السنن، إلا النسائي ، عن ابن عباس قال : (لعن رسول الله - ﷺ - زائرات القبور، والمتخذين عليها المساجد والسرج)، وفي الباب عن أبي هريرة رواه أحمد والترمذي وصححه ، وحديث حسان بن ثابت رواه ابن ماجة من رواية عبد الرحمن ابن حسان بن ثابت عن أبيه قال : (لعن رسول الله - ﷺ - زوارات القبور) .

وحديث ابن عباس هذا في إسناده أبو صالح مولى أم هانئ، وقد ضعفه بعضهم ووثقه بعضهم. قال علي بن المديني عن يحيى بن القطان : لم أر أحداً من أصحابنا ترك أبا صالح مولى أم هانئ، وما سمعت أحداً من الناس يقول فيه شيئاً، ولم يتركه شعبة ولا زائدة ولا عبد الله بن عثمان. قال ابن معين: ليس به بأس، ولهذا أخرجه ابن السكن في صحيحه. انتهى من الذهب الإبريز عن الحافظ المزي .

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : وقد جاء عن النبي - ﷺ - من طريقين: فعن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - لعن زوارات القبور. وذكر حديث ابن عباس، ثم قال: ورجال هذا ليس رجال هذا، أحدهما عن الآخر. وليس في الإسنادين من يتهم بالكذب، ومثل هذا حجة بلا ريب، وهذا من أجود الحسن الذي شرطه الترمذي، فإنه جعل الحسن ما تعددت طرقه، ولم يكن فيهم متهم، ولم يكن شاذاً؛ أي مخالفًا لما ثبت بنقل الثقات. وهذا الحديث تعددت طرقه وليس فيهم متهم، ولا خالفه أحد من الثقات، وهذا لو كان عن صاحب واحد، فكيف إذا كان هذا رواه عن صاحب، وذاك عن آخر، فهذا كله يبين أن الحديث في الأصل معروف .

والذي رخصوا في الزيارة اعتمدوا على ما روي عن عائشة - رضي الله عنها- : أنها زارت قبر أخيها عبد الرحمن وقالت: « لو شهدتك ما زرتك » . وهذا يدل على أن الزيارة ليست مستحبة للنساء كما تستحب للرجال، إذ لو كان كذلك لاستحبت زيارته، سواء شهدته أم لا. فعلى هذا فلا حجة فيه لمن قال بالرخصة .

وهذا السياق لحديث عائشة رواه الترمذي من رواية عبد الله بن أبي مليكة عنها، وهو يخالف سياق الأثر له عن عبد الله بن أبي مليكة أيضًا «إن عائشة أقبلت ذات يوم من المقابر، فقلت: يا أم المؤمنين، أليس نهى رسول الله - ﷺ - عن زيارة القبور؟ قالت: نعم، نهى عن زيارة القبور، ثم أمر بزيارتها» .

فأجاب شيخ الإسلام - رحمه الله - عن هذا فقال: ولا حجة في حديث عائشة، فإن المحتج عليها احتج بالنهي العام، فدفعت ذلك بأن النهي منسوخ، ولم يذكر لها المحتج النهي الخاص بالنساء الذي فيه لعنهن على الزيارة، يبين ذلك قولها: قد أمر بزيارتها، فهذا

يبين أنه أمر بها أمراً يقتضي الاستحباب، والاستحباب إنما هو ثابت للرجال خاصة، ولو كانت تعتقد أن النساء مأمورات بزيارة القبور لكانت تفعل ذلك كما يفعله الرجال، ولم تقل لأخيها «ما زرتك».

واللعن صريح في التحريم، والخطاب بالإذن في قوله: «فزوروها» لم يتناول النساء، فلا يدخلن في الحكم الناسخ، والعام إذا عرف أنه بعد الخاص لم يكن ناسخًا له عند جمهور العلماء، وهو مذهب الشافعي وأحمد في أشهر الروايتين عنه، وهو المعروف عند أصحابه، فكيف إذا لم يعلم أن هذا العام بعد الخاص؟ إذ قد يكون قوله: «لعن الله زوارات القبور» بعد إذنه للرجال في الزيارة. يدل على ذلك، أنه قرنه بالمتخذين عليها المساجد والسرج، ومعلوم أن اتخاذ المساجد والسرج المنهي عنها محرّم، كما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وكذلك الآخر.

والصحيح أن النساء لم يدخلن في الإذن في زيارة القبور لعدة أوجه:

أحدها: أن قوله - ﷺ - : «فزوروها» صيغة تذكير، وإنما يتناول النساء أيضًا على سبيل التغليب، لكن هذا فيه قولان؛ قيل: إنه يحتاج إلى دليل منفصل، وحينئذٍ فيحتاج تناول ذلك للنساء إلى دليل منفصل. وقيل: إنه يحمل على ذلك عند الإطلاق. وعلى هذا فيكون دخول النساء بطريق العموم الضعيف، والعام لا يُعارض الأدلة الخاصة ولا ينسخها عند جمهور العلماء، ولو كان النساء داخلات في هذا الخطاب لاستحب لهن زيارة القبور، وما علمنا أحداً من الأئمة استحب لهن زيارة القبور، ولا كان النساء على عهد النبي - ﷺ- وخلفائه الراشدين يخرجن إلى زيارة القبور.

ومنها: أن النبي - ﷺ - علل الإذن للرجال بأن «يذكر الموت، ويرق القلب، وتدمع العين» هكذا في مسند أحمد. ومعلوم أن المرأة إذا فتح لها هذا الباب أخرجها إلى الجزع والندب والنياحة لما فيها من الضعف وقلة الصبر. وإذا كانت زيارة النساء مظنة وسببًا للأمور المحرمة فإنه لا يمكن أن يحد المقدار الذي لا يفضي إلى ذلك، ولا التمييز بين نوع ونوع، ومن أصول الشريعة: أن الحكمة إذا كانت خفية أو منتشرة علق الحكم بمظنتها، فيحرم هذا الباب سدًّا للذريعة، كما حرم النظر إلى الزينة الباطنية، وكما حرم الخلوة بالأجنبية وغير ذلك، وليس في ذلك من المصلحة ما يعارض هذه المفسدة، فإنه ليس في ذلك إلا دعاؤها للميت، وذلك ممكن في بيتها.

ومن العلماء من يقول: التشييع كذلك، ويحتج بقوله - ﷺ - : «**ارجعن مأزورات غير مأجورات، فإنكن تفتن الحي وتؤذين الميت**». وقوله لفاطمة: «**أما أنك لو بلغت معهم**

الكدي لم تدخلي الجنة» . ويؤيده ما ثبت في الصحيحين من «أنه نهى النساء عن اتباع الجنائز» ، ومعلوم أن قوله - صلى الله عليه وسلم - : «**من صلى على جنازة فله قيراط، ومن تبعها حتى تدفن فله قيراطان**» هو أدل على العموم من صيغة التذكير، فإن لفظ (مَن) يتناول الرجال والنساء باتفاق الناس. وقد علم بالأحاديث الصحيحة أن هذا العموم لم يتناول النساء لنهي النبي - ﷺ - لهن عن اتباع الجنائز، فإذًا لم يدخلن في العموم، فكذلك في ذلك بطريق الأولى . انتهى ملخصًا.

وعليه فيكون الإذن في زيارة القبور مخصوصًا بالرجال، خص بقوله: «**لعن الله زوارات القبور**» الحديث، فيكون من العام المخصوص .

وعما استدل به القائلون بالنسخ أجوبة أيضًا: منها ما ذكروه عن عائشة وفاطمة - رضي الله عنهما- معارض بما ورد عنهما في هذا الباب فلا يثبت به نسخ .

ومنها: أن قول الصحابي وفعله ليس حجة على الحديث بلا نزاع، وأما تعليمه عائشة كيف تقول، إذا زارت القبور ونحو ذلك، فلا يدل على نسخ ما دلت عليه الأحاديث الثلاثة من لعن زائرات القبور، لاحتمال أن يكون ذلك قبل هذا النهي الأكيد، والوعيد الشديد، والله أعلم .

● ● ●

الغرض الأكبر من الدعوة المحمدية هو «التوحيد»

اعلم ألهمنا الله وإياك حب الحق وأهله، وكشف عن قلوبنا ظلمات الجهل، ونور بصائرنا بنور العلم الحق: إن أعظم ما جاء به محمد رسول الله - ﷺ - هو إفراد الله بالتوحيد وتنزيهه عن الأنداد والشركاء في ربوبيته وعبادته، وفي سائر صفاته وأفعاله، وإذا تأملت كتاب الله وجدت فيه العناية بالتوحيد ونفي الشرك تزيد على العناية بغير ذلك من الفرائض بما لا مناسبة معه . ولو قيل : إن نحو ثلث القرآن نص في إخلاص التوحيد ونفي الشرك، ما كان ذلك بعيداً، فمن أباح الشرك بالله، فإما أنه لا يفهم معاني القرآن، وإما أنه منافق صاحب غرض خسيس .

وقد قضى النبي - ﷺ - المدة التي قبل الهجرة، وهي ثلاث عشرة سنة مبشراً ونذيراً وداعيًا ومجادلاً بالحق في شأن التوحيد ليله ونهاره، لا يفتر ولا يمل تاركًا سائر الفرائض الأخرى كالزكاة والصيام والحج، وبيان الحلال والحرام والآداب والرقائق إلا ما كان تابعًا للتوحيد .

وأما الصلاة فقد فرضت عليه في آخر هذه المدة، ولم يفصل أمرها إلا بعد الهجرة، فصلاة الجمعة مثلاً وصلاة العيدين، والاستسقاء والخسوف والكسوف، والجنازة كل ذلك، إنما بينه بعد الهجرة، والصلوات الخمس نفسها إنما تم بيانها تفصيلاً بعد الهجرة، فما هو هذا الأمر العظيم الذي استغرق ثلاث عشرة سنة وحده تقريبًا، وأخذ أوفر نصيب من السنين العشر التي بعد الهجرة؟ هو توحيد الله الذي ضل عنه أكثر أهل الأرض فاتخذ الناس بعضهم بعضًا أربابًا من دون الله .

ومما ورد في قوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئًا ولا يتخذ بعضنا بعضًا أربابًا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون** ﴾ [آل عمران: ٦٤]، وبهذه الآية كان النبي - ﷺ - يكتب إلى ملوك الأمم ولا يذكر لهم شيئًا مما جاء به غير التوحيد؛ لأنه أصل الإسلام، وقال تعالى في السورة نفسها: ﴿ **ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم النبوة ثم يقول للناس كونوا عبادًا لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون * ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أربابًا أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم**

مسلمون﴾ [آل عمران: ٧٨-٨٠] ، فمن أخل بهذا الأصل جهلاً، أو عنادًا، فأي دين يبقى له، وأي إسلام يصبح له؟ لا جرم أنه لا يكون جديراً بنصر الله له واستخلافه في الأرض .

ومن درس سيرة الرسول - ﷺ - تبين له جده واجتهاده في حماية التوحيد وسد كل طريق يوصل إلى الشرك، وقطع كل ذريعة تجر إليه، وذلك أداه لما فرض الله عليه على أكمل الوجوه، وأتمها عملاً، بقوله تعالى في سورة الحج: **﴿وجاهدوا في الله حق جهاده﴾** [الحج: ٧٨] ، ثم هو مبالغة في النصح لأمته رأفة ورحمة بهم، كما قال تعالى عنه في آخر سورة التوبة: **﴿لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم . فإن تولوا فقل حسبي الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم﴾** [التوبة: ١٢٨، ١٢٩] .

١- عن أبي هريرة قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**لا تجعلوا بيوتكم قبورًا، ولا تجعلوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**». رواه أبو داود بإسناد حسن. ورواته ثقات .

قوله: «لا تجعلوا بيوتكم قبورًا» . قال شيخ الإسلام: أي لا تعطلوها من الصلاة فيها والدعاء والقراءة، فتكون بمنزلة القبور، فأمر بتحري العبادة في البيوت، ونهى عن تحريمها عند القبور، عكس ما يفعله المشركون من النصارى ومن تشبه بهم من هذه الأمة.

وأخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر قال: قال رسول الله - ﷺ-: «**اجعلوا صلاتكم في بيوتكم، ولا تتخذوها قبوراً**» . وفي صحيح مسلم عن ابن عمر مرفوعًا: «**لا تجعلوا بيوتكم مقابر، فإن الشيطان يفر من البيت الذي يسمع سورة البقرة تقرأ فيه**» .

قوله: «ولا تجعلوا قبري عيدًا» اعلم أن العيد على نوعين؛ عيد زماني ، يعود إلى الناس في كل سنة: وفي كل شهر، وفي كل أسبوع كالجمعة، فإنها عيد المسلمين تعود إليهم في كل أسبوع، وكعيد الفطر وعيد الأضحى، فإنهما يعودان على الناس في كل سنة. وعيد مكاني، يعود الناس إليه، كالكعبة ومنى ومزدلفة وعرفة، وقد كانت للمشركين في الجاهلية أعياد زمانية وأعياد مكانية، فلما جاء الإسلام أبطلها وجعل مكانها الأعياد الإسلامية التي مر ذكرها، فلا يجوز للمسلمين أن يبتدعوا عيدًا زمانيًّا ولا مكانيًا لم يشرعه الله على لسان نبيه ورسوله - ﷺ - وقد نهانا عليه الصلاة والسلام أن نجعل قبره عيدًا، أي موضعًا نتردد عليه ونجتمع فيه، كما نفعل بالكعبة ومنى وعرفة ولا حاجة بنا إلى ذلك؛ لأن صلاتنا عليه يبلغه الله إياها أينما كنا .

وأما مسجده عليه الصلاة والسلام، فهو أحد المساجد الثلاثة المفضلة التي يشرع لنا

أن نشد إليها الرحال بقصد الصلاة فيها، وبعد انتقال النبي - ﷺ - إلى دار الكرامة لم تبق بين المسلمين وبينه صلة إلا اتباع سنته والتمسك بشريعته، ومحبته أكثر من النفس والأهل والمال . وكثرة الصلاة والسلام عليه، ولا شيء من ذلك يستلزم إتيان قبره .

وعن علي بن الحسين - هو زين العابدين- أنه رأى رجلاً يجيء إلى فُرجة كانت عند قبر النبي ﷺ، فيدخل فيها فيدعوه فنهاه ، وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله ﷺ؟ قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا بيوتكم قبوراً، وصلوا عليَّ، فإن تسليمكم يبلغني أينما كنتم**». رواه في المختارة .

وهذا الحديث وحديث أبي هريرة المتقدم جيدان حسنا الإسنادين .

أما الأول: فرواه أبو داود وغيره من حديث عبد الله بن نافع الصائغ قال: أخبرني ابن أبي ذئب عن سعيد المقبري عن أبي هريرة فذكره، ورواته ثقات مشاهير، لكن عبد الله ابن نافع قال فيه أبو حاتم: ليس بالحافظ ، تعرف وتنكر. وقال ابن معين: هو ثقة. وقال أبو زرعة: لا بأس به .

وقال شيخ الإسلام رحمه الله : ومثل هذا إذا كان لحديثه شواهد على أنه محفوظ، وهذا له شواهد متعددة، وقال الحافظ محمد بن عبد الهادي: هو حديث حسن جيد الإسناد، وله شواهد يرتقى بها إلى درجة الصحة .

وأما الحديث الثاني: يعني حديث علي بن الحسين - عليهما السلام - فرواه أبو يعلى والقاضي إسماعيل والحافظ الضياء محمد بن عبد الواحد المقدسي في المختارة .

قال شيخ الإسلام: فانظر هذه السنة كيف مخرجها من أهل المدينة (كذا) وأهل البيت الذين لهم من رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قرب النسب وقرب الدار؛ لأنهم إلى ذلك أحوج من غيرهم، فكانوا له أضبط .

وقال سعيد بن منصور في سننه: حدثنا عبد العزيز بن محمد أخبرني سهيل بن أبي سهيل قال: (رآني الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنهم - عند القبر، فناداني وهو في بيت فاطمة - رضي الله عنها - يتعشى، فقال: هلم إلى العشاء، فقلت: لا أريده، فقال: ما لي رأيتك عند القبر؟ فقلت: سلمت على النبي - صلى الله عليه وسلم- فقال: إذا دخلت المسجد فسلم، ثم قال: إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم- قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً، ولا تتخذوا بيوتكم مقابر، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم، لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، ما أنتم ومن بالأندلس إلا سواء**» .

وقال سعيد أيضًا: حدثنا حبان بن علي ، حدثنا محمد بن عجلان عن أبي سعيد المهري قال: قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : «**لا تتخذوا قبري عيدًا، ولا بيوتكم قبورًا، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني**» .

قال شيخ الإسلام: فهذان المرسلان من هذين الوجهين المختلفين يدلان على صحة الحديث لا سيما وقد احتج به من أرسله، وذلك يقتضي ثبوته عنده، وهذا لو روي من وجوه مسندة من غير هذين ، فكيف وقد تقدم مسندًا؟ .

قوله: (علي بن الحسين) أي ابن أبي طالب المعروف بزين العابدين - رضي الله عنه- أفضل التابعين من أهل بيته وأعلمهم .

قال الزهري: ما رأيت فتى أفضل منه، مات سنة ثلاث وتسعين على الصحيح وأبوه الحسين سبط رسول الله - ﷺ - وريحانته، حفظ عن النبي - ﷺ - ، واستشهد يوم عاشوراء سنة إحدى وستين ، وله ست وخمسون سنة، رضي الله عنه .

قوله: (أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة) بضم الفاء وسكون الراء، وهي الكوة في الجدار والخوخة ونحوها، قوله: (فيدخل فيها فيدعوه فنهاه) هذا يدل على النهي عن قصد القبور والمشاهد لأجل الدعاء والصلاة عندها .

قال شيخ الإسلام: ما علمت أحدًا رخص فيه؛ لأن ذلك نوع من اتخاذه عيدًا، ويدل أيضًا على أن قصد القبر للسلام إذا دخل المسجد ليصلي منهي عنه؛ لأن ذلك لم يشرع، وكره مالك لأهل المدينة كلما دخل الإنسان المسجد، أن يأتي قبر النبي - ﷺ - ؛ لأن السلف لم يكونوا يفعلون ذلك، قال: (ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا ما أصلح أولها)، وكان الصحابة والتابعون - رضي الله عنهم - يأتون إلى مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - فيصلون، فإذا قضوا الصلاة قعدوا أو خرجوا، ولم يكونوا يأتون القبر للسلام، لعلمهم أن الصلاة والسلام عليه في الصلاة أكمل وأفضل، وأما دخولهم عند قبره للصلاة والسلام عليه هناك، أو للصلاة والدعاء، فلم يشرعه لهم، بل نهاهم عنه في قوله: «**لا تتخذوا قبري عيدًا، وصلوا عليَّ، فإن صلاتكم تبلغني**» . فبين أن الصلاة تصل إليه من بعد، وكذلك السلام: ولعن من اتخذ قبور الأنبياء مساجد، وكانت الحجرة في زمانهم يدخل إليها من الباب إذ كانت عائشة - رضي الله عنها - فيها - ، وبعد ذلك إلى أن بنى الحائط الآخر، وهم مع ذلك التمكن من الوصول إلى قبره لا يدخلون عليه، لا للسلام ولا للصلاة، ولا للدعاء لأنفسهم ولا لغيرهم، ولا لسؤال عن حديث أو علم، ولا كان الشيطان يطمع فيهم حتى يسمعهم كلامًا أو سلامًا، فيظنون أنه كلمهم وأفتاهم، ويبين لهم

الأحاديث، وأنه قد رد عليهم السلام، بصوت يسمع من خارج، كما طمع الشيطان في غيرهم فأضلهم عند قبره وقبر غيره، حتى ظنوا أن صاحب القبر يأمرهم وينهاهم ويفتيهم ويحدثهم في الظاهر وأنه يخرج من القبر ويرونه خارجًا من القبر، ويظنون أن نفس أبدان الموتى خرجت تكلمهم، وأن روح الميت تجسدت لهم فرأوها، كما رآهم النبي - ﷺ - ليلة المعراج.

والمقصود: أن الصحابة - رضي الله عنهم - لم يكونوا يعتادون الصلاة والسلام عليه عند قبره كما يفعله من بعدهم من الخلوف، وإنما كان بعضهم يأتي من خارج فيسلم إذا قدم من سفره كما كان ابن عمر يفعل. قال عبيد الله بن عمر عن نافع: (كان ابن عمر إذا قدم من سفر أتى قبر النبي - ﷺ - فقال: السلام عليك يا رسول الله، السلام عليك يا أبا بكر، السلام عليك يا أبتاه، ثم ينصرف). قال عبيد الله: (ما نعلم من أصحاب النبي - ﷺ - من فعل ذلك إلا ابن عمر)، وهذا يدل على أنه كان لا يقف عند القبر للدعاء إذا سلم كما يفعله كثير.

قال شيخ الإسلام: لأن ذلك لم ينقل عن أحد من الصحابة، فكان بدعة محضة.

وفي المبسوط: قال مالك: «لا أرى أن يقف عند قبر النبي - صلى الله عليه وسلم- ولكن يسلم ويمضي، ونص أحمد أنه يستقبل القبلة ويجعل الحجرة عن يساره لئلا يستدبره».

وبالجملة، فقد اتفق الأئمة أنه إذا دعا لا يستقبل القبر، وتنازعوا هل يستقبله عند السلام عليه أم لا؟ وفي الحديث دليل على منع شد الرحال إلى قبره - صلى الله عليه وسلم- ، ولا إلى غيره من القبور والمشاهد؛ لأن ذلك من اتخاذها أعيادًا، بل من أعظم أسباب الإشراك بأصحابها.

وقد اختلف العلماء؛ فمن مبيح لذلك كالغزالي وأبي محمد المقدسي، ومن مانع لذلك كابن بطة، وابن عقيل، وأبي محمد الجويني، والقاضي عياض، وهو قول الجمهور نص عليه مالك، ولم يخالفه أحد من الأئمة، وهو الصواب لما في الصحيحين عن أبي سعيد عن النبي - ﷺ - قال: «**لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**». فدخل في النهي شدها لزيارة القبور والمشاهد، فأما أن يكون نهيًا، وأما أن يكون نفيًا، وجاء في رواية بصيغة النهي فتعين أن يكون للنهي، ولهذا فهم منه الصحابة - رضي الله عنهم - المنع، كما في الموطأ والمسند والسنن - عن بصرة عن أبي بصرة الغفاري، أنه قال لأبي هريرة - وقد أقبل من الطور- لو أدركتك قبل أن تخرج

إليه لما خرجت، سمعت رسول الله - ﷺ - يقول: «**لا تعمل المطي إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**». وروى أحمد وعمر بن شيبة في أخبار المدينة بإسناد جيد عن قزعة قال: أتيت ابن عمر فقلت: إني أريد الطور، فقال: إنما تشد الرحال إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجد المدينة، والمسجد الأقصى، فدع عنك الطور ولا تأته.

فابن عمر وبصرة ابن أبي بصرة جعلا الطور مما نهى عن شد الرحال إليه؛ لأن اللفظ الذي ذكراه فيه النهي عن شدها إلى غير الثلاثة مما يقصد به القربة، فعلم أن المستثنى منه عام في المساجد وغيرها، وأن النهي ليس خاصًا بالمساجد، ولهذا نهيا عن شدها إلى الطور، مستدلين بهذا الحديث، والطور إنما يسافر من يسافر إليه لفضيلة البقعة، فإن الله سماه: (الوادي المقدس. والبقعة المباركة)، وكلم كليمه موسى - عليه السلام - هناك، وهذا هو الذي عليه الأئمة الأربعة وجمهور العلماء.

ومن أراد بسط القول في ذلك والجواب عما يعارضه فعليه بما كتبه شيخ الإسلام مجيبًا لابن الأخنائي فيما اعترض به على ما دلت عليه الأحاديث الصحيحة، وأخذ به العلماء، وقياس الأولى؛ لأن المفسدة في ذلك ظاهرة.

وأما النهي عن زيارة غير المساجد الثلاثة، فغاية ما فيها، أنها لا مصلحة في ذلك توجب شد الرحال، ولا مزية تدعو إليه، وقد بسط القول في ذلك الحافظ محمد بن عبدالهادي في كتاب «الصارم المنكي في رده على السبكي» وذكر فيه علل الأحاديث الواردة في زيارة قبر النبي - ﷺ - ، وذكر هو وشيخ الإسلام - رحمهما الله تعالى - ، أنه لا يصح منها حديث عن النبي - ﷺ - ، ولا عن أحد من أصحابه مع أنها لا تدل على محل النزاع، إذ ليس فيها إلا مطلق الزيارة، وذلك لا ينكره أحد بدون شد الرحال، فيحمل على الزيارة الشرعية التي ليس فيها شرك ولا بدعة.

● ● ●

فيما ورد أن بعض هذه الأمة يعبد الأوثان

الوثن على وزن سبب، هو كل جماد عبد من دون الله، يشمل التماثيل والأشجار والأحجار وغير ذلك، والأصنام جمع صنم خاص بالتماثيل، والوثن أعم من الصنم، فالقبر الذي يعبد من دون الله يسمى وثنًا، ولا يسمى صنمًا .

إن من أعظم ما يصد الناس عن معرفة أعظم ما جاء به الرسول وهو توحيد الله وضده وهو الشرك بالله، وهو الذنب الذي لا يغفر بنص الكتاب العزيز وإجماع الأمة. قال تعالى في سورة النساء: ﴿**إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء**﴾ [النساء: ٤٨]. وقال تعالى في سورة المائدة: ﴿**إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار**﴾ [المائدة: ٧٢]، إن من أعظم ما يصد الناس عن معرفة هذا الأصل العظيم الذي عليه مدار الإسلام، ما ألقى الشيطان في قلوب كثير ممن يسمون فقهاء أو علماء قادة مرشدين، وعاظًا مفتين، هو أن الشرك بالله شيء كان فبان ولم يبق له وجود في هذه الأمة، ولا يمكن أن يطرأ على أحد منها، وكل من يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله، ولو كان لا يعرف معناه، ولا يعمل بمقتضاها، فهو مؤمن موحد، وإن ارتكب الشرك قولاً وفعلاً، بل ولو زاد على الشرك حتى صار يخاف الأوثان والآلهة الأخرى أكثر مما يخاف الله، ويتصدق لهم أكثر مما يتصدق لله، ويدعوهم أكثر مما يدعو الله، ويتوكل عليهم في قضاء الحاجات وتفريج الكربات أكثر مما يتوكل على الله .

لذلك أردنا أن نبين في هذا الفصل ما رواه الأئمة الحفاظ عن الرسول الأعظم في هذا الباب مما لا يبقي أدنى شك ولا ريب في أن بعض هذه الأمة لا بد أن يقعوا في الشرك وفي عبادة الأوثان، ومن نفى ذلك أو أمنه على نفسه وعلى الناس فقد خالف القرآن والسنة وسنة الرسول، بل وسنة إمام الحنفاء الأول إبراهيم، إذ قال كما حكى الله عنه في سورة إبراهيم: ﴿**وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا البلد آمنًا**﴾ [إبراهيم: ٣٥] ، يعني مكة، ﴿**واجنبني وبني أن نعبد الأصنام . رب إنهن أضللن كثيراً من الناس**﴾ ، وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿**ووصى بها إبراهيم بنيه ويعقوب يا بني إن الله اصطفى لكم الدين فلا تموتن إلا وأنتم مسلمون**﴾ [البقرة: ١٣٢] أي موحدون، أي كونوا موحدين دائمًا، حتى إذا جاءكم الموت وهو لا يأتيكم إلا بغتة، يجدكم موحدين، ﴿**أم كنتم شهداء إذا حضر يعقوب الموت إذ قال لبنيه ما تعبدون من بعدي قالوا نعبد إلهك وإله آبائك إبراهيم وإسماعيل**

وإسحاق إلهًا واحـداً ونحن له مسلمون﴾ ، ولو أن رجلاً من العلمـاء الحنفاء جمع أولاده عند موته، فقال لهم: يا بني، ما تعبدون من بعدي؟ .

هذا، وقد علمهم القرآن والسنة ولم تبدر منهم بادرة تدل على الانحراف عن الجادة، لعده هؤلاء السفهاء الذين يتسمون بالفقـهاء مجنونًا ورموه بكل عيب ونقص، فماذا يقولون في إبراهيم ويعقوب وفي مـحمد صلوات الله عليهم أجمعين، إذ قـال حين حضره الموت: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» يحذر ما صنعوا، فكبار أولي العزم يخافـون الشرك على أولادهم وأممهم . والجهال والسـفهاء يجـعلونه مستحـيلاً، ولو على أجهل الناس، وسترى في هذا الفصل ما يكشف النقاب عن الحق .

١- روى البـخاري ومـسلم عن أبي سعـيد الخـدري أن رسول الله - ﷺ - قـال: «**لتتبعن سَنَنَ من كان قبـلكم حذو القذة بالقذة، حـتى لو دخلوا جحر ضب لدخلتـموه**» . قالوا: يا رسول الله، اليـهود والنصارى ؟ قال: «**فمن؟**» . وفي رواية : اليهود والنصارى وفارس. قال: «**فمن القوم إلا أولئك**» .

قوله عليه الصـلاة والسلام: «لتتبعن» أكده بالقـسم المقدر واللام والنون (سنن) بفتح السين، وهو الطريق، وهو أفصح ، أو بضـمها جمع سنة، وهي الطريقـة، وقوله: «حذو القذة بالقذة» ، القذة بضم الـقاف: رأس السهم، يعني كما أن السهام مـتساوية لا يختلف بعضهـا عن بعض ، فكذلك أنتم لا بد أن يفعل بعضكم كما فـعل أهل الكتابين والمجوس من الكفر والشرك والمعاصي، حتى لو دخلوا في غار ضب لدخلتم فيه، وفي رواية: «**حتى لو كان فـيهم من يأتي أمه عـلانية لكان في أمـتي من يفعل ذلك**» . يعني لو كـان في الأمم السابقـة من يزني بأمه، والـناس ينظرون، لكان في هذه الأمة من يفـعل ذلك، وهذا يأتي على كل ما يتشـدق به المتهوكون، من قولهم: بأن الشرك بعـيد عمن يقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله .

والعجب كل العـجب من هؤلاء أنهم قد يكفـرون من يقول: لا إله إلا الله محـمد رسوله بأمور تافهة، كأن يقول: مسيجد، وبعض المالكية يكفر من يستعمل الريق في إصبعه للفصل بين صـفحتين من صفـحات المصحف، وبعضـهم يكفر من يحلق لحيـته، أو يلبس لباس الإفرنج، كأن يضع القلنسوة المعروفة بالبرنيطة على رأسه، بل بعضهم زاد على ذلك، فزعم أن من قال للعالم (عويلم) فقد كفر .

وأما من يشرك بالله فيـدعو غيره بتضرع وابتهال وخـشوع لا يقع منه في سجوده في صلاة الفريضـة، ويطلب من غير الله قضـاء الحاجات وتفريج الكربات، كشـفاء الأمراض

وإعطاء الأولاد، وتوسيع الأرزاق ونصر المظلوم، وهداية القلوب، وإمالة قلوب السلاطين والملوك، وهزيمة الأعداء والانتصار عليهم، وإنزال المطر، هذا كله لا يجعله شركًا ولا كفرًا، ولو نبه عليه وتليت عليه الآيات والأحاديث فازداد عتوًا ونفورًا، كذلك يطبع الله على قلوب الذين لا يعلمون .

٢- أخرج مسلم عن ثوبان قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**إن الله زوى لي الأرض، فرأيت مشارقها ومغاربها ، وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها وأعطيت الكنزين: الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بعامة، وأ لا يسلط عليهم عدوًا من سوى أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، وأن ربي قال: يا محمد، إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك أن لا أهلكهم بسنة عامة، وأن لا أسلط عليهم عدوًا من أنفسهم، فيستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها، حتى يكون بعضهم يهلك بعضًا ويسبي بعضهم بعضًا**» . ورواه البرقاني في صحيحه وزاد: «**إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين، وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة، ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين وحتى تعبد فئام من أمتي الأوثان ، وأنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون ، كلهم يزعم أنه نبي، وأنا خاتم النبيين، لا نبي بعدي، ولا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة، لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله تبارك وتعالى**» . رواه أبو داود وابن ماجة أيضًا بهذه الزيادة .

● بيان معنى هذا الحديث :

قوله: «إن الله زوى لي الأرض» قال الطيبي: أي جمعها لي فأبصرت ما تملكه أمتي من أقصى المشارق والمغارب منها .

قوله: «وأن أمتي سيبلغ ملكها ما زوى لي منها» . قال القرطبي: هذا الخبر وجد مخبره كما قال، وكان ذلك من دلائل نبوته، وذلك أن ملك أمته اتسع إلى أن بلغ أقصى طنجة - بالنون والجيم - الذي هو منتهى عمارة المغرب إلى أقصى المشرق مما هو وراء خراسان والنهر، وكثير من بلاد السند والهند، ولم يتسع ذلك الاتساع من جهة الجنوب والشمال، ولذلك لم يذكر - عليه السلام - أنه أريه ولا أخبر أن ملك أمته يبلغه .

قوله: «زوى لي منها» : يحتمل أن يكون مبنيًّا للفاعل، وأن يكون مبنيًّا للمفعول.

قوله: «وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض» . قال القرطبي: يعني كنز كسرى وهو ملك الفرس، وكنز قيصر، وهو ملك الروم، وقصورهما وبلادهما، وقال - ﷺ - : «والذي نفسي بيده لتنفقن كنوزهما في سبيل الله» . وعبر بالأحمر عن كنز قيصر، لأن

الغالب عندهم كان الذهب، وبالأبيض عن كنز كسرى؛ لأن الغالب عندهم كان الجوهر والفضة، ووجد ذلك في خلافة عمر، فإنه سيق إليه تاج كسرى وحليته وما كان في بيوت أمواله، وجميع ما حوته مملكته على سعتها وعظمتها وكذلك فعل الله بقيصر، والأبيض والأحمر منصوبان على البدل .

قوله: « وإني سألت ربي لأمتي أن لا يهلكها بسنة بعامة » الباء زائدة، وعامة صفة سنة . ومثله في حديث عائشة: (أصابتها حمى بنافض) أي حمى نافض، والسنة هنا القحط، كما قال تعالى في سورة الأعراف: ﴿ **ولقد أخذنا آل فرعون بالسنين** ﴾ أي بالجدب والقحط المتوالي .

قوله: « من سوى أنفسهم » أي من غيرهم من الكفار من إهلاك بعضهم بعضًا، يعني فحينئذٍ يسلط عليهم أعداءهم، وما داموا مجتمعين على الإسلام متناصرين لا يسلط الله عليهم عدوهم فيهلكهم أبداً .

قوله: « ليستبيح بيضتهم » بيضة القوم حوزتهم وساحتهم، كما في القاموس والصحاح .

قوله: « يا محمد ، إذا قضيت قضاء لا يرد » . يعني إذا حكمت حكمًا مبرمًا لا ينقض . وفي الحديث الصحيح: « ولا راد لما قضيت » .

والبرقاني هو الحافظ أبو بكر أحمد بن محمد بن أحمد بن غالب الخوارزمي الشافعي، ولد سنة ست وثلاثين وثلاثمائة، ومات سنة خمس وعشرين وأربعمائة، قال الخطيب: كان ثبتًا ورعًا، لم نر في شيوخنا أثبت منه، عارفًا بالفقه، كثير التصانيف، صنف مسنداً ضمنه ما اشتمل عليه الصحيحان، وجمع حديث الثوري وحديث شعبة وطائفة .

قوله: « وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين » أي الأمراء والعلماء والعباد، فيحكمون فيهم بغير علم فيضلونهم، كما قال تعالى في سورة الأحزاب: ﴿ **وقالوا ربنا إنا أطعنا سادتنا وكبراءنا فأضلونا السبيلا** ﴾ [الأحزاب: ٦٧] ، وكان بعض هؤلاء يقول لأصحابه: من كان له حاجة فليأت إلى قبري فإني أقضيها له، ولا خير في رجل يحجبه عن أصحابه ذراع من ترابي، ونحو هذا .

وهذا هو الضلال البعيد، يدعو أصحابه إلى أن يعبدوه من دون الله، ويسألونه ما لا يقدر عليه من قضاء حاجاتهم وتفريج كرباتهم، وقد قال تعالى في سورة الحج: ﴿ **يدعو من دون الله ما لا يضره وما لا ينفعه ذلك هو الضلال البعيد . يدعو لمن ضره أقرب من نفعه**

لبئس المولى ولبئس العشير﴾ [الحج: ١٢، ١٣]، وقال تعالى: ﴿واتخذوا من دونه آلهة لا يخلقون ولا يملكون لأنفسهم ضراً ولا نفعًا ولا يملكون موتًا ولا حياة ولا نشوراً﴾ [الفرقان: ٣]، وقال تعالى: ﴿فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له إليه ترجعون﴾ [العنكبوت: ١٧]، وأمثال هذا في القرآن كثير، يبين الله تعالى به الهدى من الضلال.

ومن هذا الضرب: من يدعي أن يصل مع الله إلى حال تسقط فيها عنه التكاليف، ويدعي أن الأولياء يدعون ويستغاث بهم في حياتهم ومماتهم، وأنهم ينفعون ويضرون ويدبرون الأمور على سبيل الكرامة، وأنه يطلع على اللوح المحفوظ، ويعلم أسرار الناس وما في ضمائرهم، ويجوز بناء المساجد على قبور الأنبياء والصالحين، وإيقادها بالسرج، ونحو ذلك من الغلو والإفراط والعبادة لغير الله، فما أكثر هذا الهذيان والكفر والمحادة لله ولكتابه ولرسوله.

وقوله - ﷺ - : «وإنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين». أتى بإنما التي قد تأتي للحصر بيانًا لشدة خوفه على أمته من أئمة الضلال، وما وقع في خلد النبي - ﷺ - في ذلك إلا لما أطلعه الله عليه في غيبه أن سيقع نظير ما في الحديث قبله من قوله: «لتتبعن سَنَنَ من كان قبلكم». الحديث.

وعن أبي الدرداء قال: قال رسول الله - ﷺ - : «إن أخوف ما أخاف على أمتي الأئمة المضلون». رواه أبو داود الطيالسي، وعن ثوبان أن رسول الله - ﷺ قال: «إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين». رواه الدارمي، وقد بين الله تعالى في كتابه صراطه المستقيم الذي هو سبيل المؤمنين، فكل من أحدث حدثًا ليس في كتاب الله ولا في سنة رسوله - ﷺ - فهو ملعون، وحدثه مردود، كما قال - ﷺ - : «من أحدث حدثًا أو آوى محدثًا فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين، لا يقبل الله منه يوم القيامة صرفًا ولا عدلاً». وقال: «من أحدث في أمرنا ما ليس منه، فهو رد». وقال: «كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة». وهذه أحاديث صحيحة. ومدار أصول الدين وأحكامه على هذا الأحاديث ونحوها، وقد بين الله تعالى هذا الأصل في مواضع من كتابه العزيز، كما قال تعالى: ﴿اتبعوا ما أنزل إليكم من ربكم ولا تتبعوا من دونه أولياء قليلاً ما تذكرون﴾ [الأعراف: ٣]، وقال تعالى: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ [الجاثية: ١٨]، ونظائرها في القرآن كثير.

وعن زياد بن حدير قال: قال لي عمر - رضي الله عنه - : (هل تعرف ما يهدم الإسلام؟ قلت: لا، قال: يهدمه زلة العالم، وجدال المنافق بالكتاب، وحكم الأئمة

المضلين). رواه الدارمي .

وقوله – ﷺ – : « وإذا وقع عليهم السيف لم يرفع إلى يوم القيامة » . وكذلك وقع. فإن السيف لما وقع بقتل عثمان – رضي الله عنه – لم يرفع ، وكذلك يكون إلى يوم القيامة، ولكن قد يكثر تارة ويقل أخرى، ويكون في جهة ويرتفع عن أخرى .

قوله: « ولا تقوم الساعة حتى يلحق حي من أمتي بالمشركين » والحي واحد الأحياء، وهي القبائل. وفي رواية أبي داود: « حتى يلحق قبائل من أمتي بالمشركين » أي: يوافقونهم في دينهم ويحتكمون إلى شرائعهم معرضين عن شريعة الرسول – صلى الله عليه وسلم » .

قوله – ﷺ – : « حتى تعبد فئام من أمتي الأوثان » الفئام بكسر الفاء مهموز، الجماعات الكثيرة. قاله أبو السعادات، وفي رواية أبي داود: « وحتى تعبد قبائل من أمتي الأوثان » . وفي هذا أعظم دليل لمن زعم أن هذه الأمة لا يمكن أن يعبد أحد منها الأوثان بعد نزول القرآن وانتشار الإسلام والنطق بالشهادتين، وأداء الفرائض، فإن التوحيد – كما تقدم – هو أعظم الفرائض، والشرك هو أعظم الذنوب، فمن أخل بأعظم الفرائض وارتكب أعظم الذنوب، فقد بنى دينه على شفا جرف هار .

ويؤيد هذا ما أخرجه الشيخان عن أبي هريرة قال: قال رسول الله – ﷺ – : « **لا تقوم الساعة حتى تضطرب أليات نساء دوس على ذي الخَلَصة** » . وذي الخَلَصة: صنم لدوس كانت تعبد في الجاهلية .

قال العلامة ابن القيم – رحمه الله – في قصة هدم اللات لما أسلمت ثقيف: فيه أنه لا يجوز إبقاء مواضع الشرك والطواغيت بعد القدرة على هدمها وإبطالها يومًا واحدًا، وكذا حكم المشاهد التي بنيت على القبور، والتي اتخذت أوثانًا تعبد من دون الله، والأحجار التي تقصد للتبرك والنذر، لا يجوز إبقاء شيء منها على وجه الأرض مع القدرة على إزالتها وكثير منها بمنزلة اللات والعزى ومناة، أو أعظم شركًا عند هاويها، فاتبع هؤلاء سنن من كان قبلهم ، وسلكوا سبيلهم حذو القذة بالقذة، وغلب الشرك على أكثر النفوس، لظهور الجهل وخفاء العلم، وصار المعروف منكرًا، والمنكر معروفًا، والسنة بدعة والبدعة سنة، وطمست الأعلام، واشتدت غربة الإسلام، وقل العلماء، وغلب السفهاء، وتفاقم الأمر واشتد البأس وظهر الفساد في البر والبحر بما كسبت أيدي الناس، ولكن لا تزال طائفة من العصابة المحمدية بالحق قائمين، ولأهل الشرك والبدع مجاهدين، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين . انتهى .

وقصة هدم اللات مشهورة في كتب الحديث والسير . قال السهيلي في شرح سيرة

ابن هشام: (فصل) وذكر - يعني ابن هشام - إسلام ثقيف وهدم طاغيتهم، وهي اللات، وأن المغيرة وأبا سفيان هما اللذان هدماها، وذكر بعض من ألف في السير أن المغيرة قال لأبي سفيان حين هدمها؛ ألا أضحكك من ثقيف، فقال: بلى، فأخذ المعول وضرب به اللات ضربة ثم صاح، وخر على وجهه، فارتجت الطائف بالصياح سروراً بأن اللات قد صرعت المغيرة، وأقبلوا يقولون : كيف رأيتها يا مغيرة، دونكها أن استطعت، ألم تعلم أنها تهلك من عاداها، ويحكم ألا ترون ما تصنع، فقام المغيرة يضحك منهم ويقول لهم: ياخبثاء، والله ما قصدت إلا الهزأ بكم، ثم أقبل على هدمها حتى استأصلها، وأقبلت عجائز ثقيف تبكي حولها وتقول: أسلمها الرضاع إذا كرهوا المصاع، أي أسلمها اللئام حين كرهوا القتال . انتهى .

قوله - ﷺ - : «وإنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي» . قال القاضي عياض: عد من تنبأ من زمان رسول الله - ﷺ- إلى الآن ممن اشتهر بذلك وعرفه واتبعه جماعة على ضلالة، فوجد هذا العدد فيهم، ومن طالع كتب الأخبار والتواريخ عرف صحة هذا .

وقوله: «وأنا خاتم النبيين» قال الحسن: الخاتم، الذي ختم به، يعني أنه آخر النبيين، كما قال تعالى: ﴿**ما كان محمد أبا أحد من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين**﴾ [الأحزاب: ٤٠]، وإنما عيسى ابن مريم آخر الزمان حاكمًا بشريعة محمد - صلى الله عليه وسلم - مصليًا إلى قبلته ، فهو كأحد أمته، بل هو أفضل هذه الأمة، قال النبي - ﷺ -: «**والذي نفسي بيده لينزلن فيكم ابن مريم حكمًا مقسطًا، فليكسرن الصليب ، وليقتلن الخنزير، وليضعن الجزية**» .

قوله: «لا تزال طائفة من أمتي على الحق منصورة لا يضرهم من خذلهم ولا من خالفهم» . قال يزيد بن هارون وأحمد بن حنبل: «إن لم يكونوا أهل الحديث، فلا أدري من هم؟» . قال ابن المبارك وعلي بن المديني، وأحمد بن سنان، والبخاري وغيرهم: «إنهم أهل الحديث» .

قال النووي: يجوز أن تكون الطائفة جماعة متعددة من أنواع المؤمنين ، ما بين شجاع وبصير بالحرب، وفقيه ومحدث ومفسر، وقائم بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وزاهد وعابد، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين في بلد واحد، بل يجوز اجتماعهم في قطر واحد، وافتراقهم في أقطار الأرض، ويجوز أن يجتمعوا في البلد الواحد، وأن يكون في بعض دون بعض منه، ويجوز إخلاء الأرض من بعضهم أولاً فأولاً، إلى أن لا يبقى إلا

فرقة واحدة ببلد واحد، فإذا انقرضوا جاء أمر الله. انتهى ملخصًا.

وعن علي بن المديني، أن الطائفة المذكورة في الحديث هم العرب، واستدل برواية من روى؛ هم أهل الغرب، وفسر الغرب بالدلو العظيمة؛ لأن العرب هم الذين يسقون بها.

قال جامع هذا الكتاب: يرحم الله علي بن المديني، فهو الحافظ الحجة، وفي كلامه نظر، فإن الغرب، وهي الدلو العظيمة، ليس خاصًا بالعرب، بل يستعمله الناس في كل مكان في الشرق والغرب، وقيل: إن المراد بالغرب هم أهل الشام؛ لأنهم في غرب المدينة، وهذا ضعيف أيضًا.

والحق أن هذا من الأمور التي لم يظهر معناها بعد، وسيظهر في المستقبل، إن صحت هذه الرواية، وفي هذا الحديث البشارة بأن الحق لا يزول زوالاً تامًّا، واحتج به الإمام أحمد على أن الاجتهاد لا ينقطع ما دامت هذه الطائفة موجودة.

أقول: صدق رحمه الله، فإن الطائفة التي شهد لها الرسول - ﷺ- أنها على الحق لا بد أن تكون عالمة بالحق تقيم عليه البرهان من كتاب الله وسنة رسوله والنظر العقلي الصحيح، ولا يجوز أن تكون هذه الطائفة مقلدة لسواد في بياض، تهرف بما لا تعرف، كما هو شأن المقلدين الذين يتصدرون للإفتاء والقضاء، وربقة التقليد في أعناقهم لا يعرفون دليلاً، ولا يهتدون سبيلاً، فالتقليد جهل كما قال ابن المعتز:

عرف العلماء فضلك بالعلم   وقال الجهال بالتقليد

يعني أن ممدوحه قد اتفق العلماء والجهال على فضله، أما العلماء فعرفوا فضله بالدليل، وأما الجهال فقلدوا العلماء في الشهادة له بالفضل.

● ● ●

بطلان الاحتجاج بهيئة مسجد الرسول ﷺ على صحة اتخاذ المساجد على القبور

اعلم أن كثيراً ممن زين لهم سوء عملهم، فاتخذوا المساجد على القبور وعصوا الرسول يعمدون إلى المغالطة والمؤاربة فيحتجون على جواز اتخاذ المساجد على القبور بكون الحجرة الشريفة التي دفن الرسول - صلى الله عليه وسلم - وصاحباه قد أدخلت في جانب المسجد في زمان بعض الصحابة والتابعين، ولم ينكر أحد ذلك فصار كالإجماع، وهذا الاحتجاج مردود من وجوه:

الأول: إذا سلمنا أن هذه الصورة التي صار إليها جانب مسجد النبي - ﷺ - ، هي ما نهى عنه الرسول - صلى الله عليه وسلم - وأجمعت الأمة على عدم جوازه، حسبما سبق في هذا الجزء، يكون هناك إجماعان متناقضان، أحدهما مبني على نصوص صحيحة صريحة لا تقبل التأويل، وقد صرح بمنعه علماء جميع الطوائف والمذاهب كما تقدم. والآخر إجماع سكوتي مبني على غير دليل، فأيهما أحق بالترجيح، الإجماع الذي صرح بمنطوقه الصحابة والتابعون وتابعوهم إلى يومنا هذا، أم الإجماع الذي لم يصرح بمنطوقه أحد، وليس له دليلاً أصلاً، لا شك أن الأول أرجح، وأن الثاني مبني على شفا جرف هار.

الثاني: أن الإجماع السكوتي ليس بحجة عند أكثر الأئمة، وقد بسط القول فيه علماء الأصول في كتبهم فراجعها، وهذا يبطل ما احتجوا به ويقضي عليه قضاءً تامًا .

الثالث: أن ادعاء الإجماع السكوتي هنا باطل؛ لأن كل من روى أحاديث النهي عن اتخاذ المساجد على القبور، وكل من حكم بكراهة الصلاة عندها يخالف في هذه المسألة خلافًا صريحًا، فبطل بذلك ادعاء الإجماع السكوتي .

الرابع: قد تقدم من الأئمة أن الذي أدخل حجرات أزواج النبي - ﷺ- ، ومنها حجرة عائشة التي تتضمن قبر النبي - ﷺ - إنما هو ملك غشوم، ليس أهلاً أن يقتدى به ولا كرامة، ولو لم يخالف نصًا ولا إجماعًا، فكيف وقد خالف النص الصحيح الصريح، فعمله هذا محرم ومخالف لسيرة الخلفاء الراشدين، فكيف يكون عمل مثل هذا الملك حجة على حديث الرسول - ﷺ -، ونصوص العلماء فتجعل أحاديث النبي - ﷺ - الصحيحة

الصريحة الواردة في هذا الباب كلها منسوخة بفعل ملك ظالم فاجر - قد ضللنا إذن وما نحن من المهتدين .

الخامس: لم يدخل الوليد بن عبد الملك حجرات أزواج النبي - ﷺ- وحجرة ابنته فاطمة عليها السلام، بقصد توسيع المسجد ابتغاء وجه الله واتباعًا لمرضاته، بل فعل ذلك بقصد سيئ شيطاني، وهو حب الغلو والفساد، فقد نقل صاحب إتمام الوفا بأخبار دار المصطفى، أن الوليد بن عبد الملك كان يخطب على منبر النبي - ﷺ -، فرأى الحسين بن الحسن بن علي بن أبي طالب - عليهم السلام - في بيت فاطمة ينظر في مرآة فأنف لذلك وغضب، أقول غضب من حقده وعداوته لأهل البيت عليهم السلام؛ لأنه رأى الحسين سبط النبي - صلى الله عليه وسلم - في بيت جدته عليها السلام المفتوح بابه إلى مسجد جده - صلوات الله عليه - فأصابه المقيم المقعد من الحسد؛ لأن أهل المسجد ولا شك أنهم كانوا كلهم يعتقدون أن الحسين أولى بذلك المنبر منه، وأنه - أي الوليد- مغتصب هو وأبوه وجده، وهم السفهاء والشياطين الذين وردت الإشارة إليهم في الأحاديث الصحيحة، وأنهم سفهاء الأحلام ينزون على منبر النبي - ﷺ-[1]، فيأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويستغلون الدين الحنيف لتمشية أغراضهم الخسيسة وملكهم المغتصب .

ثم نعود إلى معنى كلام صاحب إتمام الوفا، قال: فلما نزل الوليد بن عبد الملك من المنبر دعا عامله عمر بن عبد العزيز الأموي، ولم يكن في ذلك الوقت من الصلاح والتقوى كما كان حين تولى الخلافة، فأمره بهدم جميع الحجرات التي كانت حول مسجد النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وقال له: لا أرى شيئًا من هذه الحجرات يبقى هاهنا، فأهدمها وأدخلها في المسجد .

السادس: أن الصحابة والتابعون لم يرضوا بهذا العمل، ولا سكتوا عليه، فإن عمر ابن عبد العزيز حين أراد الإقدام على هذا العمل جاءه الإمام محمد بن شهاب الزهري فنهاه عن ذلك وأخبره أنه لا يرضى أهل المدينة بهذا العمل من علماء الصحابة والتابعين، فأبى عمر وقال له: أمر أمير المؤمنين لا بد من تنفيذه، ولم يقل له: إن هذا الأمر فيه إصلاح وخير وتقرب إلى الله ، فلما أبى عليه قال: إن كان ولا بد فاجعل حول الحجرة جؤجؤًا، أي بناءً مثلثًا حتى لا تمكن الجهال من الصلاة تجاه القبر، فقبل منه ذلك، وقد تقدمت الإشارة إليه، وكان من جملة حجرات أزواج النبي - ﷺ - حجرة حفصة بنت عمر زوج النبي - ﷺ - ، وكان يسكن فيها عبيد الله بن عمر، فلما أرادوا أن يهدموها امتنع من

---

(١) أخرج الحاكم في المستدرك بسنده إلى أبي هريرة قال: إن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال: «رأيت في منامي كأن بني الحكم بن العاص ينزون على منبري كما تنزو القردة» . فما رؤي النبي - صلى الله عليه وسلم- مستجمعًا ضاحكًا حتى مات . ثم قال: صحيح الإسناد على شرط مسلم

الخروج، وقال: والله، لا تهدمونها إلا على رأسي، فبقي فيها حتى أخذ العملة يهدمونها، فجاءه بنو عدي عشيرته وأخرجوه وقالوا له: أتراهم يتعففون عن قتلك، قال السمهودي: قال راوي هذا الحديث[١]: فما رأيت أكثر من ذلك اليوم باكيًا، يعني أن الناس بكوا بكاءً شديداً لهذا العدوان الجديد وانتهاك حرمات بيوت النبي -ﷺ- ، فكيف يقال: إن الصحابة والتابعين رضوا بهذا العمل وسكتوا عليه، ثم ينتقل ذلك إلى الاحتجاج بسكوتهم.

السابع: أن الوليد بن عبد الملك جلب البنائين المهرة والنقاشين والمزخرفين من بلاد الروم، وخالف سنة النبي - ﷺ - وسنة الخلفاء الراشدين، فزخرف المسجد النبوي ونمقه بالفسيفساء والذهب، وهو أول من زخرف المساجد في هذه الأمة، وسن هذه السنة السيئة[٢]، فعليه وزرها ووزر من عمل بها بعده .

عن ابن عباس قال: قال رسول الله - ﷺ - : «**ما أمرت بتشييد المساجد**» . قال ابن عباس لتزخرفنها كما زخرفت اليهود والنصارى. رواه أبو داود. وعن أنس أن النبي - ﷺ - قال: «**لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد**». رواه الخمسة إلا الترمذي. وقال البخاري: قال أبو سعيد: كان سقف المسجد من جريد النخل، فأمر عمر ببناء المسجد، وقال: أكن الناس من المطر وإياك أن يحمر أو يصفر فيفتتن الناس .

الثامن: أن الأصل الإسلامي العظيم الذي أجمع عليه المسلمون، ونطق به القرآن والحديث وجوب طاعة الرسول - ﷺ - بامتثال ما أمر به واجتناب ما نهى عنه، ولا ينسخ حديث الرسول - ﷺ - إلا بحديث مثله أو أصح منه مع معرفة تاريخ الحديثين .

وقد علمت أن الأحاديث كلها بخلاف ما زعمه أهل هذه الشبهة ناطقة يعضدها إجماع الأمة من الصحابة والتابعين ومن تبعهم بإحسان، وليس مع هؤلاء المدعين دليل أصلاً، لا صحيح ولا ضعيف.

وفي هذا القدر ما يكفي في دحض شبهتهم . والله الموفق .

●●●

---

(١) هو عطاء الخراساني. انظر: كتاب الرد على الأخنائي، ص (١٩٢) .

(٢) روي أن الوليد قال للقاسم بن محمد - بعد أن زخرف المسجد - : كيف ترى مسجدنا من مسجدكم - أي: قبل زخرفته له - فأجاب: كنا نبني كبناء المساجد فبنيتم كبناء الكنائس .

حكم التوسل بذوات الأشخاص

مجلة لواء الإسلام مجلة كثيرة الذيوع والانتشار فيما أعتقد، قد غزت كثيراً من البلاد الإسلامية، وأقبل عليها القراء إقبالاً مرموقًا، فكان من حق الإسلام عليها أن تجاري الوعي الديني الذي أخذ يستيقظ وتساير الحركة الفكرية التي طفقت تقوى وتشتد وتحتل مكان الجمهور الذي أصاب المسلمين في العصور الوسطى بسبب الجهل المطبق، واستبداد الحاكمين والتخلف الذي مس المسلمين في جميع مناحي حياتهم .

كان من حق الإسلام عليها أن تعمل على تجديد ما تهدم من صروحه الشوامخ التي خلفها السلف متينة البنيان، ثابتة الأركان، بدل أن تشكك المسلمين في أصول دينهم، وتردهم إلى الجاهلية التي أوشك المصلحون أن يخرجوهم من ظلماتهم إلى نور التوحيد، ووضح اليقين .

كان من حق المسلمين عليها أن تنبههم إلى الحق من أمر دينهم، وأن تدعوهم إلى الاعتصام بحبل الله، ونبذ التفرق والخلاف، فالمسلمون اليوم أحوج ما يكونون إلى جمع الكلمة وتوحيد الصفوف أمام عدوهم المشترك الذي يتربص بهم الدوائر، ويربض لهم بالمرصاد لينتقص بلادهم من أطرافها، بل ليغتالها اغتيالاً .

كان من حق المسلمين عليها ألا تفتح لهم باب الخلاف بعد أن أُغلق وطال أمد إغلاقه، وألا توقظ الفتنة بعد أن نامت وغطت في نومها، ورجونا أن يتصل نومها ويستمر إلى يقظة النشور .

دفعني إلى كتابة هذه الفصول، ذلك المقال الذي كتبه أستاذ نابه ذائع الصيت من أساتذة الجامعة في مجلة لواء الإسلام تحت عنوان (التوسل بالعمل الصالح) فبدأ بدءاً موفقًا أعجبت به كل الإعجاب، إذ شرح حديث ابن عمر في الصحيحين شرحًا قيمًا يضم بين جنباته كثيراً من الفوائد اللغوية والدينية، والخلقية والفقهية أيضًا .

ولو وقف عند حد شرح الحديث لقلت : إنه أجاد وأفاد، وبلغ المراد، وفوق المراد، ولكنه بعد أن فرغ من شرح الحديث ظن - وبعض الظن إثم - إنه يستطيع أن يحسم الخلاف القديم الذي كان يدور حول التوسل بذوات الأشخاص، والذي فترت حدته، وسكنت حركته بعد ارتقاء الوعي الديني وإقبال المسلمين على القرآن يتلون آياته،

ويتدبرونها، ويتفهمون روحه، ويدركون مراميه وأهدافه، فأضاف إلى شرحه القيم كلمة في التوسل، وعرض فيها للحديث عن توسل العامة وأشباههم ممن يتوسلون إلى الله تعالى بذوات الأشخاص، ودافع عن هذا التوسل دفاعًا أشهد الله أني أشفقت منه على أبنائنا من طلاب الجامعة، وخشيت أن ينزلقوا في هذه السبيل الخطرة طوعًا لهذا التوجيه، ونحن نتوسم فيهم الخير، ونعتز بهم، ونعدهم ذخراً لهذا الوطن الذي طالما نكب بأبنائه المنحرفين.

يقول السيد الأستاذ: بقيت كلمة تقال في التوسل، وهو موضوع خاض فيه العلماء قديمًا وحديثًا، فنهى عنه بعضهم، وجوزه بعضهم، والآن لنأت بكلمة في تحقيق المقام مستندين في ذلك إلى تحقيقات أئمة ثلاثة من علماء المسلمين، ثم ذكر الآلوسي، والكوثري، والشيخ سلامة العزامي .

وأقول: كنا ننتظر من الأستاذ الجامعي الذي نتوقع منه أن يوجه طلابه إلى بذل المجهود الشخصي في البحث والتحقق والتحري، أن يطلع علينا بتحقيقه الخاص الذي انتهى إليه بعد البحث في كتاب الله، وسنة رسوله يعرضه علينا مدعومًا بأدلته الخاصة، مؤيداً بالبراهين التي هداه إليها بحثه الدقيق وتفكيره العميق، واطلاعه الواسع، وإخلاصه للدين.

كنا ننتظر أن يستند إلى أقوال ثلاثة من الخلفاء الراشدين المهديين الذين أمرنا الرسول عليه الصلاة والسلام أن نعض على سنته وسننهم بالنواجذ .

كنا نتوقع أن يستند إلى أقوال ثلاثة من الصحابة غير الخلفاء الراشدين، وهم أعلم الناس بدين الله؛ لأنهم عاصروا الرسول وشافهوه، واقتبسوا من نور هدايته.

كنا ننتظر أن يستند إلى أقوال ثلاثة من التابعين أو من الأئمة المجتهدين الذين تلقت الأمة مذاهبهم بالقبول ثقة باجتهادهم وتحقيقهم الذي بلغوه بمجهودهم لا اعتماداً على غيرهم، ولا محاكاة لسواهم .

كنا نتوقع أن يعتمد السيد الأستاذ على تحقيق ثلاثة من علماء السلف الذين هم خير القرون بشهادة الرسول الأمين الذي أخبر أن الكذب سيفشو بعد انقراض هذه القرون .

ولكن الأستاذ الجليل يخبرنا أنه استند إلى تحقيقات ثلاثة سماهم أئمة، ولا أدري أنى لهم هذه الإمامة، ومن الذي خلعها عليهم، ومن الذي بايعهم بها من جماعة المسلمين؟ وهم من الخلف، وبعضهم من خلف الخلف الذين لا يصح الاحتجاج بقول أحد منهم في العقائد التي تتوقف عليها صحة الإيمان .

وتعميم الحكم على التوسل ليس من سمات العلماء المحققين، فإن التوسل نوعان :

أحدهما: توسل صحيح مجمع على جوازه، بل على طلبه، لم يختلف فيه أحد من المسلمين .

والآخر: هو التوسل الباطل الذي اختلف في شأنه الناس وما كان لهم أن يختلفوا لأن بطلانه ظاهر من نصوص كتاب الله العزيز الذي لا يأتيه الباطل من بين يدَيه ولا من خلفه وهو التوسل بذوات الأشخاص .

وحسب السيد الأستاذ أنه بالكلام في التوسل يحسم الخلاف، ويجمع المسلمين على الهدى، ولكنه بكلمته هذه فتح للخلاف بابًا واسعًا، وشق له طريقًا لاجبًّا، لأن الذين يحرصون على التوحيد وينكرون التوسل بذوات المخلوقين لا يسكتون عن الحق حين يستباح حماه، بل يذودون عن حياضه بكل ما أوتوا من قوة وأيْدٍ .

وإنها لوثبة جديدة من وثبات الحق يكثر بها أنصاره ويقل المنكرون له إن شاء الله، وبالله نتأيد .

قال السيد الأستاذ: **إن منكري التوسل محجوجون بالكتاب والسنة والعمل المتواتر والمعقول!!** .

وأقول: مما يؤخذ على السيد الأستاذ التعميم في قوله: منكري التوسل، فإن هناك توسلاً صحيحًا مأموراً به لم ينكره أحد، ولم يشك في طلبه مسلم، وهو التوسل إلى الله تعالى بصالح العمل؛ الذي يقول في شأنه رب العزة جل ثناؤه في الحديث القدسي: «ما تقرب إليَّ عبدي بشيء أحب إليَّ من أداء ما افترضته عليه» . والذي أوضحه السيد الأستاذ حين شرح حديث ابن عمر في الصحيحين .

وهناك طلب الدعاء من الأحياء الصالحين - إن جاز أن يُسمى توسلاً - وهو جائز لا ينكره أحد ولا يعارضه معارض .

بقي التوسل بذوات المخلوقين، وهو الذي كان لزامًا على السيد الأستاذ أن يقصر كلمته عليه فيقول: إن منكري التوسل بذوات المخلوقين محجوجون بالكتاب والسنة... لأن هذا التوسل الذي اختلف الناس فيه .

وسنعرض للحجج التي أوردها السيد الأستاذ، ونرسل عليها ضوءاً من الحق المنبعث من كتاب الله وسنة رسوله ليكشف ما فيها من زيف، ويبين مدى إثباتها لما سيقت لإثباته .

قال الأستاذ الفاضل: أما الكتاب فمنه قوله تعالى: ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾؛ والوسيلة بعمومها تشمل التوسل بالأشخاص والتوسل بالأعمال، بل المتبادر من التوسل في الشرع هو هذا وذاك .

وأقول: أما قول الأستاذ: أما الكتاب فمنه قوله: ﴿**وابتغوا إليه الوسيلة**﴾ فهو مغالطة واضحة؛ إذ صنيعه هذا يؤذن بأن في الكتاب الكريم نصوصًا أخرى تطوع لعبّاد الأشخاص أن يتوهموا من نصها جواز التوسل بهم كما توهموا من هذه الآية وليس في القرآن الكريم كله آية تنص على ابتغاء الوسيلة إلا هذه الآية .

بلى، من سورة الإسراء آية ذكرت الوسيلة ولكنها تنعي على من يدعون غير الله، وتذكرهم بأن هؤلاء الأشخاص الذين يدعونهم هم يبتغون الوسيلة إلى الله ويتنافسون في العمل الصالح الذي يقرب إليه، ويحرص كل منهم على أن يكون أقرب إليه من غيره، وهي قوله تعالى: ﴿**قل ادعوا الذين من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلا . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً**﴾ [الإسراء: ٥٦، ٥٧] .

ولا يمكن أن تشمل الوسيلة بعمومها التوسل بالأشخاص كما يقول الأستاذ، إذ لم يكن هذا أمراً معهوداً عند الرعيل الأول من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان .

ولذلك لم يقل أحد من مفسري السلف ولا من بعدهم ممن يعتد بقولهم، ولا من اللغويين الذين دونوا المعاجم اللغوية التي يرجع إليها في فهم معاني الكلمات الواردة في القرآن الكريم: إن كلمة الوسيلة في هذه الآية تشمل الوسيلة بالأشخاص .

وإلى القراء الكرام شذرات من أقوال أئمة اللغة وأعلام المفسرين في تفسير كلمة الوسيلة ليتبين لهم أن أحداً منهم لم يقل: إنها تشمل الوسيلة بالأشخاص .

جاء في لسان العرب: الوسيلة القربة، ووسل فلان إلى الله وسيلة إذا عمل عملاً تقرب به إليه، وتوسل إليه إذا تقرب إليه بعمل .

وقال الفيروزآبادي في القاموس المحيط: ووسل إلى الله توسيلاً عمل عملاً تقرب به إليه كتوسل .

وقال الراغب في مفردات القرآن: حقيقة الوسيلة إلى الله مراعاة سبيله بالعلم والعبادة، وتحري أحكام الشريعة .

وفي المصباح المنير: وتوسل إلى ربه بوسيلة تقرب إليه بعمل .

وفي أساس البلاغة للزمخشري: توسلت إلى الله بعمل تقربت .

وفي مختار الصحاح: وسل إليه وسيلة، إذا تقرب إليه بعمل .

وفي المنجد: وسل وتوسل إلى الله، عمل عملاً تقرب به إليه .

هذه أقوال اللغويين، ولم يقل أحد منهم - كما رأيت - إن الوسيلة تشمل التقرب إلى الله بذوات الأشخاص .

*** وإليك أقوال أساطين المفسرين:**

قال ابن جرير الطبري: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ : يعني جل ثناؤه يا أيها الذين صدقوا الله ورسوله فيما أخبرهم ووعدهم من الثواب وأوعد من العقاب ﴿ **اتقوا الله** ﴾ يقول: أجيبوا الله فيما أمركم ونهاكم من الطاعة له في ذلك، وحققوا إيمانكم وتصديقكم ربكم ونبيكم بالصالح من أعمالكم ﴿ **وابتغوا إليه الوسيلة** ﴾ يقول: واطلبوا القربة إليه بما يرضيه والوسيلة هي الفعيلة من قول القائل : توسلت إلى فلان بمعنى تقربت إليه .ومنه قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

يعني بالوسيلة القربة .

ومنه قول الآخر:

إذا غفل الواشون عدنا لوصلها وعاد التصافي بيننا والوسائل

وبنحو الذي قلنا في ذلك قال أهل التأويل. ثم روى بعد ذلك عن عطاء أنها القربة، وعن مجاهد: وابتغوا إليه الوسيلة أي تقربوا إليه بطاعته والعمل بما يرضيه. اهـ .

هذا قول ابن جرير من مفسري السلف، فهل ذكر أن الوسيلة تتناول بعمومها التوسل بذاوات الأشخاص؟

وقال البيضاوي في تفسير الآية المذكورة: الوسيلة ما يتوسلون به إلى ثوابه والزلفى منه من فعل الطاعات وترك المعاصي .

ولم يذكر أن الوسيلة تتناول بعمومها التوسل بذوات الأشخاص .

وقال النسفي: الوسيلة هي كل ما يتوسل به أي يتقرب من قرابة أو صنيعة فاستعيرت لما يتوسل به إلى الله من فعل الطاعات وترك السيئات .

وقال أبو السعود: هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله تعالى من فعل الطاعات وترك المعاصي .

وجاء في تفسير الجلالين: الوسيلة ما يقربكم إليه من طاعته .

وقال الآلوسي -وهو من الأئمة الذين اعتمد الأستاذ على تحقيقاتهم-: (الوسيلة):

هي فعيلة بمعنى ما يتوسل به ويتقرب إلى الله عز وجل من فعل الطاعات وترك المعاصي من وسل إلى كذا أي تقرب إليه بشيء. . . ولعل المراد بها الاتقاء المأمور به كما يشير إليه كلام قتادة، فإنه ملاك الأمر كله والذريعة لكل خير، والنجاة من كل ضير. والجملة حينئذٍ جارية مجرى البيان والتأكيد، وقيل: الجملة الأولى أمر بترك المعاصي، والثانية أمر بفعل الطاعات.

وأخرج ابن الأنباري وغيره عن ابن عباس - رضي الله عنه - أن الوسيلة: الحاجة، وأنشد قول عنترة:

إن الرجال لهم إليك وسيلة إن يأخذوك تكحلي وتخضبي

وكأن المعنى حينئذٍ: اطلبوا متوجهين إليه حاجتكم فإن بيده عز شأنه مقاليد السموات والأرض، ولا تطلبوها متوجهين إلى غيره فتكونوا كضعيف عاذ بقرملة.

هذا ما قاله الآلوسي الذي اعتمد الأستاذ على تحقيقاته، فهل في هذا الكلام ما يشعر بجواز التوسل بذوات الأشخاص؟ هل يفهم من كلامه تصريحًا أو تلميحًا أنه يقول بجواز التوسل بالأشخاص؟ وقد حقق الآلوسي معنى التوسل فلم يقل: إنه يشمل بعمومية التوسل بذوات الأشخاص، وقد اعتمد الأستاذ على تحقيقه، فلِمَ لم يقف عند ما وقف عنده الآلوسي من القول الحق؟ ولم ينصرف عن القول الحق الذي حققه الآلوسي إلى الباطل الذي لا دليل عليه؟

وقال الآلوسي - بعد ما تقدم - : واستدل بعض الناس بهذه الآية على مشروعية الاستغاثة بالصالحين وجعلهم وسيلة بين الله تعالى، وبين العباد، والقسم على الله تعالى بهم بأن يقال: اللهم إنا نقسم عليك بفلان أن تعطينا كذا، ومنهم من يقول للغائب أو الميت من عباد الله الصالحين: يا فلان، ادع الله ليرزقني كذا وكذا، ويزعمون أن ذلك من باب ابتغاء الوسيلة، ويروون عن النبي - ﷺ - أنه قال: إذا أعيتكم الأمور فعليكم بأهل القبور أو فاستعينوا بأهل القبور، **وكل هذا بعيد عن الحق بمراحل.**

هذا ما يقوله الآلوسي الذي اعتمد السيد الأستاذ على تحقيقه وهو كما ترى لا يجيز التوسل بذوات الأشخاص، بل ينعي على من يقول به في شدة وعنف، بل لقد قال بعد ذلك ما هو أصرح وأدل على النهي عن التوسل بذوات الأشخاص، وإليك عباراته بحروفها: (وقد نهى النبي - ﷺ - عن اتخاذ القبور مساجد، ولعن على ذلك فكيف يتصور منه - ﷺ - الأمر بالاستغاثة والطلب من أصحابها؟ سبحانك! هذا بهتان عظيم. وعن أبي يزيد البسطامي أنه قال: استغاثة المخلوق بالمخلوق كاستغاثة المسجون بالمسجون،

ومن كلام السجاد - رضي الله عنه - : إن طلب المحتاج من المحتاج سفه في رأيه، وضلة في عقله. ومن دعاء موسى - عليه السلام - : وبك المستغاث. وقال - ﷺ - : إذا استعنت فاستعن بالله.

هذا أيضًا كلام الآلوسي الذي هو أحد أئمة السيد الأستاذ الذين اعتمد على تحقيقهم فأين ما يفيد إنه يجيز التوسل بذوات المخلوقين؟

ثم قال السيد الأستاذ: أما شمول الوسيلة في الآية المذكورة للتوسل بالأشخاص فليس برأي مجرد، ولا هو مأخوذ من العموم اللغوي فحسب بل هو المأثور عن عمر الفاروق - رضي الله عنه - فقال: اللهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا - ﷺ- فتسقينا، وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا فيسقون . ثم قال عمر: هذا والله الوسيلة إلى الله عز وجل. كما في الاستيعاب لابن عبد البر .

وأقول: أما حديث الاستسقاء فهو صحيح، وليس فيه أن المسلمين كانوا يستسقون بذات النبي - ﷺ - وشخصه، بل كانوا يستسقون بدعائه وليس فيه أن عمر عليه الرضوان استسقى بذات العباس وشخصه، بل استسقى بدعائه .

كيف كان المسلمون يتوسلون برسول الله - ﷺ - فيسقيهم الله؟

تجد الجواب فيما رواه البخاري من حديث أنس بن مالك أن رجلاً دخل المسجد يوم جمعة من باب كان نحو دار القضاء ورسول الله - ﷺ - قائم يخطب، فاستقبل رسول الله - ﷺ - قائمًا، ثم قال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يغثنا، فرفع رسول الله - ﷺ - يديه، ثم قال: «اللهم أغثنا، اللهم أغثنا». قال أنس: ولا والله ما نرى في السماء من سحاب ولا قزعة، وما بيننا وبين سلع من بيت ولا دار، قال: فطلعت من ورائه سحابة مثل الترس فلما توسطت السماء انتشرت ثم أمطرت، فلا والله ما رأينا الشمس ستًّا. ثم دخل رجل من ذلك الباب في الجمعة ورسول الله قائم يخطب فاستقبله قائمًا، فقال: يا رسول الله، هلكت الأموال وانقطعت السبل فادع الله يمسكها عنا. قال: فرفع رسول الله - ﷺ - يديه ثم قال: «اللهم حوالينا ولا علينا، اللهم على الآكام والظراب وبطون الأودية ومنابت الشجر» . قال: فأقلعت، وخرجنا نمشي في الشمس .

فهذا الرجل الذي أجدبت أرضه جاء يتوسل برسول الله - ﷺ - ليسقيه الله، فهل قال: اللهم بجاه النبي - ﷺ - أو بحق النبي أو بالنبي اسقنا؟ كلا، ولكنه سأل الرسول أن يدعو الله تعالى ليغيثه. إذ قال: فادع الله يغثنا .

هذا هو توسل المسلمين، وهذا هو استسقاؤهم برسول الله - ﷺ .

وكذلك كان استسقاء عمر برسول الله -ﷺ-، ولو كان استقساء عمر عليه الرضوان بذات العباس وشخصه لما ابتغى برسول الله - ﷺ- بديلاً .

لقد كانوا بالمدينة المنورة، وكانوا يرتادون مسجد الرسول - ﷺ - ، وكان قبره بين أيديهم، فلو كانوا يرون التوسل بذوات الأشخاص جائزًا ما رضوا بذات الرسول - ﷺ - بديلاً، ولا استعاضوا عنه بأحد ولتوسلوا به - ﷺ - على الرغم من انتقاله إلى الرفيق الأعلى، فإن كان جسده الشريف قد مات، فإن روحه لم تمت، بل ارتقى إلى حظيرة القدس وموضع القرب ومقعد الصدق، ومكان الرضوان، ودار الكرامة .

الحق أنه ما منع عمر - عليه الرضوان - أن يتوسل بذات الرسول - ﷺ - بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى إلا علمه أن التوسل بذوات الأشخاص لا يجوز ولا يبيحه الشرع ولم ينزل بشأنه قرآن يتلى، ولم تأت به سنة تؤثر ولم يعمل به أحد من صحابة الرسول الكريم - ﷺ - .

لقد بينت السنة العملية توسل عمر - عليه الرضوان - بالعباس - رضي الله عنه، وذلك أنهم بعد أن فقدوا الرسول - ﷺ - ، فلم يقدروا على أن يطلبوا منه الدعاء بالسقيا . كانوا يلجئون إلى العباس؛ لأنه أمسهم رحمًا برسول الله - ﷺ - مع صدق الإيمان والتقوى، ويطلبون إليه أن يدعو لهم بالسقيا فيدعو فيستجيب الله دعاءه ويسقيهم .

قال الحافظ في الفتح : وقد بين الزبير بن بكار صفة ما دعا به العباس في هذه الواقعة، والوقت الذي وقع فيه ذلك، فأخرج بإسناد له «أن العباس لما استسقى به عمر قال : اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من نبيك؛ وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة، فاسقنا الغيث، فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس» اهـ .

فعبارة العباس - عليه الرضوان - : «وقد توجه بي القوم إليك لمكاني من رسول الله - ﷺ - » صريحة في أنهم طلبوا منه الدعاء لهم لمكانه من رسول الله - ﷺ - . ولو أنهم كانوا يتوسلون بشخصه، لما كان في حاجة إلى أن يأتي إليهم ويدعو لهم، ولكانوا يكتفون بتوسلهم به، ولو لم يعلم بذلك ولكن صنيعهم هذا يؤذن أنهم ما كانوا يتوسلون إلا بدعائه وهو أمر مشروع لا تثريب على فاعله .

وقد أجاب - رضي الله عنه - سؤلهم ودعا لهم هذه الدعوة الصالحة التي استجاب الله لها وسقاهم غيثًا غدقًا .

نخلص مما تقدم إلى أن عمل عمر - عليه الرضوان - من طلب الدعاء من العباس -

رضي الله عنه – ليس دليلاً على شمول الوسيلة للتوسل بالأشخاص، بل هو أبعد ما يكون عن ذلك، وليس فيه إلا الدليل على التوسل بدعاء الأشخاص، وهو أمر لا جناح على من يفعله، ولم ينازع أحد في جوازه .

وقد تبين لنا مما سبق أن الكتاب الكريم ليس فيه نص يبيح التوسل بذوات الأشخاص، كما يقول السيد الأستاذ، بل إن الكتاب العزيز يحارب هذه النزعة، نزعة التعلق بالأشخاص بغير هوادة، ويدعو إلى إخلاص الدين لله تعالى وحده. فيقول: ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء** ﴾ ، ويقول: ﴿ **ألا لله الدين الخالص** ﴾ ، ويقول: ﴿ **أليس الله بكافٍ عبده** ﴾ .

وتكاد السور المكية كلها تكون دعوة صريحة إلى نبذ التعليق بالأشخاص، أو دعاء الأشخاص، وقد نعى سبحانه على الذين اتخذوا من دون الله أولياء، قولهم: ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ .

ثم قال الأستاذ الجليل : وأما السنة: فمنها حديث عثمان بن حنيف – رضي الله عنه– : « أن رجلاً ضرير البصر أتى النبي – ﷺ – فقال: ادعو الله تعالى أن يعافيني فقال: إن شئت دعوت، وإن شئت صبرت فهو خير لك، قال: فادعه، فأمره أن يتوضأ فيحسن الوضوء، ويدعو بهذا الدعاء: اللهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد – ﷺ – نبي الرحمة، يا رسول الله: إني أتوجه بك إلى ربي في حاجتي هذه لتقضى، اللهم فشفعه في » .

وأقول: إن هذا الحديث ضعيف لا يحتج به في العقائد .

في سند هذا الحديث أبو جعفر، وقد قال فيه أحمد والنسائي: ليس بالقوي، وقال ابن المديني : كان يخلط. وقال ابن حبان: ينفرد بالمناكير عن المشاهير، وقال أبو زرعة: يهم كثيراً، وكيف يحتج في العقائد بحديث يرويه راوٍ ليس بالقوي، يخلط ويهم كثيراً. وينفرد بالمناكير عن المشاهير .

ولو أنَّا صرفنا النظر عن السند وما فيه . ونظرنا إلى المتن لوجدنا فيه اضطرابًا شديداً وخلطًا غريبًا، إذ بينا ترى الحديث ينسب إلى النبي – ﷺ – أنه يأمر الرجل بأن يناجي ربه ويسأله ويتوجه إليه، نراه من جهة أخرى ينسب إليه أنه يأمره أن يخاطبه هو ويدعوه هو بقوله: يا محمد، وقد ذكر علماء هذا الشأن أن من علامات وضع الحديث أن يكون معارضًا للقرآن الكريم ومناقضًا لنصوصه، وفي هذا الحديث من المناقضة للقرآن الكريم والمعارضة لنصوصه ما يحمل على القطع بوضعه، فإن القرآن الكريم يدعو إلى إفراد الله

تعالى بالدعاء. ويقول: ﴿ **فلا تدعو مع الله أحداً** ﴾ ، ويقول: ﴿ **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذا من الظالمين** ﴾ .

ويقول: ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون** ﴾ [الأحقاف: ٥] .

ويقول: ﴿ **له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه** ﴾ [الرعد: ١٤] .

ثم من هذا الضرير الذي جعله الله مظهراً لهذه الآية الكبرى؟

رجل يأتي إلى النبي - ﷺ - قد ذهب بصره ويسأله الدعاء ويأمره النبي أن يتوضأ ويصلي ركعتين ويدعو الله بدعاء يعلمه إياه فيرتد بصيراً ثم يظل نكرة لا يعرفه أحد ويبقى اسمه مجهولاً عند المسلمين كافة وهم لا يزالون يتحدثون برد عين قتادة وشفاء عين علي، فما لهم لا يذكرون هذا الذي أبصر بعد العمى. وعاد إليه بصره بعد أن كان يتخبط في الظلمات؛ لعمر الحق أن هذه الواقعة لو كانت صحيحة ما لبث هذا الصحابي الجليل الذي أكرمه الله بدعاء النبي - ﷺ - ورد إليه نعمة البصر، نكرة ضائعًا في طي الخفاء ولأصبح من الصحابة المذكورين الذين يجري اسمهم على كل لسان، ويهتف به كل فم، ويتردد على كل شفة.

وبعد: فلو سلمنا جدلاً أن هذا الحديث صحيح سنداً ومتنًا، بعد استبعاد ما يناقض القرآن لرأينا أنه بنجوة عن إباحة التوسل بذوات الأشخاص، فإن الرجل ما جاء إلى النبي - ﷺ - إلا ليدعو له وقد خيره الرسول ، فأبى إلا الدعاء، وقد أمره الرسول أن يدعو الله أن يستجيب شفاعة النبي - ﷺ - . فالأمر لم يخرج عن حدود طلب الدعاء من النبي - ﷺ - ، وطلب الاستجابة من الله تعالى، وهذا أمر لا شك في جوازه، بل في طلب المنافسة فيه .

● الاحتجاج بالأحلام:

ثم قال الأستاذ الجليل: (ومنها ما أخرجه البيهقي وبطريقه أخرجه التقي السبكي في شفاء السِّقام وغيره من حديث مالك الدار في استسقاء بلال بن الحارث المزني - رضي الله عنه - في عهد عمر بالنبي - ﷺ - ونص الحديث: «أصاب الناس قحط في زمان عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فجاء رجل إلى قبر النبي - ﷺ - فقال: يا رسول الله ، استسق لأمتك، فإنهم قد هلكوا، فأتاه رسول الله في المنام، فقال: ائت عمر فاقرئه السلام، وأخبره أنهم يسقون») .

وأقول:

أولاً: إن إدخال هذا الخبر في باب السنة المأثورة عن النبي - ﷺ - قولاً أو فعلاً أو إقراراً - مما يجافي الحق، ولا يستقيم معه ميزان الأمور، وإيراده بهذه الطريقة يوهم أنه من سنة الرسول - ﷺ - التي هي أحد مصادر التشريع، ويجر المطلعين عليه إلى الخطأ في الاستدلال إذ يتوهمون أنه من الأدلة الشرعية ذات الاعتبار في الاستدلال وينخدع به من لا علم له بالسنة حتى يحسب الباطل حقًا، وليس من شرعة الإنصاف ولا من شيم العلماء المحققين أن يؤيدوا دعواهم بالوهم الباطل والقول الخادع .

ثانيًا: لم يعلم الرسول - ﷺ - أمته فيما علمهم في حياته أن يأتوا قبره بعد التحاقه بالرفيق الأعلى فيطلبوا منه ما كانوا يطلبون في حياته، فمن أباح لهذا الرجل أن يفعل ما فعل، أو يقول ما قال؟

ثالثًا: وإذا كان الرسول - ﷺ - لم يأمر بما فعل الرجل، ولم يقره، فكيف يكون سنة؟ وكيف يكون حجة؟ وكيف يستدل به على إثبات أمر من الأمور التي تتصل بالعقائد؟

رابعًا: في أية آية من كتاب الله تعالى، وفي أي حديث من سُنة رسول الله - ﷺ - وجدتم الأحلام من الأدلة الشرعية التي تثبت بها الأحكام، وبخاصة ما يتصل منها بالعقائد؟

لقد كانت الرؤيا وحيًا للنبي - ﷺ - مدة ستة أشهر في بدء رسالته، وكانت كذلك وحيًا لبعض الأنبياء قبله، ولكنها ليست وحيًا لأحد من أمته - ﷺ - إذ هو خاتم النبيين ولا نبي بعده. فكيف يزعم زاعم أو يزعم له غيره أن حلمه مصدر من مصادر التشريع الإسلامي؟

وأي تشريع؟ التشريع الذي يتحكم في عقائد الناس المتصلة بالتوحيد الذي هو صميم الإيمان؟

خامسًا: وهل أتى الرجل عمر وأخبره بما كان منه من إتيان قبر النبي - ﷺ - وطلبه من النبي أن يستسقي لأمته، وهل أقره عمر على ما كان منه مما لم يأمر به الرسول الأمين ولم يقره .

ولا أدري كيف يبيح الأستاذ لنفسه أن يصدر الأحكام الشرعية بكل هذا اليسر وبكل هذه السهولة، وبغير أي تحقيق معتمداً على تحقيق غيره، في حين أن أحد المحققين الذي اعتمد على تحقيقهم قد خالفه وحكم بغير ما حكم؟

ثم قال السيد الأستاذ: «ومحل الاستشهاد طلب الاستسقاء منه - ﷺ - وهو في

البرزخ ودعاؤه لربه، وعلمه بسؤال من يسأله . ولم ينكر صنيعه هذا أحد من الصحابة» .

وأقول: أما طلب الاستسقاء منه - ﷺ - وهو في البرزخ فهو مما لم يرد على جوازه دليل من كتاب الله، ولا من الصحيح من سنة رسوله، وعمل الصحابي المخالف للكتاب والسنة ليس حجة في دين الله، على أن هذا الخبر ليس فيه ما يثبت أن الرجل الذي أتى القبر صحابي؟

ولو كان إتيان القبر والطلب من الرسول بعد التحاقه بالرفيق الأعلى جائزاً لما خفي على عمر عليه الرضوان، ولما عدل عنه إلى العباس - رضي الله عنه - يستسقى بدعائه؟

وأما دعاء النبي - ﷺ - ربه وهو في البرزخ فليس في هذا الأثر ما يدل على حصوله، وليس في نصوص الشرع من الكتاب والسنة ما يدل عليه أو يؤيده، والدعاء عبادة، والعبادة إنما تكون في دار التكليف، ولا تكليف في البرزخ، إذ البرزخ ليس مكان عبادة. وهل علمنا من طريق مقطوع بصحته أن النبي - ﷺ - دعا ربه وهو في البرزخ؟ وأين هذا الطريق؟

وأما علمه - ﷺ - بسؤال من يسأله وهو في البرزخ ، فليس في الكتاب ولا في السنة ما يثبته، بل نصوص السنة تدل على نقيضه. ومن ذلك ما ورد في الحديث الصحيح الذي رواه مسلم عن عدة طرق، وفيه: «فيقال: إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك. فأقول: سحقًا» . وقد رواه البخاري أيضًا من عدة طرق كذلك، ومنها: «إنك لا علم لك بما أحدثوا بعدك» .

فهذا النص قاطع في إثبات أن الرسول - ﷺ - لا يعلم ما تحدث أمته من بعده. وسؤال السائلين له وهو في البرزخ مما أحدثت الأمة من بعده فلا علم له به بدليل الحديث الصحيح السابق .

وإن احتج محتج بحديث عرض الأعمال، فالرد عليه أن حديث عرض الأعمال مرسل، والمرسل من أنواع الضعيف، فلا يصح الاحتجاج به في العقائد .

أما أن الصحابة لم ينكروا هذا الصنيع - لو صح أنه حدث - فما أدرانا أن الرجل فعل ما فعل، إذ قال ما قال بمشهد أحد من الصحابة، وما أدرانا أن أحدًا من الصحابة رآه فلم ينكر عليه، كل هذه دعاوى تحتاج إلى بينات تثبتها، وحجج تؤيدها. ولا حجة هناك ولا برهان .

الأمر يا سيدي الأستاذ جد؛ فلا يصح الاحتجاج عليه بالهزل .

الأمر حق؛ فلا تجوز مناهضته بالباطل .

إن فرط حبنا لرسول الله - ﷺ - خليق بأن يحملنا على طاعته، والوقوف عند أمره ونهيه، ولا ينبغي أن يحملنا على الغلو في أمره بما لا يدل عليه دليل ولا تثبته حجة .

وأنَّى لصاحب الفتوح أن يعلم أن الذي رأى المنام هو بلال بن الحارث المزني .

فإن أصل الخبر جاء رجل وليس فيه بلال، فكيف أثبت أنه بلال، وما دليله على ذلك ؟

لو أن السيد الأستاذ حقق الأمر بنفسه لاستغنى عن تحقيقات غيره، ولوصل إلى الحق من أقرب طريق .

إلى هنا تبين لكل من يحترم نعمة العقل التي أنعم الله بها عليه أن ما أورده السيد الأستاذ من الكتاب والسنة وحاول الاستدلال به على جواز التوسل بذوات المخلوقين لا ينهض حجة ولا يقوم دليلاً، وليس فيه ما يثبت جواز التوسل بذوات الأشخاص. فلننتقل إلى حجج الأستاذ الأخرى .

قال السيد الأستاذ: (**وأما من جهة المعقول، فإن أمثال الإمام فخر الدين الرازي، والعلامة سعد الدين التفتازاني، والعلامة السيد الشريف الجرجاني**، وغيرهم من كبار أئمة أصول الدين الذين يفزع إليهم في حل المشكلات في أصول الديانة قد صرحوا بجواز التوسل بالأنبياء والصالحين أحياءً وأمواتًا، وأي صفيق يستطيع أن يرميهم بعبادة القبور والدعوة إلى الشرك بالله) .

وأقول: حين عمد الأستاذ الكبير إلى الاستدلال بالمعقول كنت أتوقع أن يقيم برهانًا عقليًا من منطقه وبحثه وتحقيقه، ولكنه لم يفعل من هذا شيئًا، بل عمد إلى ذكر ثلاثة آخرين نقل عنهم أنهم صرحوا بجواز التوسل بالأنبياء والصالحين أحياءً وأمواتًا، وهل النقل عن العلماء يعتبر برهانًا عقليًّا؟ أو حجة منطقية تثبت الدعوى؟

وهؤلاء الثلاثة الآخرون ليسوا أحق بالاتباع من الثلاثة الأولين. وليس في أقوالهم حجة ولا شبه حجة، ولا قول لأحد في العقائد والعبادات إلا لله ولرسوله، وأين الدليل العقلي الذي أقامه السيد الأستاذ؟ وأين الدليل العقلي الذي أقامه أولئك الثلاثة المختارون؟

والصفقاء يا سيدي الأستاذ لا يرمونهم بعبادة القبور ولا بالدعوة إلى الشرك بالله؛ لأنهم مثلهم في الجرأة على الله، وإباحة ما لم يبحه الله، والقول على الله بغير علم .

أما غير الصفقاء، فهم الذين يستطيعون أن يقولوا: إن الذين يقفون خاضعين خاشعين أمام القبور يطلبون في ذلة وضراعة ممن انضمت عليهم جوانحها - مما لا يقدر عليه إلا الله يعبدون القبور بغير شك، ولا يكابر في ذلك إلا من سفه نفسه وأنكر عقله،

وهم مشركون، وهم داعون إلى الشرك إن دعوا غيرهم، إلى أن يأخذ أخذهم ويسلك سبيلهم .

وهل كان عبَّاد الأوثان يفعلون غير هذا؟

وصدق الفاروق - رضي الله عنه - إذ يقول: يوشك أن يهدم الإسلام حجرًا حجرًا من جهل عادات الجاهلية .

وليس في الدين مشكلات يُفزَع إلى الناس في حلها، لأن الله يسر القرآن للذكر وجعله آيات بينات وأنزله كتابًا عربيًّا مبينًا، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، والحلال بيّن والحرام بيّن، والمشبهات محلولة بطبعها ، فقد نهينا عنها جملة فلا إشكال ولا إبهام ..

● المدد :

ثم قال السيد الأستاذ: **(والمدد كله عند الجميع من مسبب الأسباب جل جلاله).**

وأقول: ما دمت ترى أن الجميع يرون المدد من مسبب الأسباب، فلماذا تحاول أن تدعو الناس إلى غيره، وإلى الاستمداد من سواه!! .

وإذا رأيت سائلاً استجدى كريمًا فأعطاه ، أفليس أكرم وأجمل أن يعمد طالب الحاجة إلى الغني الكريم الذي أعطى بدل أن يسأل السائل المستجدي؟

أليس من الخير أن ندعو إلى إسلام الوجه إلى الله، والانصراف عما عداه، لأنه بيده سبحانه خزائن السموات والأرض، ومن وفقه إلى دعائه فقد أعطاه مفاتيح هذه الخزائن .

ومتى أخبرنا الله أنه لا يستجيب دعاءنا إلا إذا أتينا بوسيط أو تقدمنا إليه بذات شخص من خلقه، جعلنا ذاته وسيلة إليه، أو أقسمنا به عليه، والإسلام قد طوح بالوسطاء وخلص بين العبد وربه . قال تعالى: **﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم﴾** [فاطر: ٦٠]، ولم يقل إن دعوتموني فوسطوا بيني وبينكم عبادي المخلوقين، أو توسلوا إليّ بذوات الأشخاص الصالحين لكي أستجيب دعاءكم .

ويقول سبحانه: **﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾** [البقرة: ١٨٦] .

فبين سبحانه أن الرشد واستجابة الدعاء موقوفان على الإيمان بالله تعالى والاستجابة له. فمن استجاب لدعوة الحق وآمن بالله تعالى وعمل الصالحات، فإن الله تعالى يستجيب له ، وإنما يتقبل الله من المتقين .

● ماذا قال الرازي؟

ثم قال السيد الأستاذ: (**قال الرازي في تفسيره: إن الأرواح البشرية الخالية عن العلائق الجسمانية المشتاقة إلى الاتصال بالعالم العلوي بعد خروجها من ظلمة الأجساد تذهب إلى عالم الملائكة ومنازل القدس وتظهر منها آثار في أحوال هذا العالم...**).

وأقول للإمام الرازي وللسيد الأستاذ الناقل لكلامه: الأرواح من عالم الغيب، والغيب لله وحده. فمن أدراكما أن الأرواح تذهب إلى عالم الملائكة؟

في أية آية من كتاب الله؟ وفي أي حديث من سنة رسول الله - ﷺ - وجدتما هذا الحكم؟ ومن أنبأكما أن لها آثاراً تظهر في أحوال هذا العالم؟

أوجدتما ذلك في كتاب الله أم في سنة رسول الله؟

أتعلمتاه من الخلفاء الراشدين المهديين؟

هل لمستما هذه الآثار بأيديكما، أم هل وقفتما عليها بأنفسكما؟

نبئاني بعلم إن كنتما صادقين.

لا يا سادتي، ليس لهذه الأرواح آثار تظهر في أحوال هذا العالم، لأن ابن آدم المكون من الروح والجسد إذا مات وفارقت روحه جسده انقطع عمله بشهادة الرسول الصادق الأمين، فلم يبق لجسده ولا لروحه عمل، وإذاً لم يبق له آثار تظهر في أحوال هذا العالم.

ورسول الله - ﷺ - أحق بالاتباع من الذين يقولون على الله ما لا يعلمون في الحق بعد ما تبين بغير هدًى ولا كتاب منير.

هذه المقالة أشبه بما كان يعتقده المصريون القدامى في جاهليتهم؛ إذ كانوا يزعمون أن ملوكهم إذا ماتوا صعدت أرواحهم إلى السماء وصارت آلهة وأنصاف آلهة وتصرفت في هذا الكون كما تحب وتهوى.

ثم قال السيد الأستاذ: (**وقال الرازي أيضاً في المطالب العالية في الفصل الثامن عشر: للكلام مقدمتان:**

المقدمة الأولى: أنا قد دللنا على أن النفوس البشرية باقية بعد موت الأبدان من بعض الوجوه، أما أن النفوس المفارقة أقوى من هذه النفوس المتعلقة بالأبدان من بعض الوجوه، وهذه النفوس أقوى من تلك من بعض الوجوه، فهو أن تلك النفوس لما فارقت أبدانها فقد زال الغطاء، وانكشف لها عالم الغيب وأسرار منازل الآخرة، وصارت العلوم التي كانت برهانية عند التعلق بالأبدان ضرورية بعد مفارقة الأبدان، لأن النفوس في الأبدان كانت في

غشاء وغطاء، ولما زال البدن أشرقت تلك النفوس وتجلت وتلألأت ، فحصل للنفوس المفارقة عن الأبدان بهذا الطريق نوع من الكمال) .

وأقول: إن الرازي وهو من كبار أئمة الدين الذين يفزع إليهم في حل المشكلات في أصول الديانة - على حد تعبير الأستاذ - ما كان له أن يغفل عن أيسر قواعد الإمامة، ويخيب آمال الذين يفزعون إلى علمه في حل المشكلات في أصول الديانة ، فإن هذا الحكم العام الذي حكم به على النفوس البشرية المفارقة للأبدان غير صحيح، إذ لا يمكن أن تكون نفوس المؤمنين كنفوس الكافرين، وهو لم يخصص فريقًا من النفوس، بل حكم على النفوس جميعًا. والله تعالى يقول: ﴿**أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين في الأرض أم نجعل المتقين كالفجار**﴾ [ص: ٢٩]. ومن أصدق من الله حديثًا؟ .

يترتب على هذا التعميم الذي يقول به الرازي: أنه لا فرق بين النفوس المؤمنة والنفوس الكافرة، فهي كلها في نظره بعد مفارقة البدن تشرق وتتجلى وتتلألأ ويحصل لها نوع كمال .

وهذا قول لا يقره كتاب ولا سنة، ولا قول صحابي، ولا تفكير سليم ولا منطق صحيح، إذ كيف تشرق نفوس الكافرين بعد مفارقة الأبدان وتتجلى ويحصل لها الكمال؟

وإذًا لقد بطلت مقدمة الرازي هذه بطلانًا تامًّا، وبطلت تبعًا لبطلانها جميع النتائج المترتبة عليها، وبالله نتأيد وبكتابه نعتصم .

والحكم على الروح وهي من ضنائن علم الله تعالى، ومما استأثر بعلمه جل ثناؤه، لا يقبل إلا إذا كان مدعومًا ببرهان مستمد من كتاب الله أو سنة رسوله . وكل حكم على الأمور الغيبية لا يدعمه البرهان من كلام الله وسنة رسوله، زيف باطل ودعوى كذوب.

ثم قال الأستاذ فيما ينقل عن الرازي: (**وأما أن النفوس المتعلقة بالأبدان أقوى من تلك النفوس المفارقة من وجه آخر فلأن آلات الكسب والطلب باقية لهذه النفوس بواسطة الأفكار المتلاحقة، والأنظار المتتالية تستفيد كل يوم علمًا جديدًا**) .

وأقول: إن في هذا الكلام من الخلف والتناقض ما يجعله لا يساوي قطرات المداد التي كتبت بها، إذ بينما يقرر في الفقرة السابقة: إن العلوم التي كانت برهانية عند التعلق بالأبدان صارت ضرورية عند مفارقة الأبدان . ومعنى أن النفوس بعد مفارقة الأبدان قد أحاطت بكل علم واختلطت بكل فن حتى لم يصير شيء من الأشياء خافيًا عليها؛ إذًا هو يقرر أن النفوس التي لم تزل في أجسادها أقوى من جهة لأنها تملك آلات الكسب والطلب وتستفيد كل يوم علمًا جديدًا .

إذ كيف تكون النفوس التي لا تزال تطلب وتستفيد العلوم الجديدة أقوى من النفوس التي كشف عنها الغطاء وأصبحت العلوم كلها ضرورية بالقياس إليها حتى لا تحتاج إلى مزيد من العلم، ومهما تستفد النفوس المتعلقة بأبدانها فإنها لن تبلغ من العلم مبلغ التي كشف عنها الغطاء حين فارقت الأبدان وأصبحت العلوم كلها ضرورية عندها .

سبحانك هذا بهتان عظيم! وهذا تناقض ذميم! .

ومهما تكن قوة الأرواح المفارقة لأبدانها فإنها لا تملك التصرف في هذا العالم، ولا تملك لنفسها ولا لأحد من الناس نفعًا ولا ضرًّا .

ويقول الأستاذ وهو يتابع كلام الرازي: (**المقدمة الثانية: إن تعلق النفوس بأبدانها مطلق يشبه العشق الشديد والحب التام، ولهذا السبب كان كل شيء يطلب تحصيله في الدنيا فإنما يطلبه ليتوصل به إلى إيصال الخير والراحة إلى هذا البدن، فإذا مات الإنسان وفارقت النفس هذا البدن فذلك الميل يبقى، وذلك العشق لا يزول، وتبقى تلك النفوس عظيمة الميل إلى ذلك البدن عظيمة الانجذاب**) .

وأقول: في هذا الكلام أباطيل شتى، بل كله أباطيل لا ينهض على صحتها دليل.

ما الدليل على أن الأرواح تتعلق بأبدانها تعلقًا يشبه العشق أو الحب؟ وما الدليل على أن هذا العشق أو هذا الحب يبقى بعد مفارقة الروح للبدن ولا يزول؟

وكيف تتعلق الروح بالبدن وقد صار البدن ترابًا ورفاتًا؟ وما لذتها في هذا التعلق؟ وماذا تفيد منه؟

وآفة الرازي التعميم حيث يجب التخصيص، فإن الزعم بأن كل ما يطلب الإنسان تحصيله في الدنيا فإنما يطلبه ليوصل به الخير والراحة إلى هذا البدن - غير صحيح على إطلاقه. فقد يكون هذا من سمات الكافرين الذين لا يؤمنون بالبعث والنشور، أما النفوس المؤمنة التي تقوم الليل في عبادة وتهجد، وتصوم النهار تقربًا إلى الله ورغبة فيما عنده، وتحتمل أعباء السفر في الحج، وتتعرض للقتل في سبيل الله - لا تتوصل بذلك إلى إيصال الخير والراحة إلى هذا البدن، بل هي على النقيض من ذلك تضحي براحة البدن وخيره في سبيل راحتها هي، وخيرها هي، وسعادتها هي. أما الذين يحرصون على خير الأبدان وراحتها فحسب، فهم الكفار الذين يأكلون كما تأكل الأنعام غافلين عن الروح وخيرها وسعادتها .

وقد تبين لك بطلان مقدمة الرازي الثانية وفسادها، ولا جرم أن النتيجة التي رتبها عليها أشد منها بطلانًا وشرٌّ فسادًا .

ثم يقول الرازي فيما يحكي عنه الأستاذ: (**إذا عرفت هذه المقدمات فنقول: إن الإنسان إذا ذهب إلى قبر إنسان قوي النفس كامل الجوهر، شديد التأثير، ووقف هناك ساعة، وتأثرت نفسه بتلك التربة. وقد عرفت أنه لنفس ذلك الميت تعلقًا بتلك التربة أيضًا. فحينئذ تحصل لنفس هذا الزائر الحي ولنفس ذلك الميت ملاقاة بسبب اجتماعهما في تلك التربة، وصارت هاتان النفسان شبيهتين بمرآتين صقيلتين وضعتا بحيث ينعكس الشعاع من كل منهما إلى الأخرى**، فكل ما حصل في نفس هذا الزائر الحي من المعارف البرهانية والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله تعالى والرضا بقضاء الله ينعكس منه فوراً إلى روح ذلك الميت وكل ما حصل في نفس ذلك الإنسان الميت من العلوم المشرقة الكاملة فإنه ينعكس منه نور إلى روح ذلك الحي).

وأقول: قد بينا فساد المقدمات التي أراد الرازي أن يبني عليها هذه النتيجة، ولا شك في فساد النتيجة تبعًا لفساد مقدماتها.

وكيف يكون الميت قوي التأثير، وقد انقطع عمله بشهادة الصادق الأمين الذي لا ينطق عن الهوى؟

كيف تتأثر نفس الحي من التربة، وبماذا تتأثر؟

ومن الذي أخبرنا بهذا التفاعل الذي يتم بين النفسين؟

وليس في كتاب الله تعالى ولا في سنة رسوله - ﷺ - ما يشهد بصحة وقوعه. الحق أن هذا كلام أقرب إلى شعر الشعراء الذي يتبعهم الغاوون؛ لأنهم في كل واد يهيمون.

وكيف تتعلق النفس بالتربة وقد صارت في عالم غير هذا العالم، وانقطعت بينها وبين الدنيا كل العلائق والأسباب؟

نحن على يقين من أن نفس الميت ليست في القبر حتى تنعكس انفعالاتها على نفس الزائر وحتى تتلاقيا وتجتمعا على تلك التربة تتبادلا انعكاس الأشعة.

لقد قال ربنا جل شأنه: ﴿**الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضى عليها الموت ويرسل الأخرى إلى أجل مسمى**﴾.

فالنفس التي يمسكها الله، لا تتعلق بالتربة ولا تتصل بها، ويقول النبي - ﷺ -: «إذا خرجت روح المؤمن تلقاها ملكان يصعدانها، ويقول أهل السماء: روح طيبة جاءت من قبل الأرض، صلى الله عليك وعلى جسد كنت تعمرينه، فينطلق به إلى ربه، ثم يقول: انطلقوا به إلى آخر الأبد، وإن الكافر إذا خرجت روحه يقول أهل السماء: روح خبيثة

جاءت من قبل الأرض، فيقال: انطلقوا به إلى آخر الأجل» .

فهذه الروح التي ينطلق بها ملكان يوكلان بها ينعمانها إن كانت مؤمنة، ويعذبانها إن كانت كافرة لا يتاح لها أن تخرج من قبضة الملائكة وتأتي إلى القبر ينعكس أشعتها على نفس الزائر .

وكيف ينعكس ما حصل في نفس الحي من المعارف البرهانية والعلوم الكسبية والأخلاق الفاضلة من الخضوع لله، والرضا بقضائه فوراً إلى روح الميت؟ وماذا يصنع الميت بهذا الانعكاس؟ .

وما فائدة المعارف البرهانية والعلوم الكسبية بالقياس إليه وقد صارت المعارف كلها ضرورية عنده كما يقول الرازي، فماذا يستفيد من هذه العلوم المتقدمة التي تنعكس على نفسه من الأحياء الزائرين؟ . سبحانك! هذا بهتان عظيم! .

وكيف ينعكس ما في نفس الميت من العلوم المشرقة الكاملة إلى الزائر الحي؟

ولو كان هذا حقًّا لصار كل من وقف على قبر نجار نجاراً بفضل ما انعكس عليه من نفس الميت من صناعة النجارة، ولصار كل من وقف على قبر حداد أو صانع أو حائك، أو رسام أو ذي صناعة أيًّا ما تكن ماهراً في هذ الصناعة بفضل ما انعكس عليه من نفس الميت من هذه الصناعة، ولصار من وقف على قبر الكاتب أو الشاعر أو الفيلسوف أو العالم كاتبًا أو شاعراً أو فيلسوفًا أو عالمًا بفضل ما ينعكس على نفسه من نفس الميت من العلوم المشرقة الكاملة .

لو كان حقًّا، ما تعب طلاب العلم في تحصيله ودراسته وحفظه، وكان يكفيهم أن يقفوا على قبور العلماء فينعكس ما في أنفسهم من العلم المشرق على أنفس الطلاب فيصدرون عن هذه القبور وهم علماء يشار إليهم بالبنان .

لو كان حقًا لكان يكفي طلاب الفضيلة والخلق الكريم أن يلموا له لمامة قصيرة بقبر فاضل من الفضلاء أو ذي خلق كريم من أولي الأخلاق الكريمة فتنعكس فوراً الفضائل والأخلاق إلى نفوسهم فينقلبوا فضلاء أولي أخلاق كريمة بفضل ما انعكس على نفوسهم من أرواح الموتى الأفاضل .

ما أكثر الذين وقفوا على قبر الرسول الكريم -ﷺ- وقد ذهبوا إليه يحدوهم الشوق، ويحفزهم الإيمان، ولم تنعكس على مرآة نفوسهم أنوار علومه -ﷺ- ولا أشعة معارفه ولا أضواء أخلاقه، وقد عادوا كما ذهبوا لم يصيروا علماء ولا حكماء ولا عارفين.

• المدهش حقًا:

والمدهش حقًا: أن أستاذًا جامعيًّا كبيرًا يردد في ثقة واطمئنان أمثال هذه السخافات ويوردها مورد الحجة والبرهان على أمر من أمور العقائد التي لا تثبت إلا بالنصوص القاطعة من كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ - .

أوردها سعد وسعد مشتمل ... ما هكذا تورد يا سعد الإبل

ثم قال الرازي فيما نقله عنه الأستاذ الكبير: (**وبهذا الطريق تكون الزيارة سببًا لحصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور. هذا هو السبب في شرعية الزيارة**) .

وأقول: ما كان لنا أن نتكلم بهذا . سبحانك ! هذا بهتان عظيم!

لقد بين الرسول الصادق الأمين، الذي لا ينطق عن الهوى سبب شرعية الزيارة بقوله الحق: «كنت نهيتكم عن زيارة القبور، ألا فزوروها فإنها تذكر بالموت» .

إذًا السبب في أن الله تعالى أباح زيارة القبور أنها تذكر بالموت .

هذا قول الرسول - ﷺ - ، ولكن الرازي يرى أن السبب هو حصول المنفعة الكبرى والبهجة العظمى لروح الزائر ولروح المزور .

فأي الفريق أحق بالتصديق؟ . نبئوني بعلم إن كنتم صادقين .

ولا أدري كيف يقر السيد الأستاذ الجليل هذا الباطل، بل هذا المنكر من القول يورده مورد الحجة، ويستدل به على جواز التوسل بذوات الأشخاص، ويرمي منكريه بالصفاقة بغير حجة ولا برهان .

ثم يقول السيد الأستاذ: (**فتلك الأحاديث والآثار يظهر أن من ينكر التوسل بالأنبياء والأولياء والصالحين أحياءً وأمواتًا ليس عنده أدنى حجة، وإن رمي المسلمين بالإشراك بسبب التوسل ما هو إلا تهور يرجع ضرره إلى الرامي. نسأل الله السلامة**) .

وأقول: إن هذه الأحاديث والآثار على الرغم مما في بعضها من ضعف، وما في بعضها من عدم جواز الاحتجاج به، لا تظهر شيئًا مما ادّعاه الأستاذ، ولا تدحض حجة القائلين بعدم جواز التوسل بذوات الأشخاص، فإن كان ما دلت عليه تلك الأحاديث والآثار هو جواز طلب الدعاء من الأحياء وهو أمر سائغ لا ينكره أحد ما دام من يُطلب منه الدعاء حيًّا يُرزق لم ينقطع عمله، ويستطيع أن يبتهل إلى الله بالدعاء. وقد بسطنا القول في هذه الأحاديث وتلك الآثار بسطًا لا يرتد عليه، فليرجع القراء إلى ما كتبنا فيها تفاديًا من التكرار .

لقد ذكر لنا القرآن الكريم أدعية الأنبياء والمرسلين، وليس فيها أن أحدًا منهم توسل بذات نبي أو رسول سبقه، وإنما هي ابتهال وضراعة إلى الله وحده .

قال تعالى: **﴿ذكر رحمة ربك عبده زكريا . إذ نادى ربه نداء خفيًا . قال رب إني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبًا ولم أكن بدعائك رب شقيًا . وإني خفت الموالي من ورائي وكانت امرأتي عاقرًا فهب لي من لدنك وليًا . يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيًا﴾** [مريم: ٢-٦] .

فهل في هذا الدعاء توسل بذات أحد من الأنبياء والمرسلين قبل زكريا عليه السلام؟

وقال تعالى حكاية عن نوح عليه السلام: **﴿وقال نوح رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارًا . إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجرًا كفارًا . رب اغفر لي ولوالدي ولمن دخل بيتي مؤمنًا وللمؤمنين والمؤمنات﴾** [نوح: ٢٦-٢٨].

فهل في هذا الدعاء توسل بذات أحد من الأنبياء من قبله؟

وقال تعالى حكاية عن أيوب عليه السلام: **﴿وأيوب إذ نادى ربه أني مسني الضر وأنت أرحم الرحمين﴾** [الأنبياء: ٨٣] .

فهل توسل أيوب بذات أحد من الأنبياء والمرسلين .

وقال يونس - عليه السلام - فيما حكى عنه القرآن الكريم: **﴿لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين﴾** [الأنبياء : ٨٧] .

وقال نوح عليه السلام: **﴿إن قومي كذبون . فافتح بيني وبينهم فتحًا ونجني ومن معي من المؤمنين﴾** [الشعراء: ١١٧، ١١٨] كما حكى عنه القرآن الكريم .

وقال سليمان - عليه السلام - فيما حكى عنه القرآن الكريم: **﴿رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت عليَّ وعلى والدي وأن أعمل صالحًا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾** [النمل: ١٩] .

فهل توسل أحد من هؤلاء الرسل الكرام بذات أحد من الأنبياء والمرسلين؟

وأما الموتى فقد انقطعت أعمالهم - كما أوضحنا ذلك فيما سبق - فلا يصح أن يطلب منهم الدعاء ولا الاستشفاع ، إذ ليسوا في دار التكليف .

وأما كلام الرازي فهو افتراء على الله، ولا يمكن أن يكون حجة في دين الله، إذ الروح من عالم الغيب ، ومن أمر الله الذي استأثر به، فليس للرازي ولا لأعلم من الرازي أن يتكلم في شأنها بغير الوارد من النصوص القاطعة من كتاب الله وسنة رسوله عليه

الصلاة والسلام، فلا حجة في شيء مما أورده السيد الأستاذ من كلام الرازي، وحجة منكري التوسل بذوات الأشخاص لا تزال قائمة تدحض كل حجة، وتبطل كل برهان.

ومنكرو التوسل بذوات الأشخاص يعلمون حق العلم أنه ما رمى أحد أحداً بكلمة الكفر إلا باء أحدهما، فإن كان المرمي بها كافراً باء بها، وإلا ردت على الرامي. وهم ليسوا بمتهورين حين يرددون ما قال الرسول الكريم - ﷺ - ، فلقد قال عليه الصلاة والسلام: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» . وهؤلاء المتوسلون بذوات الأشخاص يحلفون بهم على الله .

وكيف لا يكون مشركًا من ينذر لغير الله، ومن ينحر لغير الله، ومن يدعو غير الله، والنذر والنحر والدعاء عبادات فتوجيهها لغير الله شرك ولو كره المتهاونون .

لقد كان العرب أيام البعثة المحمدية يعتقدون أن الخالق الرازق المحي المميت الذي ملك السمع والأبصار، ويخرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ويدبر الأمر، هو الله رب العالمين، ولكن الله تعالى - مع ذلك - اعتبرهم مشركين؛ لأنهم كانوا يدعون غيره ويرون أن الذين يدعونهم شفعاؤهم عند الله يقربونهم إليه زلفى . أليس واجب المصلح أن يعلن الحجة صريحًا بغير مواربة ولا مداراة؟ أليس واجب المصلح الديني بنوع خاص أن يكون جريئًا في قول الحق وإظهار الحقائق التي انطمس نورها تحت ركام من مخلفات العصور المظلمة؟ التي ساد فيها الجهل ، وفشت الأباطيل والخرافات؟

ثم قال السيد الأستاذ: (**ويقول الآلوسي في تفسيره: أنا لا أرى بأسًا في التوسل إلى الله تعالى بجاه النبي عند الله تعالى حيًّا وميتًا، ويراد من الجاه معنى يرجع إلى صفة من صفاته تعالى مثل أن يراد به المحبة العامة المستدعية عدم رده، وقبول شفاعته.** فيكون معنى قول القائل: إني أتوسل إليك بجاه نبيك - ﷺ - أن تقضي لي حاجتي، إلهي اجعل محبتك له وسيلة في قضاء حاجتي، ولا فرق بين هذا وقولك: إني أتوسل برحمتك أن تفعل كذا، إذ معناه أيضًا: إلهي رحمتك وسيلة في فعل كذا . بل لا أرى بأسًا أيضًا بالإقسام على الله تعالى بجاهه - ﷺ - بهذا المعنى والكلام في الحرمة كالكلام في الجاه . . . .) .

وأقول: بعدما كتب الآلوسي ما كتب مما أوردته عليك من عدم جواز التوسل بذوات الأشخاص عن اعتقاد وإيمان وصدق يقين خاف ثورة العامة، فأراد أن يفتل لهم في الذروة والغارب، وأن يداريهم ويداورهم، ويتملق جهلهم، ويرضي حمقهم فكتب هذه العبارة التي أوردها السيد الأستاذ تقية وخوفًا من بطشة العامة وغضبتهم، فتحمل لهم وحاول أن يفسر الجاه بصفة من صفات الله تعالى وهي المحبة ليكون المتوسل بجاه النبي متوسلاً بصفة

من صفات الله تعالى **والتوسل بأسماء الله تعالى وصفاته جائز بغير خلاف** .

بعد أن كتب الآلوسي في تفسير ثلاث صفحات أو مائة وأربعة عشر سطرًا في الدفاع عن رأيه القاضي بمنع التوسل بذوات الأشخاص أدركته التقية وأشفق من ثورة العامة وأشباههم، فكتب هذه العبارة ليتخذها دريئة تدرأ عنه سخط جماهير الجهال والتمحل فيها ظاهر، والتكلف واضح، وصرف اللفظ عن معناه الذي وضع له لا يخفى على ذي مسكة وكيف يفسر الجاه بمحبة الله؟ وهو تفسير لا يوافق الحقيقة ولا يقره المجاز، ولا ترضاه الاستعارة، لِمَ اللف والدوران والالتواء، ولِمَ لا يقول للناس في صراحة وإخلاص: دعوا هذا القول الذي لم يقله أحد من الصحابة، وقولوا: اللهم إني أسألك بحبك لنبيك محمد - ﷺ - . . . وكيف يجوز الإقسام على الله بالجاه وهو ليس من أسمائه تعالى ولا من صفاته؟

● تراجع الآلوسي :

وما رأي الأستاذ الجليل في أن الآلوسي بعد أن ذكر هذه العبارة التي أوردها عقبها بقوله: **(ولا يجري ذلك في التوسل والإقسام بالذات البحت)** .

أي إن البأس الذي لا يراه في الإقسام والتوسل بالجاه بمعنى المحبة لا يجري ولا يجوز في التوسل والإقسام بالذات البحث أي بذوات المخلوقين وأشخاصهم، وهذا هو الذي نقوله وننادي به. وهو أنه لا يجوز التوسل بذوات الأشخاص، ولا الإقسام على الله تعالى بهم. والله غالب على أمره، ولكن أكثر الناس لا يعلمون .

استيقظ ضمير الآلوسي وعاد إلى الحق؛ فقرر أن ذلك لا يجري في التوسل والإقسام بالذات البحت. ثم قال: نعم، (لم يعهد التوسل بالجاه والحرمة عن أحد من الصحابة رضي الله عنهم) . وقد نقل الأستاذ الفاضل عنه هذه العبارة .

وأقول: حسبنا هذا القول، وليسعنا ما وسع الصحابة - رضي الله عنهم - ولنقف حيث وقفوا .

هل نسي الأستاذ الفاضل قول النبي - ﷺ - : «**من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو ردّ**» وقوله - ﷺ - : «**من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو ردّ**»؟

وليس من شك في أن أمر النبي - ﷺ - وأمر أصحابه لم يكن على هذا القول . فهو إذًا مردود على قائله . وماذا يبغي القائل من قول مردود عليه، وليس مقبولاً منه؟

وإذا كان القائل يبغي بقوله الوسيلة إلى الله، والقرب منه فقد رد الله عليه قصده،

ورد عليه عمله، ورد عليه قوله، ولا جرم أنه لا يحظى منه بطائل؛ لأنه مردود عليه، غير مقبول منه .

. وقد قال الإمام مالك رحمه الله: إنه لن يأتي آخر هذه الأمة بأهدى مما أتى به أولها، وما لم يكن يومئذٍ دينًا فلن يكون اليوم دينًا .

فإن كان الصحابة الكرام - رضي الله عنهم - لم ينطقوا بهذه العبارة، ولم يتخذوها دينًا، فلِمَ نبيح لأنفسنا ما لَم يبيحوه لأنفسهم، ولِمَ نسلك طريقًا غير طريقهم؟

الأوائل لم يأتوا بالتوسل بذوات الأشخاص، وهذا هو الهدى ، وهو الحق، وهو الدين، فإذا جاء الأواخر بغير ذلك، فهو مردود عليهم؛ لأنه ليس بحق ولا هدى ولا دين.

والحق أحق أن يتبع ، وليس بعد الحق إلا الباطل، وليس بعد الهدى إلا الضلال .

وقد علل الأستاذ امتناع الصحابة عن التوسل بالجاه مجاراة للآلوسي يتحاشاهم أن يعلق منه في أذهان الناس إذ ذاك .

وهذا المعنى لم يخطر ببال الصحابة؛ لأن هذه الكلمة لم تكن قد استعملت بعد، فلم يكن امتناعهم عنها للمعنى الذي ذكره الآلوسي وجاراه فيه الأستاذ، وإنما كان امتناعهم لأنها لم تكن قد وضعت، ولأنهم لم يكونوا يريدون أن يبتدعوا في دين الله ما ليس منه، ولا أن يفتحوا على الناس أبواب الشرور .

ثم ألم تكن الأمانة العلمية تقضي بأن ينقل الأستاذ كل كلام الآلوسي حتى لا يسيء إليه وإلى سمعته العلمية والدينية بنقل بعض كلامه دون بعض. إذ فيما أغفل الأستاذ إيراده من كلام الآلوسي ما يبرئ ذمته؛ إذ قال بعد العبارة السابقة: (ولا يجري ذلك في التوسل والإقسام بالذات البحت)، أليست هذه العبارة قاطعة في أن الآلوسي لا يجيز التوسل بالذات البحت أي بذوات الأشخاص، وكل الذين يتوسلون بغير أعمالهم يتوسلون بالذات البحت. وما رأي الأستاذ في قول بعضهم : يا رب ، بالحنفي وبالسمان، وبشيخنا وملاذنا البكري!! .

ثم قال السيد الأستاذ: **(ثم التوسل بجاه غير النبي لا بأس به أيضًا إن كان المتوسل بجاهه ممن علم أن له جاهًا عند الله كالمقطوع بصلاحه وولايته، أما من لا يقطع في حقه بذلك فلا يتوصل بجاهه)** .

وأقول: وهذه العبارة أيضًا بالغ فيها الأستاذ الآلوسي، وقولنا فيها هو ما قلناه في سابقتها فلا نعيد القول تفاديًا من التكرار والإملال، وقد وضح الحق لطلابه، ولا أظن أحدًا يماري في الحق بعد ما تبين إلا أولئك الذين امتلأت نفوسهم برواسب الماضي ولم يستطع

العلم الذي تعلموه أن يزيل هذا الركام فبقي جاثمًا لا يتزحزح ولا يريم .

وبعد: فماذا على الإنسان إذا توسل إلى الله تعالى بصالح عمله، واقتصر على ذلك أو توسل إلى الله تعالى بأسمائه وصفاته كما توسل رسول الله - ﷺ - بقوله: «يا حي يا قيوم، يا بديع السموات والأرض، يا ذا الجلال والإكرام، لا إله إلا أنت برحمتك أستغيث، فأصلح لي شأني كله، ولا تكلني إلى نفسي طرفة عين» .

وكما قال سليمان - عليه السلام- : **﴿وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين﴾** [النمل: ١٩].

وكما قالت أم المؤمنين عائشة - رضي الله عنها - : «اللهم إني أسألك بأنك أنت الواحد الأحد ، الفرد الصمد، الذي لم يلد، ولم يُولد، ولم يكن له كفوًا أحد أن تقضي حاجتي» .

وقد قال الآلوسي عقب ذكره تحاشي الصحابة عن التوسل بالجاه: **(ثم اقتدى بهم من خلفهم من الأئمة الطاهرين)** .

أي أن الأئمة أيضًا لم يتوسلوا بالجاه والحرمة .

أفلا يسعنا أن نترك ما تركه الصحابة، وتركه مَنْ بعدهم من الأئمة الطاهرين .

• تنصل!!

وقد قال الآلوسي بعد الذي سبق للأستاذ أن نقله عنه ما يأتي:

وهذا الذي ذكرته إنما هو لدفع الحرج عن الناس. . لا للميل إلى أن الدعاء كذلك أفضل من استعمال الأدعية المأثورة التي جاء بها الكتاب، وصرحت بها ألسنة السنة، فإنه لا يستريب منصف في أن ما علمه الله تعالى ورسوله - ﷺ - ودرج عليه الصحابة الكرام وتلقاه من بعدهم بالقبول أفضل وأجمع وأنفع وأسلم . فقد قيل ما قيل إن صدقًا وإن كذبًا .

ثم قال: قد أكثر الناس من دعاء غير الله من الأولياء الأحياء منهم والأموات وغيرهم مثل: يا سيدي فلان أغثني، وليس ذلك من التوسل المباح في شيء، واللائق بحال المؤمن عدم التفوه به، وألا يحوم حول حماه، **وقد عده أناس من العلماء شركًا**، وإلا يكنه فهو قريب منه، ولا أرى أحدًا ممن يقول ذلك إلا وهو يعتقد أن المدعو الحي الغائب أو الميت المغيب يعلم السبب أو يسمع النداء ويقدر الذات أو بالغير على جلب الخير، ودفع الأذى، وإلا لما دعاه ولا فتح فاه، وفي ذلكم بلاء من ربكم عظيم. **فالحزم التجنب عن ذلك وعدم**

الطلب إلا من الله القوي الغني الفعال لما يريد .

ثم أضاف قائلاً : ومن وقف على سر ما رواه الطبراني في معجمه أنه كان في زمن النبي - ﷺ - منافق يؤذي المؤمنين، فقال الصديق - رضي الله عنه- : قوموا بنا نستغيث برسول الله - ﷺ - من هذا المنافق ، فجاءوا إليه فقال : «إنه لا يستغاث بي، إنما يستغاث بالله تعالى»، لم يشك في أن الاستغاثة بأصحاب القبور الذين هم بين سعيد شغله نعيمه وتقلبه في الجنان، عن الالتفات إلى ما في هذا العالم، وبين شقي ألهاه عذابه وحسبه في النيران عن إجابة مناديه والإصاخة إلى أهل ناديه- أمر يجب اجتنابه، ولا يليق بأرباب العقول ارتكابه .

هذا ما قرره الآلوسي الذي ظن الأستاذ الجليل أنه يؤيد دعواه، وبالله نتأيد، وهو حسبنا ونعم الوكيل .

من كل ما تقدم يتضح بأجلى بيان، وأصدق برهان أن التوسل بذوات الأشخاص ينافي شريعة الإسلام، وأن القول به طعن في حكمة الله وعدله .

سبحان ربك رب العزة عما يصفون ، وسلام على المرسلين، والحمد لله رب العالمين.

● ● ●

منشأ الشرك: الغلو في الصالحين

قال الله – تعالى- : ﴿ **قال نوح رب إنهم عصوني واتبعوا من لم يزده ماله وولده إلا خساراً . ومكروا مكراً كباراً . وقالوا لا تذرن آلهتكم ولا تذرن وداً ولا سواعاً ولا يغوث ويعوق ونسراً . وقد أضلوا كثيراً ولا تزد الظالمين إلا ضلالاً** ﴾ [نوح: ٢١-٢٤] .

قال الإمام ابن جرير: وكان من خير هؤلاء فيما بلغنا ما حدثنا به ابن حميد، حدثنا مهران عن سفيان عن موسى عن محمد بن قيس أن يغوث ويعوق ونسراً كانوا قومًا صالحين من بني آدم، وكان لهم أتباع يقتدون بهم، فلما ماتوا قال أصحابهم الذين كانوا يقتدون بهم: لو صورناهم كان أشوق لنا إلى العبادة إذا ذكرناهم، فصوروهم، فلما ماتوا وجاء آخرون دب إليهم إبليس ، فقال: إنما كانوا يعبدونهم وبهم يسقون المطر، فعبدوهم .

روى البخاري عن ابن عباس – رضي الله عنهما – قال: صارت الأوثان التي كانت في قوم نوح في العرب، أما ود فكانت لكلب بدومة الجندل، وأما سواع فكانت لهذيل، وأما يغوث فكانت لمراد، ثم لبني غطيف بالجرف عند سبأ، وأما يعوق فكانت لهمدان، وأما نسراً فكانت لحمير لآل ذي الكلاع .

هذا ما وقع في قوم نوح – عليه السلام- من الشرك، وما كان سببه إلا غلوهم في الصالحين وافتتانهم بقبورهم، وتصويرهم لتماثيلهم وعكوفهم عليها، وكذلك سرت هذه العدوى في بلاد العرب، وعبدت هذه الأصنام في القبائل، كما تقدم عن ابن عباس –رضي الله عنهما – .

وهل يوجد فرق بين ما عليه عبّاد القبور اليوم وبين ما وقع من قوم نوح؟

قوح نوح عبدوا ودًّا وسواعًا ويغوث ويعوق، لأنهم كانوا قومًا صالحين، وهذه حجة عبّاد القبور اليوم، يلجئون إلى الموتى وينادونهم من مكان بعيد: يا سيدي أنا في جاهك، أنا في حسبك، ليس لي إلا الله وأنت، لا تردني خائبًا، وإذا حضرت أمام القبر أو من داخل الضريح فلا تسل عن العبرات التي تسكب في سبيل الشيطان، وإني سمعت بأذني من رجل كان معي أمام ضريح السيدة نفيسة –رضي الله عنها- يقول: ياسيدة، جودي عليَّ بولد، فلما سمعت منه هذا انتهرته أشد انتهار، وقلت له: اسمع ياهذا، الذي قلته كفر صريح، ولا توبة لك إلا بشهادة أن لا إله إلا الله، وفعلاً قد جدد شهادة التوحيد .

وهذا قليل من كثير مما يقع من عبّاد القبور وسدنة الأضرحة وأرباب الطرق الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا، أرباب الطرق هم أس الفساد وهم والله جنود إبليس، وهم الذين روجوا على العامة مثل هذه الترهات، وتلك الأباطيل الشركية التي ما أنزل الله بها من سلطان، أرباب الطرق هم الذين جددوا العهد بالوثنية السافرة وعادوا بالناس إلى جاهلية ممقوتة، بل جددوا العهد بقوم نوح عليه السلام .

روى الترمذي عن أبي واقد الليثي قال: خرجنا مع رسول الله - ﷺ - قبل حنين ونحو حديثو عهد بكفر، وللمشركين سدرة يعكفون حولها وينوطون بها أسلحتهم يقال لها: ذات أنواط، فمررنا بسدرة، فقلنا: يا رسول الله، اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، فقال النبي - ﷺ - : «**الله أكبر، هذا كما قالت بنو إسرائيل: ﴿اجعل لنا إلهًا كما لهم آلهة قال إنكم قوم تجهلون﴾ لتركبن سنن من كان قبلكم**»

فرسول الله - ﷺ - عنف أصحابه - رضي الله عنهم - على قولهم : اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط، مع العلم أنهم - رضي الله عنهم- لم يريدوا عبادتها ولم يدُر ذلك في خلدهم، بل أرادوا اتخاذها لتعليق أسلحتهم عليها، ولكن رسول الله - ﷺ- الذي جاء بالتوحيد الخالص، وأن يعبد الله وحده لا شريك له - أبى على أصحابه أن يجعل لهم ذات أنواط، وقال لهم: «**لتركبن سنن من كان قبلكم**»

نعم، إن رسول الله - ﷺ - أبى على أصحابه أن يجعل لهم ذات أنواط؛ لأنه يعلم أن اتخاذ مثل هذه السدرة يجعل للشيطان على بعض القلوب من سبيل؛ ومن أجل ذلك قطع أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الشجرة التي وقعت تحتها البيعة خوفًا من افتتان الناس بها؛ وهذا من فقه أمير المؤمنين ، فجزاه الله عن الإسلام والمسلمين خير الجزاء .

فرسول الله - ﷺ - كان حريصًا على حماية التوحيد بكل ما أوتي من قوة، حتى أنه نهى عن زيارة القبور في أول الأمر سدًّا لذريعة الشرك؛ فلما تمكن الإيمان من القلوب أذن في زيارتها .

روى الإمام أحمد عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ- قال: «**إني كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها، فإنها تذكركم الآخرة**» .

وفي رواية ابن ماجة عن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال: قال رسول الله -ﷺ- : «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروا القبور، فإنها تزهد في الدنيا وتذكر الآخرة**» . وفي رواية: «**فزوروها فإن فيها عبرة**» .

فزيارة القبور شرعت للعبرة وللزهد في الدنيا - لأن حب الدنيا رأس كل بلاء - وتذكر الآخرة، والإحسان إلى الأموات بالدعاء لهم والاستغفار ، وإثابة الزائر بإهدائه صالح الدعوات للأموات، والله لا يضيع أجر من أحسن عملاً، ولكن يا للأسف بدّل الذين ظلموا قولاً غير الذين قيل لهم؛ فبدلاً من أن يدعوا لهم، دعوهم من دون الله، حتى أقروا بذلك عين إبليس اللعين، معرضين عن كتاب ربهم وسنة نبيهم وهدي سلف الأمة الصالح، وهذا شأن من أضله الله، فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم.

قال الله تعالى: ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وقال تعالى: ﴿ **ولا تدع من دون الله ما لا ينفعك ولا يضرك فإن فعلت فإنك إذًا من الظالمين** ﴾ [يونس: ١٠٦]، وقال تعالى: ﴿ **وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحداً** ﴾ [الجن: ١٨]، وقال: ﴿ **له دعوة الحق والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشيء إلا كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه وما هو ببالغه وما دعاء الكافرين إلا في ضلال** ﴾ [الرعد: ١٤]، وكثير من الآيات وردت في القرآن الكريم في نعي الشرك على أهله، ولكن من لم يجعل الله له نوراً فما له نور .

ومن الغلو المفضي إلى الشرك اتخاذ قبور الأنبياء والصالحين مساجد، حتى أن رسول الله - ﷺ - لعن المتخذين القبور مساجد ، كما في الصحيحين عن أبي هريرة أن رسول الله - ﷺ - قال: «**قاتل الله اليهود والنصارى، اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» . وفي رواية لمسلم: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» . وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - ﷺ- في مرضه الذي مات فيه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجداً. رواه البخاري ومسلم.

فعبّاد القبور ملعونون بنص الحديث، شاءوا ذلك أم أبوا .

فيا ليت شعري! كيف جاز لمن يدعي الإيمان بالله واليوم الآخر أن يعرض نفسه للعنة الله والرسول، ألم يقرأ قوله تعالى: ﴿ **فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم** ﴾ [النور: ٦٢] ، وأي فتنة أشنع من فتنة الذين استوجبوا مقت الله ورسوله وعرضوا أنفسهم للطرد من رحمة الله، إلا من تاب وأناب وعمل صالحًا وجمع قلبه وغسله بماء التوحيد الخالص وأخرج منه مواد الشرك القذرة حتى يصبح نقيًا طاهراً مخبتًا لله تعالى، ولم يجعل على قلبه من سلطان لأي كائن سوى الله تعالى الذي بيده مقاليد الأمور، والعطاء والمنع، والنفع والضر، بيده كل شيء وهو يجير ولا يجار عليه إن

كنتم تعلمون .

انظر إلى قول عائشة - رضي الله عنها - : ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدًا .

ومعنى هذا: أنه لولا الخوف من الافتتان بقبر النبي - ﷺ - لدفن خارجه عن الحجرة في مقابر المسلمين، ولذلك قالت أم المؤمنين - رضي الله عنها - : ولولا ذلك لأبرز قبره، بأبي هو وأمي - ﷺ - تسليمًا كثيرًا .

ولو أبرز قبر النبي - ﷺ - لتجادلوا عليه بالسيوف، وكانت فتنة، ولكن أصحاب رسول الله - ﷺ ، ورضي الله عنهم -، أفقه الناس من أن يبرزوا قبره حتى يتخذ وثنًا يُعبد، وقد قال - ﷺ - : «**اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد**» . وقال أيضًا: «**اللهم لا تجعل قبري عيدًا**»، وقد أجاب الله دعاء نبيه - ﷺ - ، وحمى قبره من أن يناله شيء من شرك عباد القبور ورجس أهل الباطل، وهذه نعمة من الله تعالى على رسوله - ﷺ - بعد وفاته.

اللهم إني أسألك أن تملأ قلوبنا بالتوحيد الخالص، وتجنبنا الشرك ما ظهر منه وما بطن، إنك سميع الدعاء، وإنك على كل شيء قدير .

قال الله - تعالى - : ﴿**ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون**﴾ [يونس: ١٨]، وقال تعالى: ﴿**وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يمسسك بخير فهو على كل شيء قدير . وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير**﴾ [الأنعام: ١٧، ١٨]، وقال جل ذكره: ﴿**فاعبد الله مخلصًا له الدين . ألا لله الدين الخالص والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى إن الله يحكم بينهم في ما هم فيه يختلفون إن الله لا يهدي من هو كاذب كفار**﴾ [الزمر: ٢، ٣]، وقال أيضًا: ﴿**قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً**﴾ [الإسراء: ٥٧] .

روى بعض المفسرين عن ابن عباس ومجاهد وابن مسعود وغيرهم أن أناسًا كانوا يعتقدون في عيسى - عليه السلام - وعزير، والملائكة ، والجن، وغير هؤلاء، فرد الله عليهم اعتقادهم وشركهم: إن هؤلاء الذين تدعونهم عبيدي كما أنتم عبيدي يرجون رحمتي كما ترجون ، ويخافون عذابي كما تخافون .

ويشهد لهذا المعنى قوله تعالى: ﴿ **إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم فادعوهم فليستجيبوا لكم إن كنتم صادقين** ﴾ [الأعراف: ١٩٤]، وفي القرآن الكريم كثير من الآيات البينات في تقرير التوحيد والرد على المشركين الذي غلوا في الصالحين من عباده حتى رفعوهم في أنفسهم إلى مقام الإلهية، تعالى الله عن غلوهم وشركهم غلوًّا كبيرًا .

أيها المسلمون، انظروا إلى القرآن وتدبروا ما فيه وافهموا خطاب الله إليكم وما يراد منكم، ولا تكونوا كالذين استهوتهم الشياطين في الأرض حيارى فأعرضوا عن كتاب ربهم وسنة نبيهم فخسروا أنفسهم وذلك هو الخسران المبين .

﴿ **فاعبد الله مخلصًا له الدين . ألا لله الدين الخالص** ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

فيالله ويا للمسلمين! جهل الناس كلمة التوحيد، وهي التي من أجلها خلق العالم: ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ [الذاريات: ٥٦] ، ومن أجلها أرسلت الرسل، ومن أجلها قامت السموات والأرض، ومن أجلها نصبت الموازين، ومن أجلها ضرب الصراط، ومن أجلها قامت سوق الجنة والنار، ومن أجلها افترق الناس، ففريق في الجنة، وفريق في السعير .

﴿ **فاعبد الله مخلصًا له الدين . ألا لله الدين الخالص** ﴾ [الزمر: ٢، ٣].

أين هذا مما عيله عبّاد القبور الذين اجتالتهم الشياطين عن التوحيد الخالص وعن عبادة الله وحده لا شريك له؟!

أين هذا مما يفعله هؤلاء الأغمار حول الأضرحة وقبور الموتى من العجيج والنشيج والتمسح بالمقاصير والأحجار، وتقبيل الأعتاب، وغير ذلك من الشرك الفاضح؟

﴿ **فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور** ﴾ [الحج: ٤٦].

يأمر الله تعالى العباد بإخلاص العبادة له، والالتجاء إليه دون سواه، وفي ذلك من العزة وعلو النفس قوة القلب ما يشهد له كل ذي عقل راجح ورأي صائب وفطرة سليمة .

المؤمن عزيز بربه، عزيز بدينه؛ عزيز باتباع رسوله - ﷺ -، انظروا إلى قول الله تعالى وما نعت به المؤمنين، وزنوا أنفسكم قبل أن تندموا حيث لا ينفع الندم. قال تعالى: ﴿ **ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين** ﴾ [المنافقين: ٨]، وقال أيضًا: ﴿ **ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين** ﴾ [آل عمران: ١٣٩]، وعن عبد الله ابن عمر - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ -: «**بعثت بالسيف بين الساعة حتى يُعبد الله وحده لا شريك له، وجعل رزقي تحت ظل رمحي، وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري، ومن تشبه بقوم فهو منهم**» . رواه الإمام أحمد .

المؤمن عزيز أبدًا، لا يذل لغير ربه فاطره وبـارئه، ولا يلتفت في شأن من شئونه إلا إلى الله، فقلبه أبدًا متوجه إلى ربه، ولسانـه أبدًا ذاكرًا لربه، وأعماله دائمًا في مرضاة ربه، فهو دائمًا عبد لله لا لغيره..

أما عبّاد القبور، أما أرباب الطرق، أما المنافقون ، أما المشركون الذين ضربت عليهم الذلة والصغار، فـقد أبوا إلا التسفل والانحطاط، والتجئـوا إلى من صار ترابًا تحت أطباق الثرى يناشدونه قضاء الحاجات وتفـريج الكربات وهو عنهم معرض مشغول بما له أو عليه: ﴿**وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين**﴾ [الكهف: ٦] .

شتان بين الموقفين: موقف أهل الإيمان، وخزي أهل الباطل والكفران .

جاء في الصحـيحين عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**لتتبعن سنن مـن كان قبلكم حذو القـذة بالقـذة، حتى لو دخلوا جحـر ضب لدخلـتمـوه**» . قـالوا: يا رسـول الله، اليهـود والنصارى؟ قال: «**فمن؟**» وأخبر أيضًا - ﷺ - أن أمـته ستفترق على ثلاث وسـبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة. قالوا: من هي يا رسول الله؟ قال: «**من كان على مثل ما أنا عليه وأصحابي**».

نعم، قد اتبع الذين غلـوا في الصالحين سنن من كان قـبلكم، انظر إلى قوم نوح - عليه السلام - وما وقعوا فيـه من الشرك الوخيم، وما سبب ذلك إلا غلوهم في ود وسواع ويغوث ويعوق ونسرا .

وها هم مشركو العرب عبدوا اللات والعـزى وهبل، وغير ذلك من معبوداتهم، وما عبدوهم في زعمهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى .

روى ابن جرير عن مجاهد في قوله: ﴿**أفرأيتم اللات والعزى**﴾ [النجم: ١٩]، قال: «كان يلت لهم السويق فمات فعكفوا على قبره» . قال ابن عباس - رضي الله عنهما - كان يلت السويق للحجاج .

من أجل ذلك عكفـوا على قبـره وعبـدوه من دون الله، وهذا هو الغلو، وهذه هي عاقبته المشئومة، بل انظر إلى غلو النصارى في عيسى - عليه السلام - وما جره عليهم من الخزي والوبال .

قل لي بربك: ما الفرق بين هذه الأفـعال الشركية التي وقعت في الأمم المـاضية وما عليه الحال في هذه الأمـة؟ حتى يتبين لك مصـداق قول رسول الله - ﷺ-: «**لتتبعن سنن من كان قـبلكم..**» إلخ، ألم تشيـد القبور ويبنى عليـها القباب التي تناطح السـحاب؟ ألم تنصب فيـها النصب الخشبيـة تكسى بالحرير والديباج التي هي أصنام الجـاهلية الأولى؟ أين

هذا يا قوم من سنن رسول الله - ﷺ - في القبور التي يجب على كل مسلم اتباعها وإلا كان على خطر عظيم؟! .

روى مسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال علي بن أبي طالب: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - ﷺ -؟ أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته، ولا قبراً مشرفًا إلا سويته .

فرسول الله - ﷺ - أمر بتسوية القبور؛ وكسر التماثيل، وهؤلاء الغلاة يرفعون عليها القباب ويبنون عليها الأبنية الضخمة، وفي ذلك من المحادة لله والرسول ما الله به عليم، ﴿**ومن يشاقق الرسول من بعد ما تبين له الهدى ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ونصله جهنم وساءت مصيراً**﴾ [النساء: ١١٥] .

نهى رسول الله - ﷺ - عن عبادة الله عند القبور، فكيف إذا عبدت القبور وطلب منها ما لا يقدر عليه إلا رب الأرباب وملك الملوك وعلام الغيوب؟

في الصحيحين عن عائشة - رضي الله عنها - أن أم سلمة ذكرت لرسول الله ﷺ كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور، فقال: «**أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور، أولئك شرار الخلق عند الله**» .

ولِمَ كانوا شرار الخلق عند الله؟ لأنهم جمعوا بين فتنتين عظيمتين: فتنة القبور، وفتنة التماثيل، والذين تعلقوا بالقبور من هذه الأمة زادوا عليهم وأربوا. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

عن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - أنه رأى رجلاً يجيء إلى فرجة كانت عند قبر النبي - ﷺ-، فيدخل فيها فيدعو، فنهاه وقال: ألا أحدثكم حديثًا سمعته من أبي عن جدي عن رسول الله - ﷺ -، قال: «**لا تتخذوا قبري عيداً ولا بيوتكم قبوراً، فإن تسليمكم عليَّ يبلغني أين كنتم**». رواه الضياء المقدسي في المختارة . وفي رواية: «**فإن صلاتكم تبلغني حيث كنتم**» . ثم قال له: أنت ومن بالأندلس سواء.

فهذا عالم من علماء آل البيت؛ بل من خيارهم، فإنه ابن الحسين - رضي الله عنه - ينهى عن الدعاء عند القبر الشريف ويقول للرجل: «أنت ومن بالأندلس سواء»، وأنت اليوم قد لا تستطيع أن تنهى عن تقبيل عمود البدوي أو مقصورة الحسين - رضي الله عنه- وهذا والله من غربة الإسلام .

جهل الناس أصول الدين وفروعه، وتعلقوا بالبدع والخرافات وما ورثوه عن الآباء والأجداد والناس أعداء ما يجهلون .

عن عمر -رضي الله عنه- أن رسول الله -ﷺ- قال: «**لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبد، فقولوا : عبد الله ورسوله**» رواه البخاري ومسلم

وفي حديث آخر: «**إياكم والغلو، فإنما أهلك من كان قبلكم الغلو**» . هذا الحديث لا يحتاج إلى شرح، بل واضح المعنى، يقول الرسول لا ترفعوني فوق منزلتي ولا تصفوني بغير صفة العبودية، كما فعلت النصارى في عيسى - عليه السلام - بل إنه عبد ، فقولوا عبد الله ورسوله .

اللهم وفقنا إلى الخير وارزقنا الإخلاص في القول والعمل ، إنك على كل شيء قدير، وإنك عليم بذات الصدور .

قال تعالى: ﴿**ألم تر إلى الذي يزعمون أنهم آمنوا بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك يريدون أن يتحاكموا إلى الطاغوت وقد أمروا أن يكفروا به ويريد الشيطان أن يضلهم ضلالاً بعيداً . وإذا قيل لهم تعالوا إلى ما أنزل الله وإلى الرسول رأيت المنافقين يصدون عنك صدوداً**﴾ [النساء: ٦٠، ٦١] .

قال المحققون من أهل التفسير: الطاغوت كل ما تجاوز به العبد حده من معبود أو متبوع أو مطاع، فطاغوت كل قوم من يتحاكمون إليه غير الله ورسوله .

قال الإمام ابن القيم - رحمه الله تعالى - في أعلام الموقعين: (فهذه طواغيت العالم إذا تأملت أحوال الناس معها رأيت أكثرهم عدل عن عبادة الله إلى عبادة الطاغوت، وعن طاعته وطاعة رسوله ومتابعته إلى طاعة الطاغوت ومتابعته، وهؤلاء لم يسلكوا طريق الناجين الفائزين من هذه الأمة، وهم الصحابة ومن تبعهم، ولا قصدوا قصدهم، بل خالفوهم في الطريق والقصد) . اهـ باختصار .

فطواغيت عباد القبور: هي قبور الصالحين وسدنتها، وما وضعوا من كتب روجوا فيها - بالكذب الذي زعموه كرامات - عبادة هذه القبور واللجأ إلى المقبورين فيها، وما اتخذوه لها من أعياد وموالد، فكل هذه طواغيت لأنها صرفت الناس وعدلت بهم عن عبادة الله وطاعته وطاعة رسوله .

وطواغيت أسراء التقليد وعباد آراء الرجال وأقوالهم التي لم يشهد لها كتاب ولا سنة، والتي حكموها في الدين، وتركوا لها كتاب الله وسنة نبيه - ﷺ - هي هذه الآراء والأقوال وكتبها وما ألف لها .

وطواغيت أرباب الطرق على اختلاف مشاربهم وتباين طرقهم: هم شيوخهم وما اتخذوا من أوراد وأحزاب واجتماعات خالفوا فيها هدي رسول الله ﷺ.

وطاغوت عباد المال الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله، وطاغوت الذين ضرب على قلوبهم بسياط الغفلة حتى خرجوا عن طاعة الله ورسوله، وتردوا في هاوية الشهوات والمعاصي والفجور: هو الهوى والشهوة الحيوانية الشيطانية.

ولا تنس الطاغوت الأكبر، وهو الشيطان، فإنه طاغوت كل كافر وملحد، وعاص وفاسق، ومشرك وعابد وثن.

واحسرتاه على ما جره هذا الطاغوت على هذه الأمة، لقد مزقها كل ممزق حتى أصبحت شيعًا وأحزابًا: ﴿**كل حزب بما لديهم فرحون**﴾ [المؤمنون: ٥٣]، ولم يلتفتوا إلى قوله تعالى: ﴿**إن الذين فرقوا دينهم وكانوا شيعًا لست منهم في شيء**﴾ [الأنعام: ١٥٩].

لقد نجح والله هذا الشيطان نجاحًا عظيمًا، لا سيما عباد القبور حتى أخرجهم من التوحيد إلى الشرك كما تخرج الشعرة من العين، لا أقول هذا من عندي، ولا أدعي العلم لنفسي، بل الله سبحانه وتعالى يقول لرسوله وخيرته من خلقه: ﴿**ليس لك من الأمر شيء أو يتوب عليهم أو يعذبهم فإنهم ظالمون**﴾ [آل عمران: ١٢٨] ويقول له أيضًا: ﴿**إنك لا تهدي من أحببت ولكن الله يهدي من يشاء**﴾ [القصص: ٥٦]، والذين غلوا في الصالحين يجعلون الأمر لأصحاب المشاهد والقباب، وإني لا أبتدع القول من عندي، وإنما أنا متبع فيه علماء الأمة وسلفها الصالح الذين يقولون بذلك بعبارات صريحة واضحة لكل ذي عينين ناظرتين.

قال الإمام أبو بكر الطرطوشي، بعد أن ذكر حديث أبي واقد الليثي، في ذات أنواط: فانظروا رحمكم الله أينما وجدتم سدرة أو شجرة يقصدها الناس ويعظمونها ويرجون البرئ والشفاء من قبلها، يضربون بها المسامير والخرق. فهي ذات أنواط فاقطعوها... إلخ.

فبوابة المتولي في مصر ذات أنواط يجب إزالتها وتكسيرها وتطهير هذا الطريق منها، وكم في قرى مصر من أشجار وأحجار هي ذات أنواط وشر من ذات أنواط.

وقال الإمام أبو شامة في كتابه «الباعث على إنكار البدع والحوادث»: ومن هذا القسم أيضًا: ما قد عم به الابتلاء من تزيين الشيطان للعامة تخليق[1] الحيطان والعمد، وسرج مواضع مخصوصة من كل بلد يحكي لهم حالٍ أنه رأى في منامه بها أحدًا ممن شهر بالصلاح والولاية، فيفعلون ذلك ويحافظون عليه، مع تضييعهم فرائض الله وسنة رسوله،

(١) أي: تطيبها. والخلوق هو الطيب والعطور.

ويظنون أنهم متقربون بذلك، ثم يتجاوزون هذا إلى أن يعظم وقع تلك الأماكن في قلوبهم فيعظمونها ويرجون منها الشفاء لمرضاهم، وقضاء حوائجهم بالنذر لها. وهي ما بين عيون وشجر وحائط وحجر. ثم ضرب - رحمه الله- أمثلة كثيرة مما وقع في مدينة دمشق في عصره ومن قبل عصره .

ويشهد لكلام هذا الإمام حديث: «لعن الله زائرات القبور والمتخذين عليها المساجد والموقدين عليها السرج» .

وقال الشيخ قاسم من علماء الحنفية في شرح درر البحار: النذر الذي يقع من أكثر العوام يأتي إلى قبر بعض الصالحين قائلاً: يا سيدي فلان، إن رد غائبي أو عوفي مريضي أو قضيت حاجتي فلك من الذهب أو الطعام أو الشمع كذا: باطل إجماعًا لوجوه:

منها: أن النذر للمخلوق لا يجوز .

ومنها: أن ذلك كفر - إلى أن قال- : وقد ابتلي الناس بذلك، ولا سيما في مولد أحمد البدوي . اهـ .

انظر إلى هذا الإمام وكيف حكى الإجماع على بطلان النذر للأموات وغيرهم من دون الله تعالى. وهذا حق لا ريب فيه، ولم يكتف بذلك، بل جعل النذر للمشايخ والصالحين كفر .

وقال الإمام البكر الشافعي في تفسيره عند قوله تعالى: ﴿والذين اتخذوا من دونه أولياء ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى﴾ [الزمر: ٣]، قال: وكان الكفار إذا سئلوا عن خالق السموات والأرض قالوا: الله، فإذا سُئلوا عن عبادة الأصنام قالوا: ﴿ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله﴾ لأجل طلب شفاعتهم عند الله، وهذا كفر . اهـ .

وهذا كما عليه عباد القبور إذا سُئلوا عن طوافهم بالقبور قالوا: ما ندعوهم وننذر لهم ونطوف حول قبورهم ونتمسح بأركانها إلا ليشفعوا لنا عند الله في قبول الدعاء وقضاء الحاجات، وغير ذلك فما أشبه الليلة بالبارحة، وما أشبه النعل بالنعل .

وقال الإمام أبو الوفا علي بن عقيل الحنبلي: لما صعبت التكاليف على الطغام والجهال، عدلوا عن أوضاع الشرع إلى تعظيم أوضاع وضعوها لأنفسهم، فسهلت عليهم؛ إذ لم يدخلوا بها تحت أمر غيرهم، وهم عندي كفار بهذه الأوضاع، مثل تعظيم القبور وإكرامها، والتزامها بما نهى عنه الشرع: من إيقاد النيران، وتقبيلها وتخليقها، وخطاب الموتى بالحوائج وكتب الرقاع عليها: يا مولاي افعل لي كذا وكذا. وأخذ تربتها تبركًا، وإفاضة الطيب على القبور، وشد الرحال إليها، وإلقاء الخرق على الشجر اقتداء بمن عبد

اللات والعزى . اهـ .

وكلام العلماء في هذا الباب كثير وكثير جداً، بل بحر لا ساحل له، كله يدور حول إخلاص العبادة لله؛ وتجريد التوحيد، ونعي الشرك على أهله: ﴿ **ومن لم يجعل الله له نوراً فما له من نور** ﴾ [النور: ٤٠]، قال الله تعالى: ﴿ **ومن أضل ممن يدعو من دون الله من لا يستجيب له إلى يوم القيامة وهم عن دعائهم غافلون . وإذا حشر الناس كانوا لهم أعداء وكانوا بعبادتهم كافرين** ﴾ [الأحقاف: ٥، ٦] .

والدعاء عبادة، بل مخ العبادة، ورأس العبادة، وروح العبادة، ولب العبادة، عن أنس - رضي الله عنه - أن رسول الله - ﷺ - قال: «**الدعاء مخ العبادة**». رواه الترمذي.

وعن النعمان بن بشير - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : «الدعاء هو العبادة» . ثم قرأ رسول الله - ﷺ - : ﴿ **وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين** ﴾ [غافر: ٦٠] . رواه الإمام أحمد وأبو داود والترمذي .

فيعلم بهذا أن ما عليه القبوريون اليوم وشيعتهم خروج على كتاب الله وسنة رسوله - ﷺ -، على علماء الأمة وأئمة المسلمين ، وإنما هي من البدع والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان، وإنما أوحاها الشيطان ليضل بها عن سبيل الله، ويزين بها عبادة الأنداد من دونه .

أيها المؤمن الخائف على دينه، فر من هؤلاء فرارك من المجذوم إن لم تكن لك قوة على جهادهم، وإلا فجاهدهم، وادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة .

قال عليه الصلاة والسلام لعلي - رضي الله عنه - حين بعثه إلى اليمن: « لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خير لك من حمر النعم » . وقال - ﷺ - : ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون، ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن، ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن، ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن، ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل» . رواه مسلم عن ابن مسعود. وقال: «**من رأى منكراً فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان**». رواه مسلم عن أبي سعيد. وأي منكر يا من تدعي الإيمان من الشرك بالله وعبادة غير الله؟.

قل للقبوريين في صراحة: لا تتمسحوا بالقبور، ولا تتسكعوا حول الأضرحة والقباب، فإن ذلك لن يغني عنكم من الله شيئاً إلا ما أغنت اللات والعزى ومناة الثالثة

الأخرى عابديها من قبل . واحذروا أن تكونوا من الـذين نعتهم الله في كتابه بقوله: ﴿وإذا ذكـر الله وحده اشـمـأزت قلوب الذين لا يؤمنون بالآخـرة وإذا ذكـر الذين من دونه إذا هم يستبشرون﴾ [الزمر : ٤٥] .

قال الله سبحانه وتعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله﴾ [لقمان : ٢٥]، وقال تعالى: ﴿ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن خلقهن العزيز العليم﴾ [الزخرف: ٩]، وقال تعالى: ﴿قل من يرزقكم من السـمـاء والأرض أمن يملك السـمع والأبصار ومن يخـرج الحي من الميت ويخرج الميت من الحي ومن يـدبر الأمر فسيقولون الله فقل أفلا تتقون﴾ [يونس: ٣١]، وقال جل ذكره: ﴿قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل أفلا تذكرون . قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . سيـقولون لله قل أفلا تتقـون . قل من بيده ملكوت كل شيء وهو يجيـر ولا يُجار عليه إن كنتم تعلمون . سيقولون لله قل فأنى تسحرون﴾ [المؤمنون : ٨٤-٨٩] .

كان المشركون يقرون بتوحيد الربوبية لله؛ وكانوا يقرون ويعلمون أن الله تعالى خالق كل شيء، وأنه الرازق لهم ولكل شيء، ورب كـل شيء ومليكه، وهو المحيي والممـيت، وبيده ملكوت السمـوات والأرض، مدبر للعالم، وهو علام الغيـوب، رب السموات ورب العرش العظيم، وبيـده مقاليد الأمور، وهو يـجير ولا يجار عليه كـما هو واضح جلي من الآيات السابقة. وكانوا مع هذا يقولون عن آلهتهم الذين اتخذوهم أولياء من دون الله: ﴿ما نعبدهم إلا ليـقربونا إلى الله زلفى﴾ ، أي أنهم لا يملكون ضراً ولا نفعًا مـستقلاً، وإنما هم شفعاء ووسـائط لدى الله، كما جاء ذلك في القرآن في غير مـوضع في بيان حال المشركين وشركهم .

وكل هذه الاعتـرافات لله بوحـدانية الربوبيـة والخلق والملك والتدبيـر، وهذا الإقرار وهذا العلم لـم يدخلهم في الإسـلام ولم يـعـصم دمـاءهم ولا أمـوالـهم، بل حكم الله بكفرهم، وأمر رسوله بجهادهم حتى يُعبد الله وحده لا شريك له .

وكـانوا مع هذا يزعـمـون أنهم على دين إبراهيم - عليـه السـلام - وأنهم الحنفـاء ويقـولون على النبي - ﷺ - ومن اتبعـه من المؤمنين: الصـباة، ويدعـون أنهم أهدى من الرسول ولـم تنفعهم هذا المزاعم، ولـم تفـدهم هذه الدعاوي شيئًا، ولـم تغير حـقيقة الشرك التي كانت في دعائهم لأولئك الموتى الذين كانوا يسمونهم أولـياء يزعمون أنهم شفعاء عند الله بما لهم من الوجاهة والكرامة .

وعبّـاد القبور يصنعون كـما يصنع سلفهم الأولون الذين بين القـرآن الكريم أقوالهم

وأعمالهم وأحوالهم، فتغيير أسماء الموتى المؤلهين المدعوين المنذور لهم لا يغير الحقيقة الشركية مهما حاول مروجوها على الدهماء والعامة من الدجالين، فها أنت ترى العامة يلجئون إلى الموتى ينادونهم: يا سيدي، أغثني أدركني، العارف لا يعرّف، الشكوى لأهل البصيرة عيب، المحسوب منسوب ولو كان معيوب، وغير ذلك من الفضائح التي أخجلوا بها الإسلام والمسلمين وسوّدوا بها وجوههم أمام خصومهم من الأجانب .

تالله ما طعن الإسلام من خصومه وشوه في نظر هؤلاء الخصوم عن جماله بمثل ما شوه به من تلك الجاهلية الجهلاء التي دسها وروجها أعداء الإسلام، وما حادثة هانوتو وزير خارجية فرنسا وطعنه في الإسلام ببعيدة عن الأذهان، وقد رد عليه الأستاذ الشيخ محمد عبده - رحمه الله - يومئذٍ بما نزه الإسلام عن كل دخيل .

الإسلام دين الفطرة، دين المدنية الصحيحة، دين العقل السليم، دين القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه. فكيف يسمح هذا الدين بإذلال العقل وإهانته وتحقيره بتلك العقائد الخرافية السخيفة، ويتدلى إلى عبادة الموتى بدعائهم والنذر لهم والحلف بهم والطواف حول قبورهم واللجأ إليهم من دون الله بعد أن أصبحوا ترابًا تحت أطباق الثرى .

أرسل الله تعالى رسوله إلى الناس كافة بشيراً ونذيراً، وداعيًا إلى الله بإذنه وسراجًا منيراً، وأنزل عليه الكتاب والحكمة ليخرج الناس من تلك الظلمات الجاهلية إلى نور العلم والهداية الإيمانية التوحيدية .

ما جاء الإسلام إلا لمحاربة هذه المخازي الشركية والقضاء عليها، ما جاء الإسلام إلا لتطهير القلوب وتزكيتها من رجس الشرك، وفكاكها وتخليصها من رق الوثنية الممقوتة، ما جاء الإسلام إلا لكرامة الإنسان وعزته بالذل لله وحده، وأن يعبد الله لا شريك له من الإنسان أو الحيوان أو الجماد .

ولكن من المحزن أن للشيطان على بعض النفوس سلطانًا، وأي سلطان قادهم إلى الخرافات جرهم إلى الشرك بتعظيم القبور ، وأبى عليهم التوحيد، والانقياد إلى حكم الله ورسوله - صلى الله عليه وسلم - حتى أخرجهم من العزة إلى الذلة، ومن الكرامة إلى المهانة والحقارة، ومن نور التوحيد إلى ظلمات الشرك، وأخرجهم من نور الإيمان بالله وحده إلى الإيمان بالطاغوت الذي أُمروا أن يكفروا به. فلا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

قال تعالى: ﴿ **فإذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون** ﴾ [العنكبوت: ٦٥]، وقال تعالى: ﴿ **وإذا غشيهم موج كالظلل دعوا الله**

مخلصين له الدين﴾ [لقمان: ٣٢]، وقال أيضًا: **﴿وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه فلما نجاكم إلى البر أعرضتم وكان الإنسان كفوراً﴾** [الإسراء: ٦٧].

أليس هذا هو القرآن؟ أليس هذا هو الدستور السماوي الذي جاء به رسول الله - ﷺ- إلى الثقلين الجن والإنس؟ هذه الآيات واضحة المعنى في المشركين عبّاد اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى، أنهم كانوا يفزعون إلى الله وحده يخصلون له الدعاء عند الشدائد والخطوب، ويتركون آلهتهم وما كانوا يعبدون من دون الله وراء ظهورهم ويخلصون الدعاء لله لكشف ما نزل بهم من الشدة والضائقة، فإذا فرج الله عنهم الشدة والكرب عادوا إلى ما كانوا عليه من الشرك وعبادة الموتى.

وعبّاد القبور وأرباب الطرق لا يعرفون في شدة ولا في رخاء إلا الدسوقي والبدوي وأم هاشم وغيرهم من الذين اتخذوهم آلهة من دون الله يستغيثون بهم ويستنصرون بهم على الأعداء ولهم ينذرون وبهم يحلفون.

وما جر هؤلاء إلى الشرك، بل الدرك الأسفل من الخزي والهوان إلا إعراضهم عن تدبر كتاب ربهم وسنة نبيهم وهدي سلف الأمة الصالح وأئمتها المهتدين.

قال الله تعالى: **﴿ومن يعش عن ذكر الرحمن نقيض له شيطانًا فهو له قرين﴾** [الزخرف: ٣٦].

وقال تعالى: **﴿ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى. قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً. قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى﴾** [طه: ١٢٤-١٢٦] جزاءً وفاقًا.

عن عبد الله بن عباس - رضي الله عنهما - أن رجلاً قال للنبي - ﷺ - : ما شاء الله وشئت، فقال له: **«أجعلتني لله ندًا؟ بل ما شاء الله وحده»**. رواه النسائي.

انظروا يا قوم إلى غيرة رسول الله - ﷺ- على جناب التوحيد، مع أن القائل له: ما شاء الله وشئت لم يرد أن يجعل الرسول ندًّا لله، ولكن حرص رسول الله - ﷺ - على توحيد الله وخوفه على أمته من أن يجرها الشيطان بمثل هذه الحبال إلى الشرك جعله يسد كل طريق للشيطان نصيحة للأمة. فجزاه الله خير الجزاء.

يا قوم، اتقوا الله في أنفسكم، اتقوا الله في أولادكم، اتقوا الله في أمتكم، اتقوا الله في الشبيبة الطاهرة التي لم يدنس قلبها شيء من الشرك والبدع والخرافات، اتقوا الله وقولوا للناس في صراحة واجهروا لهم بالقول، وبينوا لهم ما عليه السواد الأعظم من هذه الخرافات المخزية والبدع المضلة، ولا سيما عبّاد القبور وأرباب الطرق، ارفعوا أصواتكم في وجوههم: **﴿ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون﴾** [البقرة: ٤٢]، فإن كاتم الحق شيطان أخرس.

زيارة القبور وشد الرحال إلى الأضرحة [١]

زيارة القبور: يقولون: الذهاب إلى أي ضريح من أضرحة الأولياء ليس فيه مخالفة للدين. بل هو تحقيق لزيارة القبور التي أمرنا الرسول بها، وعناها في الحديث القائل: «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور ألا فزوروها فإنها تذكرة**» مسلم وأبو داود .

ونرد عليهم فنقول: من ظلم الناس لأنفسهم، ومن شدة جهلهم بأمور الدين أنهم لم يفهموا ما هي القبور التي عناها حديث الرسول - ﷺ - التماسًا للعظة وتحصيلاً للتذكرة بالآخرة .

والقبور التي يشير إليها الحديث الشريف هي القبور الشرعية التي لم يرفع فوقها البناء والمجردة عن كل زينة . . . وهي القبور التي يطأ أرضها الزائر فيجد الصمت يلفها، فيقف أمامها وقفة المتعظ فيقول الدعاء الذي علمه الرسول - صلوات الله وسلامه عليه للصحابة الكرام عندما كانوا يخرجون إلى القبور لزيارتها وهو: «**السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين. وإنا إن شاء الله بكم للاحقون يرحم الله المستقدمين منا ومنكم، والمستأخرين، نسأل الله لنا ولكم العافية. اللهم لا تحرمنا أجرهم، ولا تفتنا بعدهم، واغفر لنا ولهم**» .

هي القبور التي إذا زارها الإنسان وقف متأملاً ليرى كيف أن صاحب هذا القبر أو ذاك قد ترك الحياة التي كان يعيشها بالأمس ظالمًا فاسدًا أو بارًّا صالحًا، وجاء إلى هذا المكان الساكن وحيدًا ليس معه أحد من أهل أو صاحب كما كان يعيش معهم بالأمس، وليعرف كذلك أن ذلك مآل الجاه والسلطان، مآل الغنى والثراء، مآل الشباب والجمال، عندئذ تتأثر نفس الزائر، ويستيقظ قلبه، ويتزود بالعبرة، ويمتلئ خوفًا من حساب الله يوم القيامة، فيستغفر الله لما يكون قد فرط منه . فيحد ذلك من شهواته الدنيوية، فلا يجعله يتكالب على حطامها، ولا يتقاتل على ما فيها من مال زائل .

هذه هي القبور الشرعية التي عناها الحديث وحث على زيارتها؛ لأنها لا تحقق العبرة وتجلب التذكرة. أما الناس اليوم فإن نفوسهم لا تتأثر بزيارة القبور، ولا تتذكر قلوبهم بمشاهدتها. ذلك لأنهم لا يعرفون زيارة القبور إلا في عيدي الفطر والأضحى «التماسًا للرحمة» بما يحملون من فطائر وأطعمة، وبآيات القرآن التي تقرأ على الميت، فيقضون هناك

---

(١) كتاب «صراع بين الحق والباطل»، للأستاذ/ سعد صادق .

أيامًا بنسائهم بجوار موتاهم بين الألم والحزن، بين البكاء والنحيب .

مع أن الإسلام لم يبح الزيارة للنساء بنص حديث الرسول - صلوات الله وسلامه عليه - القائل: «**لعن الله زائرات القبور**» ، وذلك لأن النساء رقيقات الشعور، سريعات إلى الجزع، وزيارة القبور تثير في نفوسهن ذكرى الراحلين من ذويهن .

أضرحة المشايخ ليست قبوراً شرعية: وجَعْل الأضرحة التي يقصدها الناس للتبرك والتقرب إلى الله في عداد القبور الشرعية، أمر لا تقبله الشريعة الغراء، ولا تعترف به عقيدة التوحيد الخالصة .

وكيف تكون هذه الأضرحة ضمن القبور الشرعية، وهي التي خرجت عن نظام القبور الشرعية التي تجلب التذكرة، بل صارت طواغيت، وأصنامًا وآلهة، تعبد من دون الله سبحانه وتعالى؟! .

كيف تحصل العبرة من أضرحة أحاطت بها المقاصير، وعلقت على جدرانها صناديق النذور؟! . وكيف تأتي العظة من أضرحة غطت بالثياب الحريرية، وأحاطتها الأنوار الساطعة من كل جانب، وفاحت منها رائحة العطور التي يضعها السدنة الكاذبون بأيديهم على الخشب والنحاس في غيبة الزائرين ليخدعوهم بها؟! .

كيف تحصل التذكرة بالآخرة من أضرحة وقف حولها السدنة العاطلون يحثون الناس على الطواف بها والتبرك بمن يسكنها؟!

يجب هدم هذه الأضرحة: وإذا كانت هذه البدع والمظاهر الوثنية تصرف الزائر عن معنى الزيارة وتحرمه فائدتها، فيجب هدم هذه الأضرحة الموجودة بالأقطار الإسلامية وتسويتها بالأرض تمهيدًا للقضاء على مظاهر الوثنية التي تعيد إلى الأذهان معتقدات الجاهلية الأولى وأعمالها، يجب أن نبادر إلى فعل ذلك امتثالاً لما ورد في كتب السنة عن أبي الهياج الأسدي، قال: بعثني عليّ، قال: أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله - ﷺ - «**ألا تدع قبرًا مشرفًا إلا سويته، ولا تمثالاً إلا طمسته**» رواه مسلم، وأبو داود.

ألم يقطع عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - الشجرة التي بايع النبي - ﷺ - أصحابه تحتها يوم الحديبية. لما رأى المسلمين قد افتتنوا بها وذهبوا إليها يصلون تحتها تقديسًا وتبركًا . . . لماذا لا نقتدي بعمر الجريء البطل وتقطع الجذور الوثنية المتمثلة في تلك الأضرحة والقباب - كما فعل عمر بالشجرة؟! .

فإذا تعذر هدمها وتسويتها بالأرض طاعة لله وطاعة لرسوله! فمن أضعف الإيمان أن تمتنع عن شد الرحال إليها، وتكثير سواد العاكفين عليها، والسكوت على ما يرتكب عندها.

شد الرحال إلى مسجد الرسول ﷺ : يقولون: إذا كنا نستنكر إقامة الأضرحة، ونرى وجوب هدم الموجود منها اليوم، فلماذا رضي المسلمون بأن يكون قبر الرسول داخل المسجد؟ ولماذا يشدون الرحال لزيارته؟

ونرد عليهم فنقول: من المعلوم أن الرسول - ﷺ - حينما توفي نشب بين الصحابة خلاف حول مكان دفنه. وكان الصحابة فريقين: الفريق الأول وهم المهاجرون رأوا أنهم هم الذين كانوا مع الرسول منذ اللحظة الأولى لمولد دعوة الإسلام.

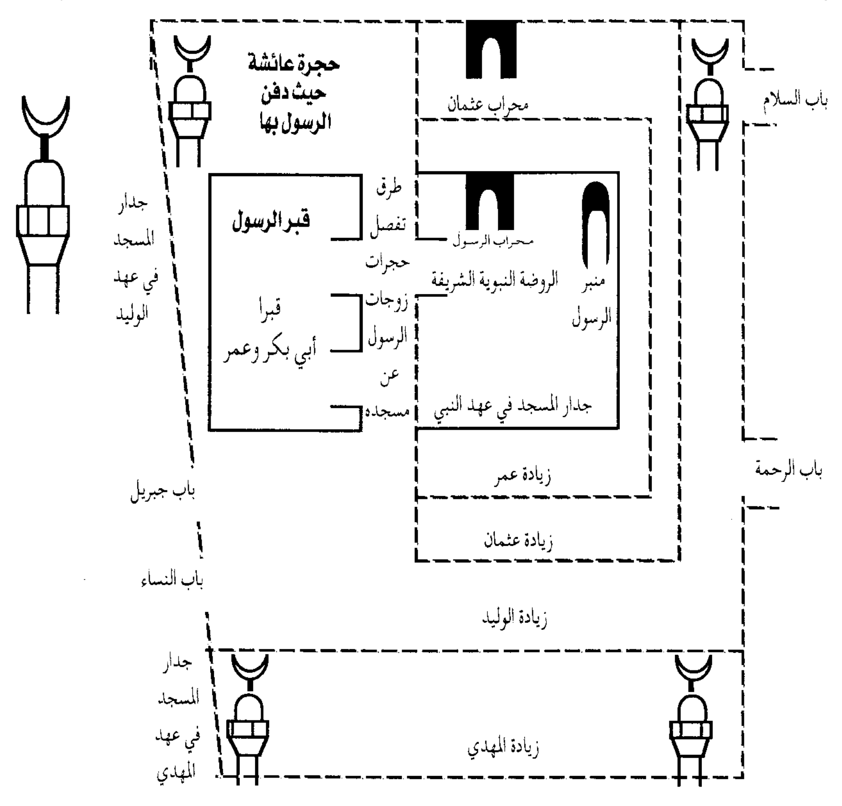
وهم الذين ذاقوا العذاب من قريش في سبيل الله، لهذا يجب دفن الرسول - صلى الله عليه وسلم - في ديارهم بمكة.

أما الفريق الثاني وهم الأنصار، فقد رأوا أنهم كانوا الملاذ الوحيد للرسول وأصحابه عندما هاجروا من ديارهم إلى يثرب اتقاء بطش قريش، وأنهم منحوهم الأمن والنصرة بعد أن رفضت البلاد الأخرى مناصرتهم.

وهنا نادى أبو بكر - رضي الله عنه - في الأنصار والمهاجرين وتلا عليهم حديثًا سمعه من الرسول - صلوات الله عليه - يقول فيه: «**ما قبض نبي إلا دُفن حيث يُقبض**».

عند ذلك ارتاحت النفوس، وسكن الخلاف، وتم دفن الرسول - ﷺ - في المكان الذي دُفن فيه وهو «حجرة عائشة رضي الله عنها».

الزيادة التي حدثت في قبر الرسول ﷺ : أول من أحدث الزيادة في مسجد الرسول عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - فبنى حوائطه وغيّر أساطينه ووسع فيه قليلاً، ثم زاد فيه عثمان بن عفان - رضي الله عنه - إلى قبلته الجنوبية. وبناه بالجص والحجارة. وفي عام ٥٨٨هـ أرسل الوليد بن عبد الملك لعامله على المدينة: عمر بن عبد العزيز. فزاد في المسجد شرقًا وغربًا وجنوبًا، وأدخل فيه حجرات أزواج النبي - ﷺ - وبنى له أربع مآذن، وفرش أرضه بالرخام، ورش حوائطه بالموزاييك، وكسا سقفه بالذهب، وجعل أساطينه من المرمر.. ثم زاد فيه المهدي العباسي عام ٦٦٠هـ وعمّره.. ثم عمّره الخليفة المعتصم.. ثم الظاهر بيبرس. وفي سنة ٦٧٨هـ أقام الناصر قلاوون قبة الحجرة الشريفة ولم يكن لها قبة قبل ذلك. ثم عمره الأشرف برسباي في عام ٨٣١هـ. ثم الظاهر برقوق عام ٨٥٣هـ. راجع كتاب «الرحلة الحجازية» للأستاذ محمد لبيب البتانوني ص (٢٤٤).



رسم تقريبي لمقدار الزيادات التي أدخلت على مسجد الرسول من عهد عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان إلى عهدي الأمويين والمهدي

من هذا الرسم الموضح لمسجد الرسول - ﷺ - وقبره قبل الزيادة وبعدها، يتبين لنا بوضوح أن إدخال قبر الرسول - عليه السلام - ضمن مسجده لم يتم في عصر الخلفاء الراشدين - رضي الله عنهم - «بل حدث في العصر الثاني من الخلافة الأموية عندما أمر الوليد بن عبد الملك» عامله على المدينة «عمر بن عبد العزيز» بأن يجري عدة زيادات في المسجد النبوي فأدخل قبر الرسول ضمن مسجده وهكذا بدى مسجد الرسول - صلوات الله عليه - اليوم على غير الصورة التي كانت عليه أيام الخلفاء الراشدين. ومن هذه المعلومات التاريخية يظهر لنا أن فتنة ضم حجرة عائشة - رضي الله عنها - التي دُفن بها النبي إلى مسجده حدثت في عهد الوليد بن عبد الملك، الذي أمر عامله على المدينة عمر بن عبد العزيز للقيام بهذه المهمة. فخالف بذلك تحذير الرسول للمسلمين من هذا العمل حين قال: **«اللهم لا تجعل قبري وثنًا يعبد، اشتد غضب الله على قوم اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد»** موطأ مالك.

وعن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله - ﷺ - في مرضه الذي لم

يقم منه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». قالت: ولولا ذلك لأبرز قبره، غير أني أخشى أن يتخذ مسجدًا. الصحيحان.

لقد كان لزامًا على الأمويين أن يحترموا حديث الرسول وأن يعملوا به. ولكن الأهواء دفعتهم إلى صنع هذه الفتنة التي كانت سببًا في فقدان المسلمين الشعور بالتوحيد.

وإذا كان الرسول - عليه الصلاة والسلام - قد حذر أن يتخذ قبره وثنًا، ونهى عن اتخاذ القبور مساجد درءًا لعقيدة الشرك، ثم خَلَفَ من بعده خَلْفٌ ضربوا بحديثه ووصاياه عرض الحائط ولم يهتموا بها، وأدخلوا قبره في مسجده... إذا كان ذلك قد حدث فليس معناه أنه عمل شرعي يرضى عنه المؤمنون بالله وبرسوله.

ونحن إذا جئنا اليوم لنفصل القبر عن المسجد، ونعيد كل شيء إلى الحالة التي تركها عليه الرسول فلن يُرضي هذا العمل الإسلامي الشرعي الأغلبية المفتونة[1] من المسلمين الذين يهتمون بالقشور دون اللب، وربما يثير هذا العمل فتنة هوجاء مُدمرة.

والمسلمون الذين أنار الله بصائرهم، ويحبون رسول الله حقًّا، لا يذهبون إلى مسجد رسول الله - ﷺ - حين يذهبون - بقصد الزيارة، وإنما يذهبون إليه بقصد الصلاة فيه للحصول على أجر الصلاة، كما قال عليه السلام: «**صلاة في مسجدي هذا خير من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا المسجد الحرام**»[2] الصحيحان.

شد الرحال إلى الأضرحة: يقولون: إن شد الرحال إلى ضريح الولي مقصود به تذكر

---

(١) ومن الغريب أن هؤلاء المفتونين يضعون جُل اهتمامهم بمنظر قبر الرسول، فهم يهتمون فقط بوضع ستائر جديدة زاهية على القبر، وإحاطته بمظاهر الزينة، أما سنته وهديه فلا يعرفون عنها شيئًا، لقد ورثوا حب الرسول مجردًا عن العمل كما ورثه آباؤهم من قبل.

من ذلك ما كتبته مجلة «لواء الإسلام» أكثر من مرة مناشدة الملك سعود أن يأمر بإزالة الأستار البالية التي تعلو حجرة قبر النبي واستبدالها بأخرى جديدة، أو الاكتفاء بإنزالها، وقد رددنا على هذه المجلة في حينه بأن حب الرسول لا يأتي عن طريق الاهتمام بقبره وستائره، وإنما يأتي باتباع سنته والسير على نهجه.. انظر: أعداد لواء الإسلام الصادرة في رجب ١٣٨٠هـ صفر وربيع الأول سنة ١٣٨١هـ. وانظر: الرد على مقالات لواء الإسلام في مجلة «الهدي النبوي» بالأعداد الصادرة في رمضان ١٣٨٠هـ.

(٢) عندما نطق الرسول - صلى الله عليه وسلم - بهذا الحديث، كان يشير إلى مسجده وهو على الصورة التي كان عليها قبل أن تضم إليه حجرة السيدة عائشة، وهي الحجرة التي مات ودفن الرسول بها.

ولا ينبغي للمسلم أن يحرم من الصلاة في مسجد الرسول، وأن يضيع على نفسه هذا الثواب الكبير لكون أن مسجد الرسول قد أبرز فيه القبر، فلا ضير عليه في ذلك، والمحاسب أمام الله على فعلته الآثمة هو من أدخل حجرة قبر الرسول ضمن المسجد النبوي.

إذًا فمسجد الرسول - صلى الله عليه وسلم - ليس كمساجد الأضرحة التي يشد إليها الرحال بحجة الدعاء والتقرب، لأن المسجد النبوي له خاصيته؛ لأننا أمرنا بشد الرحال إليه.

أعماله الصالحة. واستحضار جهاده في سبيل الله، ليرى الزائر كيف جاهد هذا الولي حتى وصل إلى مكانته من الإيمان والتقوى .

ونرد عليهم فنقول: لقد روى مسلم في صحيحه أن النبي - ﷺ- قال: «**لا تشد الرحالُ إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام، ومسجدي هذا، والمسجد الأقصى**» . لم يَنْه الرسول المسلمين عن شد الرحال إلى أي عمل من الأعمال الدنيوية - كالسفر إلى أي بلد لمزاولة فنون الصناعة أو التجارة أو طلب العلم أو قضاء مصالح حيوية هامة - بل نهى عن شد الرحال إلى أي مسجد بنية العبادة والتعظيم والتقرب إلى الله غير المساجد الثلاثة التي ذكرها الحديث. وهي : المسجد الحرام عند بيت الله الحرام - بمكة المكرمة - مسجد الرسول الشريف - بالمدينة المنورة - والمسجد الأقصى - بمدينة القدس(١) بفلسطين - وهو المسجد الذي أسرى الله إليه رسوله - صلى الله عليه وسلم - ليلاً فصلى بالأنبياء جميعًا فيه .

ومن هنا لا يجوز شرعًا أن يسافر الإنسان إلى دسوق - مثلاً - وفي نيته أن يتقرب إلى الله بزيارة ضريح إبراهيم الدسوقي. أو أن يسافر إلى القاهرة - مثلاً - وفي نيته التقرب إلى الله بزيارة ضريح من الأضرحة المنسوبة إلى الصالحين أو أهل بيت الرسول .

وشد الرحال إلى المساجد التي بها أضرحة منهيٌّ عنه لأسباب منها:

أولاً: أن الله تعالى يقول: ﴿**قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين**﴾ [الأعراف: ٢٩] ويقول: ﴿**وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحدًا**﴾ [الجن: ١٨] .

والذي يتوجه إلى مساجد الأضرحة لا يتوجه إلى الله ولا يخلص له العبادة، بل يقصد الحصول على بركة الميت بالصلاة في مسجده كما يرجو الاستغاثة بساكن الضريح. ولولا هذا الاعتقاد ما تحمل المشاق للذهاب إلى مسجده، بينما يوجد قريبًا منه مسجد خال من ضريح .

ثانيًا: أداء العبادة بمكان فيه قبر مما حرمه الله ونهى عنه رسوله الصادق . فقد روى أبو سعيد الخدري - رضي الله عنه - أن النبي - ﷺ - قال: «**الأرض كلها مسجد إلا المقبرة والحمام**» رواه أبو داود، ويقول الرسول في الحديث أيضًا: «**صلوا في بيوتكم ولا تجعلوها قبوراً**» مسند ابن حنبل .

ذلك لأن الصلاة لا تجوز عند القبر، فندب الرسول لصلاة النوافل في البيوت .

---

(١) نضرع إلى الله القوي أن يعين المسلمين ليخلصوا القدس من أيدي اليهود .

والرغبة في تذكر أعمال الأولياء الصالحة ليست حجة لشد الرحال إلى أضرحتهم. فإن معرفة الله لا تأتي عن طريق تذكر أعمال الأولياء والصالحين، ولا بالذهاب إلى أضرحتهم، بل تأتي عن طريق معرفة كتاب الله. والاهتداء بسنة رسوله وما كان عليه من أدب وخلق، والاهتداء أيضًا بما كان عليه السلف الصالح. فإذا سار الإنسان على هذا السبيل - على قدر المستطاع - كان حقًّا - ﴿ **مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا** ﴾ [النساء: ٦٩] .

وإذا كان الأولياء الدين نذهب إلى أضرحتهم بحجة تذكر أعمالهم اتبعوا كتاب الله وسنة رسوله وسنة خلفائه الراشدين، وسلكوا سبل السلف الصالح، فجدير بنا أن نتبع نحن أيضًا كتاب الله وسنة رسوله وسبيل السلف الصالح، كما فعل الأولياء الصالحون دون حاجة إلى الذهاب إلى أضرحتهم لنفعل عندها ما ليس مشروعًا في الإسلام مما كانت تفعله الجاهلية الأولى .

جدير بنا - كمسلمين - أن نأخذ الهدى من «القرآن الكريم والسنة» لا من جنبات أضرحة الأولياء، ولا من التمسح بأعتابهم، والتذلل عندهم .

والعبادات ليست حسب رغباتنا؛ بل لقد بين الرسول - صلوات الله عليه - في سنته المطهرة طريقة العبادات الصحيحة، وأوضح لنا منهجها القويم حتى لا يضل الناس فيعبدوا الله تعالى بما لم يشرع فيصيبهم الشقاء والخسران، فقال عليه الصلاة والسلام ناصحًا أمته: **«تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما إن تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله» وقال مخبرًا المسلمين أنه بين لهم ما يُدخلهم الجنة وما يُبعدهم عن النار «ما تركت شيئًا يقربكم من الجنة، ويبعدكم عن النار، إلا أمرتكم به، وما تركت شيئًا يقربكم إلى النار، ويبعدكم عن الجنة إلا نهيتكم عنه»** .

وقد استنكر الله تعالى عمل الذين يسيرون في حياتهم الدينية وفق أهوائهم فقال: ﴿ **أفرأيت من اتخذ إلـهه هواه وأضله الله على علم وختم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة فمن يهديه من بعد الله أفلا تذكرون** ﴾ [الجاثية: ٢٣] .

●●●

فتوى فضيلة الشيخ علي محفوظ - رحمه الله -

هذا ولفضيلة الشيخ على محفوظ - رحمه الله - والذي كان عضواً بهيئة كبار العلماء بالأزهر الشريف كلامًا طيبًا ذكره في كتابه المشهور «الإبداع في مضار الابتداع» .

حيث قال - بعد أن ذكر بدع اتخاذ المقابر والأضرحة أعياد - : وأما المفاسد التي تنشأ عن ذلك فكثيرة منها: أن النساء قد اتخذن ذلك ميدانًا لشهواتهن فيتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ويتزين للخروج إلى المقابر والأضرحة بأجمل زينة ويتهتكن بأقبح صورة، لا دين يمنعهن، ولا أدب يردعهن، وكثير منهن يركبن على الدواب في الذهاب والرجوع ويمسهن المكاري (العربجي) في إركابهن، وإنزالهن، وتقع المحادثة بينهما كأنه زوجها، أو ذو محرم منها، وكثيراً ما يشترك الرجال والنساء الأجانب في ركوب واحد على ازدحام واحد شديد مع تمام التبرج والزينة - والتبرج إظهار المرأة زينتها ومحاسنها للرجال الأجانب وهو من أقبح البدع التي ستذهب بالقومية المصرية إن لم يتداركها الله بالغيورين العاملين .

هذا في الذهاب والعودة (وأما) في حال زيارتهن للقبر فالأمر أشنع وأفظع فإنهن يخالطن الرجال مع كثرة الخلوات هناك وتيسر الدور وكشفهن لوجوههن، وهناك يختلط بهن الشرار من الشبان في مزاح ومداعبة، وكثرة ضحك مع الغناء في مجموع الخشية والاعتبار والذل، وخروجهن على هذه الأحوال نهاراً محل ريبة فكيف به ليلاً .

وعلى الجملة فما يترتب على خروجهن إلى المقابر من الفسوق والخروج عن حدود الآداب كثير مشاهد يستغيث منه الدين وتتألم منه الإنسانية، ويذهب معه الحياء والمروءة وتتأذى به الأموات في قبورهم(١)؛ لأن أرواحهم خرجت من النوم إلى اليقظة، ومن الهزل إلى الجد، وصارت لا تميل إلى مثل هذه السفاف، بل لا تهوى سوى الحق والكمال، فكيف السكوت على هذا من زوج أو ذي غيرة على الدين والعرض فلا حول ولا قوة إلا بالله .

ومن هذه المفاسد ما يقع عند الموتى مما يكرهونه ويتأذون منه من الجلوس على المقابر والوطء عليها، فعن أبي هريرة - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله - ﷺ - : **«لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده خير له من أن يجلس على قبر»**

---

(١) لأن الميت يسمع ويرى ويتكلم ويعرف زوار قبره ويرد عليهم السلام .

رواه مسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجة، وكذا الاستناد إليها فعن عمرو بن حزم قال: رآني النبي – صلى الله عليه وسلم – متكئًا على قبر فقال: «لا تؤذ صاحب هذا القبر» رواه الإمام أحمد، وكذا البول والتغوط عندها، وكثرة اللغط الذي يكون من الازدحام والبيع والشراء وأصوات الأراجيح وغيرها من كل ما يخالف الدين ويحول بين القلوب والخشية، وبين الموتى والرحمة، مع أن قصد الزيارة إنما هو نوال الإحسان من نفس الزائر إلى الميت .

ثم تحدث بعد ذلك عن اهتمام النساء بزيارة القبور – فقال: ومن المفاسد اهتمام النساء بزيارة القبور، وإهمال الرجال، فقد عكس الشيطان على الناس قضية المشروع فإن الزيارة مستحبة للرجال لخبر مسلم : «**كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها فإنها تذكر الآخرة**» . قال الحافظ المنذري: قد كان النبي – ﷺ – نهى عن زيارة القبور نهيًا عامًّا للرجال والنساء، ثم أذن للرجال في زيارتها واستمر النهي في حق النساء. اهـ .

وسر النهي أولاً عن زيارتها أنه لما كان منشأ عبادة الأصنام من جهة القبور في قوم نوح نهى النبي – ﷺ – أصحابه في صدر الإسلام عن زيارتها سدًّا لذريعة الشرك، لكونهم حديثي عهد بكفر، ثم لما تمكن التوحيد في قلوبهم أذن لهم في زيارتها، وعلمهم كيفيتها تارة بفعله، وتارة بقوله، كما مر في الأحاديث في أول الفصل.

أما زيارة النساء للقبور فمن العلماء من حرمها مطلقًا ومنهم من فصل بين الشابة وغيرها، قال في المدخل: إنما هذا الخلاف في نساء ذلك الزمان وكن على ما يعلم عن عادتهن في الاتباع، وأما خروجهن في هذا الزمان فمعاذ الله أن يقول أحد العلماء أو من له مروءة أو غيرة في الدين بجواز ذلك، فإن وقعت ضرورة للخروج فليكن ذلك على ما يعلم في الشرع من الستر لا على ما يعلم من عادتهن من الذميمة في هذا الزمان .

ومن المفاسد الفاشية: تقبيل واستلام قبور الأولياء والأنبياء والعلماء، صرح به الإمام النووي – رحمه الله – وترخيص بعضهم في هذا الاستلام، وكذا في تقبيل قبور من ذكروا بقصد التبرك لا سند له ، نعم إذا غلبه وجد وأدب وحال فله حكم آخر .

ومن المفاسد : اتخاذ الملاهي والملاعب عند المقابر وكذا كثرة المزاح والضحك، وإنشاد القصائد، يقع في موطن الخشوع والاعتبار، وما هو جدير بالحزن والخشية، فعنه – ﷺ : «**إن الله يكره لكم ثلاثًا : العبث في الصلاة، والرفث في الصيام، والضحك عند المقابر**» رواه غير واحد من طرق مختلفة – والرفث: الفحش في القول.

ومن البدع السيئة: الطواف حول الأضرحة فإنه لم يعهد عبادة إلا بالبيت، وكذا لم يشرع التقبيل والاستلام إلا للحجر الأسود (قال في المدخل): فترى من لا علم عنده يطوف

بالقبر الشريف، كما يطوف بالكعبة الشريفة، ويتمسح به ، ويقبله، ويلقون عليه مناديلهم وثيابهم، يقصدون به التبرك وذلك كله من البدع ؛ لأن التبرك إنما هو بالاتباع له – عليه الصلاة والسلام – وما كان سبب عبادة الجاهلية للأصنام إلا من هذا الباب، ولأجل ذلك كره علماؤنا – رحمة الله عليهم – التمسح بجدار الكعبة أو بجدران المسجد، أو بالمصحف إلى غير ذلك مما يتبرك به سداً لهذا الباب، ولمخالفة السنة؛ لأن صفة التعظيم موقوفة عليه– ﷺ – فكل ما عظمه رسول الله – ﷺ – نعظمه ونتبعه فيه.

فتعظيم المصحف قراءته والعمل بما فيه لا تقبيله ولا القيام إليه كما يفعله بعضهم في هذا الزمان، وكذلك المسجد تعظيمه الصلاة فيه، لا التمسح بجدرانه، وكذلك الورقة يجدها الإنسان في الطريق فيها اسم من أسمائه – تعالى – أو اسم الله تعالى، أو اسم نبي من الأنبياء – عليهم الصلاة والسلام – ترفيعه إزالة الورقة من موضع المهنة إلى موضع ترفع فيه لا بتقبيلها، وكذلك الولي تعظيمه اتباعه لا تقبيل يده وقدمه ، ولا التمسح به، فكذلك ما نحن بسبيله تعظيمه باتباعه لا بالابتداع عنده. اهـ .

ثم تحدث بعد ذلك عن المبيت في المقابر فقال: ومن هذه المفاسد: المبيت فيها وإيقاد السرج والشمع ونحوه على القبور، ففي الحديث عن ابن عباس – رضي الله عنهما– أنه – عليه الصلاة والسلام – : «لعن زائرات القبور[١] والمتخذين عليها المساجد والسرج» رواه أبو داود والترمذي وحسنه، وقد نهى – ﷺ – عن أن يتبع الميت بنار فكيف يفعل ذلك على قبره، قال العلامة البركوي فكل ما لعن رسول الله – ﷺ – فهو من الكبائر . وقد صرح الفقهاء بتحريمه إذ لو كان اتخاذ السرج عليها مباحًا لم يلعن من فعله . واللعن لما فيه من تضييع المال في غير فائدة. والإفراط في تعظيم القبور تشبهًا بتعظيم الأصنام . اهـ[٢] .

●●●

(١) زائرات : أي المكثرات لأنها صيغة للمبالغة والشيء إن زاد على حده انقلب ضده .

(٢) راجع كتب: الإبداع للشيخ علي محفوظ، والوثنية في ثوبها الجديد للشيخ سمير شاهين، وبدع المقابر والجنائز والمآتم للمؤلف .

الولاية والأولياء [1]

الولاية بين الأمس واليوم: يفهم الناس اليوم الولاية فهمًا معكوسًا، يخالف حقيقتها ومعناها، فإنهم لفرط جهلهم بأمور الدين وعدم معرفتهم لحقيقة الولاية نسبوا الأمر إلى غير أهله، وخلعوا الشيء على من ليس جديراً به، فأطلقوا لفظ « الولي » على من لا يستحقونه من المتعطلين الخاملين الذين عطلوا جوارحهم، وتعطلوا عن العمل والسعي والكفاح بحجة: التواكل والزهد والانقطاع للعبادة، ولزموا التكايا وزوايا الأضرحة، وأطلقوا أيضًا على كل من سال لعابه، ولبس الثياب الممزقة المرقعة، وأطال شعر رأسه، وأرخى لحيته، وأطبق يديه على مسبحة طويلة، ووضع على رأسه عمامة كبيرة حمراء أو خضراء أو سوداء وظهر أمام الناس في زي كَرْنفالي عجيب، حتى البله ومن في عقولهم خبل وهوس .

وأعطوه كذلك لبعض المجرمين الأشقياء الهاربين من وجه العدالة الذين يعيشون آمنين متسترين تحت لقب الولاية، ويباشرون أعمال الدجل والشعوذة والكذب باسم الدين.

وهكذا ظن السذج من الناس؛ أن كل من ظهر على هذه الصورة الخادعة قطب كبير، وصاحب سر باتع، وأنه واصل ومتصل مع الله اتصالاً مباشراً بدون حجاب [2].

وكأن الله لا يختار للولاية إلا كل تارك للصلاة أو جاهل بأمور دينه، أو من عنده خبل في عقله، أو كل مجرم شقي، وضال مضل .

وصدق الناس هذه الدعاوى الكاذبة فآمنوا بها ووقعوا أسرى لهذه الأوهام، وألعوبة في أيدي محترفي الدجل الذين عاشوا من وراء هذه الدعاوى الكاذبة عيشة ناعمة دون عمل ولا جهد .

ونرد عليهم فنقول: يَحسن بنا قبل أن نناقش هذا الموضوع أن نفسر كلمة: الولي من ناحية اللغة. فالولي: اسم من الوَلْي، والوَلْي: هو القرب والدنو، والوليُّ: يطلق على النصير، والصديق والمحب. ويقال: إن فلانًا تولى أمر فلان، أي: تعهده بالرعاية والتربية.

---

(١) كتاب صراع بين الحق والباطل، الأستاذ/ سعد صادق .

(٢) لقد كذب هؤلاء الذين يزعمون للسذج من الناس أن فلانًا « مرفوع الحجاب » أو أنه « واصل » فإنه لم يسبق لبشر- سواء كان نبيًا مرسلاً أو غير مرسل - أن كلم الله بدون حجاب أو وحي، وهذه الآية تكذب هؤلاء، إذ يقول الله تعالى: « وما كان لبشر أن يكلمه الله وحيًا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولاً فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليم حكيم » الآية ٥١ سورة الشورى .

ولذلك نقول عن الوالد أنه: ولي أمر ابنه، هذه هي الولاية لغة .

أما الولاية حقيقة فلها معنى آخر غير المعنى الخيالي الذي يعرفه الناس اليوم والذي يخالف ما رسمه الإسلام للمسلمين، وبينه لذوي البصيرة .

فالإسلام لا يأمر الإنسان بالتعطل والانقطاع في البيت أو العكوف في المسجد للعبادة، والرسول - ﷺ - حضّ المسلم على العمل في أية مهنة حتى لا تذل نفسه، فقال في الحديث : « والذي نفسي بيده لأن يأخذ أحدكم حبله فيذهب إلى الجبل فيحتطب ثم يأتي به يحمله على ظهره فيبيعه ويأكل منه خير له من أن يسأل الناس » الصحيحان . ولو انقطع الإنسان عن العمل وانزوى في بيته أو لزم المسجد ما كان هناك من يمشي في جنبات الدنيا فيعمل فيها، وينتفع بخيراتها، ويملأها عمرانًا وازدهاراً.

والإسلام لا يعرف شيئًا اسمه « التواكل » بمعنى أن يترك الإنسان عمله لغيره، وإنما يعرف الإسلام « التوكل » فالإنسان عليه أن يعمل ويسعى، ثم يتوكل على الله، أي يجعله وكيلاً له، يصل به إلى نتائج عمله، فهو المالك لنواصي الأمور، وكل شيء يتم حسب حكمته ورحمته بالعباد .

ومما يؤكد أن التوكل هو ما كان مع العمل والسعي؛ أنَّ رجلاً جاء إلى رسول الله - ﷺ - وسأله : هل يترك ناقته من غير أن يربطها توكلاً على الله؟، قال الرجل: أأعقلها وأتوكل، أم أطلقها وأتوكل؟. فقال له النبي - ﷺ - «**أعقلها وتوكل**» أي: اربطها ثم توكل على الله. رواه الترمذي. وفي حديث الترمذي، أن الرسول - ﷺ - قال: «**لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصًا وتروح بطانًا**» خماصًا: أي تكون فارغة البطون، وبطانًا: أي ترجع ممتلئة البطون .

فانظر إلى الطير: إنه لا ينتظر أن يأتيه الرزق في عشه، بل ينطلق فارغ البطن فيعود شبعانًا مرزقًا. وكذلك الإنسان يجب عليه أن يخرج ويسعى ليأتي برزقه.

وجاء في الأثر أيضًا أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - دخل يومًا المسجد فرأى جماعة من اليمن قد قبعوا فيه يتعبدون ولا عمل لهم . فقال: من أنتم؟ قالوا: متوكلون. قال: كذبتم. بل هم المتآكلون - أي المتواكلون - إنما المتوكل: رجل وضع حبّة في التراب، وتوكل على رب الأرباب .

إن انقطاع الإنسان عن العمل والعكوف في البيوت أو المساجد للعبادة ليس من شأن المسلم العامل القوي، ولا هو من سنة رسولنا - صلى الله عليه وسلم - والله تعالى خلق الإنسان في هذه الدنيا ليعمل في الأرض، وينتفع بخيراتها، ويتعاون مع أخيه لتعمير

الكون، فلو قعد هذا في البيت، وسكن هذا في المسجد للتعبد ما وجدت الدنيا من يكافح ويعمل لتعميرها وتطويرها كما تريد سنة الله تعالى منا .

وقد أمرنا الله - تعالى - أن نخرج إلى المساجد للصلاة، فإن انتهينا من الصلاة نعود إلى أعمالنا لنضرب في الأرض من جديد . فقد قال تعالى في كتابه العزيز: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا نودي للصلاة من يوم الجمعة فاسْعَوا إلى ذكر الله وذروا البيع ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون . فإذا قضيت الصلاة فانتشروا في الأرض وابتغوا من فضل الله** ﴾ [الآيتان: ٩، ١٠ : سورة الجمعة]. وقال تعالى: ﴿ **هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً فامشوا في مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور** ﴾ [الملك: ١٥] .

فالولاية إذن. . . ليست لكل من ادعى الصلاح ومعرفة أمور الدين، أو قبع في المسجد، ولازم البيت بحجة التعبد والإخلاص لله .

بل الولاية في حقيقتها الجميلة أسمى مما يعتقدون؛ إنها سلوك داخلي للفرد ومنهاج باطني لا يعلم أمره إلا الله وحده، هي علاقة سرية تربط العبد بالله، ثم بغيره من العباد على أساس من الإخلاص والإيمان والتقوى .

المظاهر لا تدل على الولاية: ونحن لا يمكننا - بأي حال - أن نقطع بولاية أحد وتقواه وصلاحه، فالمظاهر لا تدل على الإيمان والتقوى. فكثيراً ما تكون المظاهر خداعة، وكم خدع الناس وغرتهم المظاهر والأشكال ووقعوا أسرى الدجالين، مدعي الولاية .

غير أننا يمكن أن نحكم فقط بإسلام شخص من خلال ما يظهر لنا من أحواله وسيرته. أما الحكم «بولايته وتقواه وإيمانه» فهذا ضرب من المستحيل؛ لأن هذا الجانب بالذات خفي ولا يدخل في علمنا وإدراكنا - كما قلنا سابقًا - ويقول الله تبارك وتعالى: ﴿ **والله أعلم بإيمانكم بعضكم من بعض** ﴾ [البقرة: ١٤٣] .

ويقول سبحانه: ﴿ **إن ربك هو أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بمن اهتدى** ﴾ [النجم: ٣٠]، ويقول جل جلاله: ﴿ **هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة في بطون أمهاتكم فلا تزكوا أنفسكم هو أعلم بمن أتقى** ﴾ [النجم: ٢٢] .

وفي صحيح مسلم، عن المقداد بن الأسود قال: أمرنا رسول الله - ﷺ - أن نحثو في وجوه المداحين التراب .

وعن أبي أمامة أن النبي - صلى الله عليه وسلم - روى عن رب العزة سبحانه في الحديث القدسي قال: «**أغبط أوليائي عندي المؤمن خفيف الحاذ، ذو حظ من الصلاة، أحسن عبادة ربه وأطاعه في السر والعلن، وكان غامضًا في الناس لا يُشار إليه بالأصابع**» . . . إلخ

رواه أحمد والترمذي .

إذن . . . فلا ينبغي لنا أن نزكي أحداً بالولاية أو بالإيمان أو بأي نوع من أنواع التزكية؛ لأن الله وحده هو العليم ببواطن الأمور، وهو الخبير بحقائق الناس وأحوالهم، أما نحن فلنا الظاهر فقط، مما يبدو لنا من المسلم من مظاهر العبادة .

ولا ينبغي أيضًا أن يزكي أحد منا نفسه مدعيًا الإيمان والتقوى والصلاح؛ لأن ذلك غرور وجهل وفتنة. والله تعالى يقول فيمن يزكي نفسه: ﴿ **ألم تر إلى الذين يزكون أنفسهم بل الله يزكي من يشاء ولا يظلمون فتيلاً** ﴾ [النساء: ٤٩] .

وعن زينب بنت أبي سلمة قالت: سُمِّيت برة، قال رسول الله - ﷺ -: « **لا تزكوا أنفسكم ، الله أعلم بأهل البر منكم، سموها زينب** » رواه مسلم .

وأبو بكر الصديق - رضي الله عنه - مع ما عُرف عنه من قوة الإيمان بالله وخشيته من مقامه سبحانه وتعالى، يخاف أن يحرفه تيار الغرور بإيمانه وتقواه وصلاحه، ويخشى مكر الله فيقول: والله لا آمن مكر الله ولو كانت إحدى قدمي في الجنة .

ويقول صاحب تفسير المنار - رحمه الله - في تفسير آية ﴿ **ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين** ﴾ ج٣، ص (٣١٥): « والمكر في الأصل: التدبير الخفي المفضي بالممكور به إلى ما لا يحتسب. ولما كان الغالب أن يكون ذلك في السوء - لأن من يدبر للإنسان ما يسره وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره - غلب استعمال المكر في التدبير السيئ، وإن كان في المكر الحسن والسيئ جميعًا .

ووجه الحاجة إلى المكر الحسن؛ أنَّ من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره لجهله، فيحتاج مربيه، أو متولي شئونه إلى أن يحتال عليه ويمكر به، ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل الوصول، إذ يوجد في الماكرين الأخيار والأشرار. وتدبيره سبحانه الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه، وإتمام حكمه. وكلها خير في نفسها، وإن قصّر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم، وسوء اختيارهم وإن كان في المكر خير. فمكره سبحانه وتعالى موجه إلى الخير. ومكرهم هو الموجه إلى الشر » .

والموتى أيضًا لا يجب أن نقطع بولايتهم وتقواهم، وإنما نحسن الظن بجميع المؤمنين ممن نعرف فضلهم وجهادهم في سبيل الله ونرجو الخير لمن عرفنا أنهم كانوا يطيعون الله ورسوله، ويسيرون على هدي الكتاب والسنة .

وقد روى البخاري عن خارجة بن زيد بن ثابت أن أم العلاء - امرأة من الأنصار ممن بايعوا الرسول - ﷺ - أخبرته أنهم اقتسموا المهاجرين أول ما قدموا عليهم بالقرعة.

قالت: فطار لنا -أي كان من نصيبنا- عثمان بن مظعون من أفضل المهاجرين وأكابرهم وممن شهد بدرًا فاشتكى، فمرضناه، حتى إذا توفي، وجعلناه في ثيابه، دخل علينا رسول الله ﷺ، فقلت: رحمة الله عليك يا أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله تعالى. فقال لي رسول الله ﷺ: «وما يدريك أن الله أكرمه»؟ فقلت: لا أدري بأبي أنت وأمي يا رسول الله. فقال رسول الله ﷺ «أما عثمان فقد جاءه اليقين، والله إني لأرجو له الخير، ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» قالت: «فوالله لا أزكي أحدًا بعده أبدًا».

فهذا الرجل «عثمان بن مظعون رضي الله عنه» كان من المهاجرين الذين جاهدوا وأوذوا في سبيل الله، وهو من المغفور لهم ؛ لأنه شهد بدرًا. ومع ذلك فعندما زكته أم العلاء وشهدت بإكرام الله له نهاها الرسول عن المدح والتزكية، بل ونفى عن عمله ما سيفعل به هو نفسه! فكيف بنا اليوم نمجد من لا نعرف عنه شيئًا. ونمدح من نجهل تاريخهم وحياتهم؟ بل ونرفعهم إلى درجة التقديس والعبادة!!.

وقد ذكر لنا القرآن شروط الولاية وكيفيتها، وعرفنا من هم الأولياء، والصلة التي تربطهم بالله خالقهم، وبالرسول الذي أرسل إليهم، وتربط بعضهم ببعض، كل ذلك ذكره القرآن لنا حتى نكون على بينة من الحق والباطل.

الأولياء الحقيقيون: وأولياء الله الحقيقيون، لا يعلنون عن أنفسهم ؛ لأن الولاية الحقة إنما تكون في القلوب إيمانًا وتقوى. ولا يظهر لها آثار معروفة أو ملموسة إلا استقامة وحبًّا لله ولرسوله، وانقيادًا لأوامر الدين واجتنابًا لنواهيه، والأولياء، هم الذين آمنوا بالله إيمانًا صادقًا، وعرفوه حق المعرفة فتمسكوا بكتابه وسنة رسوله، وعملوا الصالحات ابتغاء مرضاة الله، وتركوا السيئات مخافة غضبه.

وهم الذين آمنوا بسنن الله الكونية الجارية على كل خلقه، وهي الأخذ بالأسباب؛ والتوكل على الله، فساروا في دنياهم على هدى هذا الإيمان. وهم الذين عرفوا دين الله على حقيقته، فتولوه بالنصر والتأييد، فبلغوه للناس بأمانة وحق - كما أمر الله - فلم يكتموا من أمره شيئًا نفاقًا أو مجاراة أو خوفًا من لومة لائم مهما أصابهم في سبيل ذلك من إساءة وأذى، لاعتقادهم أن ما يصيبهم في سبيل الله هو في الحقيقة اختبار لهم، وتمحيص لإيمانهم، وهم الذين كفروا بدين الشيوخ وما سار عليه أكثر الناس. ولم يربطوا عقائدهم بما عليه الأهل والعشيرة من العادات والبدع والخرافات الموروثة عن جهل وتقليد.

الله ولي الذين آمنوا: والأولياء، هم الذين أحبوا الله فأفردوه بالعبادة الخالصة، وأحسنوا التوكل عليه، واتخذوه وحده وليًا لهم ونصيرًا كما يقول تعالى: ﴿**الله ولي الذين**

آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور﴾ [البقرة: ٢٥٧] .

وكما قال جل شأنه: **﴿قل أغير الله أتخذ وليًا فاطر السموات والأرض وهو يُطعم ولا يطعَم . قل إني أمرت أن أكون أول من أسلم ولا تكونن من المشركين﴾** [الأنعام: ١٤].

المؤمنون بعضهم أولياء بعض: والمؤمنون يتخذون بعضهم أولياء بعض، وولايتهم لبعض؛ هي أن يناصر بعضهم بعضًا في سبيل إحياء دين الله، وإظهار الحق وإعلاء كلمته. والدفاع عن عقيدة التوحيد ومحاربة الشرك. ومقاومة البدع والخرافات المنتشرة في الناس باسم الدين، وأن يعاون بعضهم بعضًا فيما يعود عليهم بالخير والنفع العام في أمور الدنيا ، وأن يستقيموا على دين الله، وأن يكون حبهم لله وحده.

هذه هي ولاية المؤمنين لبعضهم كما يحبها الله وكما بينها تعالى بقوله**﴿إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا. الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون﴾**[المائدة: ٥٥]. وقوله تعالى: **﴿إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض﴾** [الأنفال: ٧٢]. وقوله سبحانه: **﴿المؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة. ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزير حكيم﴾** [التوبة: ٧١].

لا يتخذ المؤمنون أعداء الله أولياء: وقد نهى الله جل شأنه المؤمنين أن يتخذوا أعداءه من الكافرين والمشركين أولياء، يتوددون إليهم لجلب منافع شخصية ويستعينون بأفكارهم ونظمهم في الحياة ويناصرونهم ضد إخوانهم المؤمنين الذين يعملون لإعلاء كلمة الله ونصرة الحق. وغير ذلك من كافة أنواع التعاون والمناصرة، خلافًا لما يحبه الله ويرضاه، وهؤلاء يقول الله تعالى عنهم : **﴿الذين يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين أيبتغون عندهم العزة . فإن العزة لله جميعًا﴾** [النساء: ١٣٩] ويقول جل وعلا: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض . ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين﴾** [المائدة: ٥١] ، ويقول سبحانه وتعالى: **﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوي وعدوكم أولياء تلقون إليهم بالمودة﴾** [الممتحنة: ٦] .

هؤلاء هم الأولياء الحقيقيون وموقفهم تجاه دين الله في العمل به ونصرته، وعلاقتهم مع الله سبحانه باتخاذه وحده وليًا لهم، وعلاقتهم مع بعض بما يحقق التعاون معهم والتأييد لهم، وعلاقتهم مع أعداء الله حتى لا يشدوا أزرهم ويكونوا نصراء لهم وعونًا معهم على المؤمنين . وهكذا فهم السلف الصالح الولاية وطبقوها على أنفسهم تطبيقًا صحيحًا فكانوا

أولياء صادقين لا أولياء كاذبين كما يدعي صناع الولاية ومحترفي الضلال في هذا الزمان.

أولياء الخيال: ويكشف لنا الشيخ رشيد رضا جوانب هامة من حياة هؤلاء الأدعياء فيقول في كتابه: تفسير المنار تحت عنوان: «أولياء الخيال وأولياء الطاغوت والشيطان»: فأولياء الله الذين يشهد لهم كتابه بالولاية له هم المؤمنون الصالحون المتقون، ولكن اشتهر بين المسلمين بعد عصر السلف ما يدل على أن الأولياء عالم خيالي غير معقول لهم من الخصائص في عالم الغيب والتصرف في ملكوت السموات والأرض فوق كل ما ورد في كتاب الله وأخبار رسوله الصادقة في أنبياء الله المرسلين. بل فوق كل ما وصف به جميع الوثنيين آلهتم وأربابهم التي اتخذوها من دون الله، وينقلون مثل هذه الدعاوى عن بعض من اشتهروا بالولاية ممن لهم ذكر في التاريخ ومن لا ذكر لهم[1] إلا في كتب الأولياء الذين فُتن المسلمون والمسلمات بهم ممن يسمون (المتصوفة) و(أهل الطريق)، ينقلون عنهم ما يؤيدون به مزاعمهم الخرافية الشركية.

ولئن أنكر عليهم منكر، واحتج عليهم بكتاب ربهم، وحديث نبيهم مفسر أو محدث ليقولن: هذا ضال مضل منكر للكرامات مخالف للقرآن، وقرأوا عليه ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [يونس: ٦٣].

وهل هذه الآية إلا كقوله تعالى: ﴿**إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحًا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾ [البقرة: ٦٢].

هذه الولاية الخيالية المبتدعة من محدثات الصوفية ألبسوها ثوب الشريعة وجعلوا للشريعة مقابلاً سمَوه الحقيقة[2]، ثم صاروا يلبسونها عليها لبسًا، ويبعدون بها عنها معنى وحسًا بقدر ما يبعدون عن الاتباع ويوغلون في الابتداع، تأمل ما كتبه الشعراني في ترجمته للذين يسمونهم «الأقطاب الأربعة»[3]، فإنك لا تجد فيما كتبه لأحد منهم أنه كان

---

(١) هم أمثال البدوي، والدسوقي، والرفاعي، والشعراني. وغيرهم من الأولياء الخياليين.

(٢) قسم شيوخ الصوفية الدين إلى «حقيقة وشريعة» فالشريعة هي المثلة في الأحكام الفقهية التي يسير عليها العامة. أما الحقيقة فهي زندقة الحلول أو الاتحاد أو وحدة الوجود، وهذا باطل من القول وزور. فإن الإسلام لم يأت بحقيقة يختص بها قومًا دون آخرين. بل الإسلام جاء للناس جميعًا بالشريعة. وهي الرسالة التي بعث الله بها رسولنا محمداً - صلى الله عليه وسلم - وقال تعالى له: ﴿ثم جعلناك على شريعة من الأمر فاتبعها ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون﴾ [الجاثية: ١٨] وليس من الحقيقة أن الله يحل في الكائنات، أو يتحد بها. وإنما هو من الكفر السحيق.

(٣) هم الذين يزعم الناس أنهم يصرفون الكون وهم: البدوي، والدسوقي، والرفاعي، والجيلاني، ورئيستهم صاحبة الشورى زينب. وزينب - رضي الله عنها - كانت تحارب هذه المعتقدات الخرافية وستبرأ يوم القيامة من هؤلاء المنحرفين عن شرع الله.

ينفع الناس بعلوم الشرع، وتجد أن الشيخ أحمد الرفاعي كان يوبخه علماء عصره، ويخاطبونه بلقب «الدجال» ويرمونه بالجمع بين النساء والرجال[١]، أما الدسوقي فكتب عنه أنه كان يتكلم بالعُجمى والسرياني والعبراني والإفرنجي والزنجي وسائر لغات الطيور والوحوش. ونقل عنه كتابًا من هذه اللغات أرسله إلى أحد مريديه، وهو خلط مخترع، ومنه قوله: أموز الرموز. عموز النهوز. سلاحات أفق فردانية أفق. شوامق اليرامق . حيد وفرقيذ. . . إلخ. فما معنى هذا، وأي فائدة للناس فيه .

ومما كان يقوله الدسوقي للمريد: « . . . . وأن الله عز وجل خلقني من نور رسول الله - ﷺ - ، وقال لي رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يا إبراهيم سر إلى مالك وقل له: يغلق النيران، وسر إلى رضوان وقل له: يفتح الجنان، ففعل[٢] مالك ما أمر به ورضوان ما أُمِرَ به. . . إلخ» وله ما هو أغرب منه: «راجع : تفسير المنار صفحة ٤٢٠، وما بعدها، جزء ١١» وقد نقلناه باختصار .

وليٌّ ضال عن سبيل الرسول: وقال الشيخ صاوي في حاشيته على الخريدة البهية وهي من كتب العقائد المشهورة التي تدرس بالمعاهد الدينية، قال في ترجمة أحمد البدوي وهو يتكلم عن التصوف والأقطاب الأربعة: «قال المناوي: أصله من بني بري قبيله من عربان الشام: وعرف بالبدوي للزومه اللثام ولم يتزوج، واشتهر بالعطَّاب لكثرة عَطْبه من يؤذيه، ثم لزم الصمت فكان لا يتكلم إلا بالإشارة، وكان يمكث أربعين يومًا لا يأكل ولا يشرب ولا ينام، وأكثر أوقاته شاخصًا ببصره نحو السماء، وعيناه كالجمرتين. . إلى أن يقول: وكان رضي الله عنه إذا لبس ثوبًا أو عمامة لا يخلعها لا لغسل ولا لغيره حتى تبلى».

تأمَّل أيها القارئ العزيز هذا الجانب من حياة البدوي، ثم اقرأ حياة رسول الهدى محمد - ﷺ - لتعرف مدى بُعد حياة البدوي عن حياة الرسول. فالبدوي لم يتزوج، وكان لا يأكل ولا ينام أربعين يومًا، وكان لا يؤدي الصلوات الخمس المفروضة على كل

---

(١) راجع ترجمة أحمد الرفاعي في «الطبقات الكبرى» ص ١٥٩، ج١ .

(٢) يقول الله تعالى لرسوله الكريم - وهو سيد ولد آدم (ليس لك من الأمر شيء) ويقول الرسول - صلى الله عليه وسلم - في الحديث «والله ما أدري وأنا رسول الله ما يفعل بي» .

ومفهوم من الآية الكريمة والحديث أن الله تعالى هو صاحب الأمر في شأن الجنة والنار، فهل نصدق هذا أم نصدق قول إبراهيم الدسوقي الذي يفتري الكذب على رسول الله حين ينسب إليه أنه أمره بالسير إلى مالك ليغلق النار. وأمره بالسير إلى رضوان ليفتح الجنة؟!! .

ولو كان هذا الصوفي المجازف يعرف رسول الله وقرأ حديثه «من كذب علي متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار» ما تجرأ على أن ينسب إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - مثل هذا الزور والكذب والبهتان

مسلـم ومسلمـة، ومع ذلك لا يجب على مسلم أن يرى هذا المنكـر من البدوي ويعـترض عليه.

أما الرسول - ﷺ - فقد بين لنا في هذا الحديث سنته المطهرة، ومناهجه الرشيدة في الزواج، والأكل، والشرب، والنوم، والصـلاة، والصوم، ليسـير على هدي نورها كل من يدين بدين الإسلام، ويعتنق مبادئه القويمة.

روى البـخاري ومـسلم أن ثلاثة رهط جـاءوا إلى أزواج النبي - ﷺ- يسـألون عن عبادة النبي - ﷺ - فلما أخبروا بها، كأنهم تقالوها. فقالوا: أين نحن من النبي - ﷺ-؟ وقد غفـر له ما تقدم من ذنبه وما تأخـر، فقال أحدهم: أما أنا فـأصلي الليل أبداً، وقال الآخر: وأنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقـال الآخر: أنا أعتزل النسـاء فـلا أتزوج، فسمع بهم النبي - ﷺ - فقال: «**أنتم الذين قلتم كـذا وكذا، أمـا والله إني لأخشاكم لله وأتقـاكم له، ولكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني**».

هذه هي حـياة الرسـول - ﷺ - التي أمرنا باتبـاعهـا كمـسلمين، وهذه هي حـياة البدوي الذي أعرض بضلاله عن حياة الرسـول، وبعد عن سنته... ومع ذلك فقد جعلوه وليًا، وغدًا قبره اليوم في طنطا محط أنظار طلاب الحاجات، وكعبة راغبي الكرامات.

ويمضي الشيخ صاوي في ترجمته عن البدوي فيقول: واجتمع به ابن دقيق العيد فقال له: إنك لا تصلي، ما هذا سنن الصالحين؟ فقال له: اسكت وإلا طـيرت دقيقك! ودفعه. فإذا هو بجزيرة مـتسعة جدًا، فضـاق ذرعًا حتى كاد يهلك فرأى الخضـر فقال له: لا بأس عليك: إن مثل البـدوي لا يُعترض عليـه، اذهب إلى هذه القبة وقف ببـابها فإنه سـيأتيك العصر ليصلي بالناس، فتعلق بأذياله لعل أن يعفو عنك، فعل فإذا هو ببابه[1] - مات سنة ٦٦٥هـ رضي الله عنه وعنا به.

البدوي في ميزان التاريخ: وهذا ما كتبه المهـتمون بأمور الدين عن البدوي من الزاوية الدينية، كصوفي وشيخ، لعب ضريحه المقام بطنطا دورًا هامًا في حياة البيئة الإسلامية وأثر في اتجاهاتهـا العقائدية. وقـد أراد المهتمـون بذلك الكشف عن حقـيقة العـقائد التي تملأ وجدان الألوف من البشر الذين يقصدون ضريح البـدوي كل عام للتبرك وقضاء الحاجات، إذ غدا في اعتقادهم أقوى سكان الأضرحة نفوذًا، وأكبرهم سلطانًا، وأوسعهم شهرة.

لكن هناك من الباحـثين من تناولوا سيرة البدوي من الـناحية التاريخـية، فأرادوا أن يجلوا لجمـاهير المسلمين شـخصيـة هذا المعبود، ويكشـفوا لهم حـقيقـته من واقع تتبـعهم

(١) لو كان لمثل هذا الكذب الفاضح أساس من الصحة لذكره الشيخ ابن دقيق العيد في أحد مؤلفاته الكثيرة.

لاتجاهاته مع تطور الأحداث السياسية التي عاصرته ، حتى يعرف المتعلقون به من هو البدوي، ولماذا جاء إلى مصر، وإلى أي هدف كان يرمي، وما أسفر عن إقامته بمصر من أهداف .

تقول كتب التاريخ : إن العلويين عندما أرادوا أن ينتزعوا الحكم ليعيدوا مجدهم الذاهب، وتستمر الخلافة الإسلامية « علوية قرشية » اعتمدوا على دعوة التصوف ليصلوا إلى هدفهم المنشود، إذ كان الفاطميون قد حكموا البلاد وبفعلهم وضح نفوذ التصوف في ذلك الوقت في المجتمع الإسلامي كظاهرة اجتماعية، وأصبح لشيوخ الصوفية قوة في الهيمنة على النفوس والتأثير فيها، وإخضاعها لتسير في اتجاهاتها .

استغل العلويون دعوة التصوف فكوّنوا العصبيات من الدراويش والمجاذيب والأسرات العلوية، وخرج هؤلاء وأولئك يجوبون الأقطار العربية رسلاً للعلويين، ممن اعتمد عليهم العلويون في دعوتهم : أبا الفتوح الواسطي الذي كان من تلاميذ أحمد الرفاعي صاحب الطريقة الرفاعية بالعراق، فتوسم فيه العلويون ذكاء وخبرة لحمل راية الطريق، فندبوه للسفر إلى مصر لينهض بأعباء تلك الدعوة تحت ستار التصوف والدروشة، فنزح الواسطي من واسط عام ٦٢٠هـ إلى مصر لكنه آثر البقاء بالإسكندرية ليكون بعيداً عن عيون الحاكمين. ثم توفي، ففجع العلويون في خادمهم الأمين، ومن ثمّ كان عليهم أن يبحثوا عن داعية آخر غير الواسطي يتسلم راية الطريق، فكلفوا بذلك السيد أحمد البدوي للسفر إلى مصر، إذ توسموا فيه البراعة والقدرة كسابقه الواسطي، وخاصة أن له خبرة سابقة بمصر .

كان أحمد البدوي ذكيًا لماحًا، فبعد أن هاجر إلى مصر عرف أن الأيوبيين الذين يحكمون البلاد يترصدون لكل حركة مضادة لهم، كما أن الإسكندرية - كغيرها من الثغور - كانت موضع مراقبتهم الشديدة احتياطًا لما قد يقع من الصليبيين عليهم من غارات .

لهذا كله كان البدوي حذراً بعيد النظر فآثر أن يتخذ طنطا(١) داراً لمقامه الدائم بعيداً عن عيون السلطان، وليكون في مكان وسط البلاد، وقريبًا من مركز سلفه الواسطي الذي خلف تركة من الدراويش والسيرة، لأن طنطا تتوسط القاهرة والإسكندرية .

وفي طنطا أقام البدوي في سطح يُسمى بأبي شحيط، وفي هذه الدار كان البدوي يمارس أعمال التصوف من قراءة أوراد ورياضيات وشطحات، وكان يجتمع بمريديه وأتباعه ويزودهم بتعاليمه ودعوته، ثم يتفرقون في أنجاء البلاد، يحدثون الناس بمناقب السيد، وينشرون تعاليمه، ويرددون كراماته . وعلى مر الأيام صار البدوي ملء الأسماع والأفواه،

---

(١) ويقال : إن طنطا قد عينت له من قبل العلويين. ليتخذها مقراً لنشر دعوته لإبعاد الأنظار عن هدفه الحقيقي. راجع : كتاب : السيد البدوي. أو : دولة الدراويش في مصر، للأستاذ محمد فهمي عبد اللطيف .

وبهذا تمكن البدوي من أن يصرف أنظار الحاكم عن مركزه كداعية للعلويين؛ لأنه في الحقيقة لم يكن دجالاً ولا مشعوذًا، ولم يكن شخصية خرافية أسطورية كما صوره أتباعه الدراويش من أنه كان يشرب ماء البحر كله، ويمد يده فيأتي بالأسرى من وراء البحر، ويحمل البيت على ظهره، وغير ذلك من الخرافات والأساطير التي هوَّل بها الدراويش للتضليل والتموية. ولم يكن البدوي كذلك ملازمًا للخلوة بالسطح للاستغراق في الوجد والحياة في الزهد والتعبد والمكاشفة -كما تحكي عن ذلك كتب المناقب- لم يكن البدوي حقيقة كذلك، بل كان رجلاً حاذقًا ماهرًا لاعبًا لأدوار سياسية كبيرة، ولهذا كان مكلفًا بوضع نظام دقيق محكم تتمثل في التصوف ليغلف بها نطاق دعوته في كل أنحاء البلاد والأقطار العربية لصالح العلويين، لكن البدوي وافته منيته قبل أن يستكمل دوره السياسي في عودة العلويين إلى الحكم .

ولي يسرق ليعيش: ونشرت جريدة الجمهورية(١) كلمة لأحد محرريها ملخصها أن أحد قطاع الطرق أراد أن يبحث عن عمل آخر غير احتراف السلب، وتهديد أرواح الناس، ففكر في مزاولة جريمة سلب أموال الناس في ميدان آخر ليكون في مأمن من يد القانون، وتشاور الرجل في الأمر مع أفراد عصابته وأخيرًا استقر رأيهم على أن يدعي قاطع الطرق أنه «ولي من أولياء الله الصالحين، فيطلق لحيته، ويلبس زي الدراويش، كما اتفقوا أيضًا أن يقوم أفراد العصابة بأدوار المريدين، وأن يسيروا في ركاب «ولي الله» ليروجوا بين الناس معجزاته. ولكي يؤمن الأهالي له ويشهدوا له ولو بمعجزة واحدة، اقترح قاطع الطريق أن يسرق رجاله محراثًا كان يمتلكه شيخ القرية، وأن يقوموا بتخبئته في مكان معلوم من الترعة، وسوف يقوم المريدون بالدعاية للولي في القرية، ويدَّعون أنه يعرف الغيب، وعندئذ سوف يأتيه شيخ القرية ليرشده إلى المحراث المسروق، وسوف تتم هنا المعجزة المنشودة حين يحقق ولي الله أمل صاحب المحراث، وبعدها سيصبح قاطع الطرق في معتقدات الأهالي «من أولياء الله»، ثم تتدفق عليهم جميعًا العطايا .

وقام رجال العصابة بتنفيذ الفكرة، وحدث ما توقعوه، وكبّر الأهالي وهللوا، فقد أصبح الشيخ محققًا للمعجزات، وكان جوهرها قائمًا على سرقة المحراث وتخبئته .

أولياء وهميون: وهناك صنف آخر من الأولياء الوهميين الخياليين الذين لا يعرف الناس عنهم شيئًا سوى أنهم وجدوا آباءهم يعظمونهم فمشوا هم أيضًا في طريق الآباء والأجداد .

وقد كشفت الأيام الغطاء عن «وَلِيَّة خيالية» وضعها سدنة القبور، ليحجبوا عن أعين

---

(١) راجع اليوميات المنشورة بهذه الصحيفة بتاريخ ٢١/٧/١٩٥٩م .

الناس الحقيقة التي كانت مختفية تحت ذلك الضريح الوهمي، هذه الحقيقة التي روت للناس قصة آلاف التوابيت التي وُضعت على الخيال والوهم .

فقد قرر المسئولون عام ١٩٥٩م هدم[١] مبنى محافظة القاهرة بناحية باب الخلق لبنائه من جديد، وكان المبنى القديم يضم في أحد أركانه ضريحًا[٢] أطلق عليه اسم « الشيخة سعادة » وادعى سدنته أنها ابنة الحسين – رضي الله عنه – وبعد أن تم هدم المحافظة نفسها جاءت الفئوس لتأتي على بقية المبنى، وهو الركن الذي يضم الضريح، وانتشر خبر هدم الضريح في حي « درب سعادة » والأحياء المجاورة له، وسرعان ما تجمع الأهالي والمضللون وأحاطوا بالضريح على عادتهم في مثل هذه الحوادث، راح المبطلون وغيرهم يتناقلون عن بعضهم – في جهل وتقليد – ما توارثوه من كلام سخيف غير معقول حول الضريح، فمن قائل: إن العامل الذي بدأ في الهدم شُلَّت يداه[٣] أو كسرت يد فأسه، وغير ذلك من الأراجيف والمفتريات التي تعودوا إذاعتها في مثل هذه الحالات .

أما سادنة هذا الضريح فلم تنس هي الأخرى أن تطلق عدة شائعات، وكيف تنسى وقد هزتها الصدمة وزلزلت كيانها بسبب هدم الضريح، فقد كان مورد رزقها الوحيد، ومما كانت تحكيه السادنة عن مآثر وكرامات الشيخة المزعومة أن مهندسًا حاول قبل الآن هدم الضريح، وفوجئ في اليوم الثاني بقرار نقله إلى الصعيد .

وبينما الناس مشغولون بقصة الضريح كانت الفئوس تنزل بالحفر إلى مسافات كبيرة، وأخيراً لم يجد المسؤولون في الضريح شيئًا سوى بقايا ساقية وبعض المواسير والأسلاك الكهربائية والأحجار، وحسبنا أن هذه الأشياء قد أدانت أهالي « درب سعادة » وكل جاهل يؤمن بكرامات سكان الأضرحة ودمغتهم بعبادة الأحجار، وفضحت سدنة القبور الذين يعيشون من وراء ذلك عيشة لا نصب فيها ولا عرق .

وجدير بالذكر أن مكان هذا الضريح أصبح الآن ممراً للمبنى الجديد لمحافظة مصر .

---

(١) لو لم يشرع المسئولون في هدم مبنى المحافظة القديم لظل هذا الصنم الوهمي مقصداً لطلاب الحاجات مدى الحياة تحت سمع وبصر شيوخنا الأجلاء الذين يعلمون جيداً أن هذا الضريح وغيره مبني على معصية الله. وقائم على الوهم .

(٢) اقرأ قصة هذا الضريح كاملة بالصحف المصرية الصادرة يوم ١٨ / ٢ / ١٩٦٢م، واقرأ أيضًا قصة ضريح « الشيخ الدياصي » بجهة كرداسة بمجلة آخر ساعة عدد ٢٠ / ٨ / ١٩٥٨م؛ التي روت فساد الطرق الصوفية في الريف وطالبت بالقضاء على الأضرحة الوهمية .

(٣) نحن نعرف أن الكرامة التي يتفضل الله بها على العبد الصالح تجلب له ولغيره الخير، ولكن كرامات « الشيخة سعاد » كانت من جنس آخر، إنها كرامات تشل الأيدي وتنفي الناس، وتصنع العجائب .

وقد نشرت الصحف وقتذاك تصريحًا للشيخ سيد سابق مدير الثقافة بالأوقاف أن هناك شيخًا اسمه «الأربعين» له عدة أضرحة في أماكن متفرقة بمصر، وأنه لا يوجد شيخ بهذا الاسم، وأنه يجب تعليم الشعب أن هذه الأضرحة لا تضر ولا تنفع، فليت سكان السويس الأفاضل يقتنعون بهذه الحقيقة، وينصرفون عن هذا الولي الوهمي وغيره من الأولياء الذين أحبوهم وقدسوهم!!.

كرامة أبي الدرداء: ولأبي الدرداء ضريح وهمي، وله أيضًا قصة تحمل في طياتها كرامة خيالية كان - وما زال - لها شأن كبير عند أهالي الإسكندرية .

ففي الإسكندرية شارع باسم أبي الدرداء، يتوسطه الضريح المنسوب إليه والذي يمر بهذا الشارع يلاحظ أن ضريح أبي الدرداء يتوسطه بشكل شاذ كما يلاحظ أن الترام يتجه في ذهابه وإيابه عن يمين وشمال الضريح، والسبب في هذا الوضع الشاذ الغريب، أنه عندما فكرت بلدية الإسكندرية في توسيع هذا الشارع، ورأت أنه من الضروري إزالة ضريح أبي الدرداء، ونقله إلى مكان آخر حتى لا يتوسط الشارع فيعوق حركة المرور، وشرعت البلدية فعلاً في تنفيذ الفكرة، لكن أحد الذين كانوا يشتغلون في نقل الضريح توقف عن العمل بفعل الإيحاء والوهم، إذ تذكر العامل ما كان يشيعه المغرضون من قبل من أن الأولياء الصالحين لهم كرامات تصيب بالأذى كل من يتعرض له بشيء. . . لذلك اعتقد العامل أن صاحب هذا الضريح - وهو ولي كبير - ربما سيصيبه في نفسه أو أولاده إن استمر هو في حفر القبر، فتوقف عن العمل خشية المكروه الذي توهمه، وادعى أن يده قد شُلت، ورآه زملاؤه فتوقفوا عن العمل أيضًا حتى لا يصيبهم ما أصاب زميلهم من الولي الكبير صاحب الكرامات . . وحينذاك أيقنوا أن الشيخ يأبى أن يُنقل جثمانه من مرقده هذا.

وسرعان ما شاع في سكان الأماكن المجاورة للشارع، أن الشيخ أبا الدرداء رفض أن يُنقل جثمانه من مكانه ، وأنه أظهر كرامته فأصاب أحد العمال في يده بالشلل وتوقف باقي العمال عن مواصلة العمل خوفًا من أن تصيبهم كرامة الشيخ بسوء .

وإن هُن إلا دقائق حتى امتلأ شارع أبي الدرداء بجمهور غفير من الناس، كل منهم يحاول أن يشهد عن كثب ما حدث بعينيه: رفض الشيخ لنقل جثمانه من مثواه هذا، وإصابة العامل بالشلل، ولم ينته الأمر عند هذا الحد، بل انطلقت ألسنة المضللين تنفث السموم في نفوس العامة، فأخذوا يروجون في أوساطهم كلامًا فارغًا يحمل صورة التهويل والمبالغة لما حدث ليجعلوا أهميته وخطورته وقدسيته .

وعقول العامة مرنة فارغة تنخدع بكل خديعة، وتصدق كل فرية، وسرعان ما ثبت

في أذهانهم ما روجه دعاة الباطل، فكانوا هم أيضًا أبواق وشائعات .

وانطلى ما أشاعه المضللون ، ورددته العامة حول أبي الدرداء، على المسؤولين في البلدية، فانخدعوا هم أيضًا وأذعنوا لاعتقاد العامة، وقرروا الإبقاء على الضريح وسط الشارع - كما هو بهذا الشكل الشاذ الغريب - وتم توسيع الشارع من الجانبين .

ويلاحظ المار بالشارع أن راكبي الترام في ذهابهم وإيابهم يؤدون لسيدهم أبي الدرداء تحية واجبة، ويقرأون الفاتحة، التماسًا لبركات صاحب الكرامة .

هذه هي قصة ضريح أبي الدرداء. . وقصة الكرامة التي نسجها حوله المغرضون والعامة الساذجون. . فمن هو أبو الدرداء؟

ذكرت المراجع التي أرخت له أن اسمه عُويمر، أو عامر بن عبد الله، ولما خرجت جيوش الإسلام لفتح مصر خرج معهم الصحابي أبو الدرداء، كما شارك الصحابي الجليل في فتح الإسكندرية، ولكنه لم يقم بها طويلاً ، إذ سافر إلى الفسطاط ليشارك في بناء قبلة جامع عمرو بن العاص مع بعض الصحابة، منهم الزبير بن العوام، والمقداد بن الأسود، وعبادة بن الصامت، والمعروف أن جامع الفسطاط بُني عام ٢١هـ بعد فتح الإسكندرية، ومن هنا يتضح أن أبا الدرداء لم يقم بالإسكندرية إلا مدة يسيرة، ثم غادرها إلى الفسطاط للمشاركة في تجديد وبناء قبلة جامع عمرو بن العاص .

ثم تذكر المراجع أيضًا أن معاوية عين أبا الدرداء - رضي الله عنه - قاضيًا لدمشق بأمر عمر بن الخطاب، فأحبها وأقام بها، وأنه كان ضمن حملة خرج بها معاوية بن أبي سفيان لفتح جزيرة قبرص، وانتصر فيها المسلمون، كما ذكرت المراجع الكثيرة التي أرخت له أنه مات بدمشق، ودفن بها، وأن قبره وقبر زوجته معروفان بباب الصغير بدمشق .

ويقول العارفون ببواطن الأمور: أن من المرجح أن يكون ضريح أبي الدرداء قد بُني في وقت ما كمبنى تذكاري، بناه أهل الإسكندرية اعتزازًا منهم بذكرى هذا الصحابي الجليل الذي شارك في فتح مدينتهم، وأقام بها مدة ما بعد الفتح، ومع مضي الزمن اعتقد الناس أن هذا ضريحه، وسرت الشائعة بأنه مات بالإسكندرية، ودُفن بمكانه هذا، ثم توارث الناس عن آبائهم هذا الاعتقاد .

وقصة الضريح المنسوب لأبي الدرداء - رضي الله عنه - مشابهة تمامًا لقصة عمود السواري الذي أقامة السكندريون تذكارًا لزيارة الإمبراطور: قلديانوس لهذه المدينة [١].

---

(١) راجع مقال الدكتور: جمال الدين الشيال عن الصحابي الجليل أبي الدرداء «بالمجلة» التي تصدرها وزارة الثقافة والإرشاد القومي، عدد يناير ١٩٥٧م، ص (٩٥) .

فما رأي أهالي الإسكندرية الأفاضل بعد أن قدمنا لهم هذه الحقائق التاريخية الثابتة التي تنفي وجود جثمان أبي الدرداء بمدينتهم؟! ما رأيهم فيما قدمنا لهم من حقائق دامغة، ووقائع لا تحتمل الشك والجدال؟! هل يقتنعون؟! . نرجو ذلك .

الشيخ يوسف الفرنسي: وفي دمياط أيضًا ضريح وهمي، ظل أهل دمياط يُجلونه ويقدسونه ويتبركون به مدة كبيرة من الزمن، ثم تكشفت لهم حقيقته المرة حول وليّهم المقدس، فقد أوردت صحيفة الجمهورية خبر هذا الضريح بباب «حديث المدينة» المنشور ١٣/ ٩/ ١٩٦٣م، وتهكم محرر الباب في نهاية الخبر على الضريح الوهمي، وعلى أحبائه وعشاقه، قال الخبر: «الشيخ يوسف الذي ظل الدمايطة يتبركون به باعتبار أنه من أولياء الله الصالحين. اتضح أنه ضابط فرنسي من أيام الحملة الفرنسية . . . بُنيت عشش للمصطافين فوق ضريحه المبارك!» .

وتضيق صفحات الكتاب عن ذكر الأضرحة العديدة التي نبشت ، ولم يوجد تحتها أي جثمان ولا أثر له، وقد دلَّ هذا على أن حب الناس وتقديسهم لهذه الأضرحة الخيالية كان عن ظن وهوى ﴿**إن يتبعون إلا الظن وما تهوى الأنفس**﴾ [النجم: ٢٣] .

الولاية لكل إنسان في كل زمان: يقولون : لا يستطيع أحد من المسلمين اليوم أن يكون وليًا، فنحن مهما حاولنا أن نتمسك بالدين فلا يمكننا الوصول إلى الدرجة التي بلغها الأولياء والصالحون السابقون .

ونرد عليهم فنقول: من أين لكم أن أحدًا من المسلمين لا يستطيع اليوم أن ينال الولاية، هل لديكم دليل من كتاب أو سنة؟! إنكم بهذا الكلام تغلقون على الناس أبواب الهداية والخير، وتباعدون بينهم وبين معرفة الله، كما عرفه السابقون لينالوا وعد الله وجزاءه للمؤمنين، كما قال تعالى: ﴿**من عمل صالحًا من ذكر أو أنثى وهو مؤمن فلنحيينه حياة طيبة ولنجزينهم أجرهم بأحسن ما كانوا يعملون**﴾ [النحل: ٩٧] .

والولاية ليست وقفًا على المسلمين الأولين وحدهم، كما يعتقد أكثر الناس، بل الولاية في متناول كل إنسان صالح في كل زمان، والله تعالى لم يغلق بابها في وجه أحد من عباده اليوم، بل إن باب الولاية مفتوح لكل طارق، والطريق الموصل إليه واضح مليء بالنور والحق ، ومفعم بالآيات الهاديات المنجيات، وفي وسع كل إنسان صادق النية في الهداية أن يحظى بشرف الولاية، على شرط أن يتحقق فيه ركناها وهما «الإيمان والتقوى» وأن يكون مسلمًا قولاً وعملاً وحالاً مطيعًا لله ولرسوله، وملتزمًا سبيل السلف الصالح قدر إمكانه وقدر استطاعته .

إن أكرمكم عند الله أتقاكم: وشأن الأولياء الذين سبقونا بالإيمان وشأننا عند الله واحد، لأن الناس جميعًا في نظر الإسلام سواء، ولكن يتفاضل بعضهم عن بعض بالتقوى. كما قال تعالى: ﴿ **يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم** ﴾ [الحجرات: ١٣].

ويقول الرسول - ﷺ - في الحديث: «**لا فضل لعربي على عجمي إلا بالتقوى**»، ومطلوب من كل إنسان أن يكون وليًا لله، كما صرح الله في قوله تعالى: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ [الصف: ١٤].

ومطالبة المؤمنين بأن يكونوا أنصار الله هي مطالبتهم بأن يكونوا أولياء الله، لأن النصرة هي الولاية، ونصرة الدين هي ولايته بالتأييد والدفاع عنه، والعمل على سيادته ورفع شأنه وتكثير متبعي مبادئه وعقائده.

ويقول شيخ الإسلام أحمد بن تيمية - رحمه الله - في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان»: إذا عُرف أن الناس فيهم أولياء الرحمن وأولياء الشيطان فيجب أن يفرق بين هؤلاء وهؤلاء.

ومن حين بعث الله الرسول - ﷺ - جعله الله فارقًا بين أوليائه وبين أعدائه، فلا يكون وليًا لله إلا من آمن به وبما جاء به واتبعه باطنًا وظاهرًا، قال تعالى: ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران: ٣١]، فمن ادعى محبة الله ولم يتبع الرسول - ﷺ - فليس من أولياء الله، ولا يكون من أولياء الله، وإن كان كثير من الناس يظنون في أنفسهم أو في غيرهم أنهم من أولياء الله، ولا يكونون من أولياء الله.

وأولياء الله هم المتقون، هم المقتدون بمحمد - ﷺ - فيفعلون ما أمر به. وينتهون عما نهى عنه، فيؤيدهم الله بملائكته وروح منه، ويقذف في قلوبهم من أنواره، فأولياء الله كراماتهم: الحجة في الدين.

ويقول الآلوسي في غاية الأماني: إن الولاية والكرامة إنما تكون لصلحاء الأمة أهل التقوى والورع، وما أحسن ما في كتاب «أنباء الأبناء بأحسن الأنباء»: يا بني من رأيتموه يطير في الهواء، أو يمشي على وجه الماء، وقد خالف شيئًا من الشريعة الغراء، فذاك من أولياء الشيطان لا من أولياء الرحمن، فإياكم وإياه واشتغلوا عنه بتقوى الله.

ويقول الإمام الشاطبي في الاعتصام: الولاية وإن ظهر لها في الظاهر آثار، فقد

يخفى أمـرها؛ لأنها في الحـقيقـة راجعة إلى أمـر باطني، لا يعلمه إلا الله، فـربما ادعيت الولاية لمن ليس بولي، أو ادعاها هو لنفسه، أظهـر خارقة من خوارق العادات هو من باب الشعوذة لا من باب الكرامة، أو من باب السحر أو الخواطر أو غير ذلك .

● ● ●

الآيات الكونية والآيات المؤيدة للرسل والأنبياء

يقولون: إن بعض الأولياء الصالحين الموتى كانت لهم كرامات ظهرت على أيديهم وشاهدها الناس، وهذه الكرامات حدثت لهم جزاء إيمانهم وتقواهم.

ونرد عليهم فنقول: ليس من السهل اليسير أن يصدق ذو العقل المستنير ما يشيعه الناس عن بعضهم من ظهور معجزات أو كرامات على أيديهم، لأن الشرع لا يؤيد ما يزعمون، والواقع لا يقر ما يشيعون.

والقول بوجود كرامات أو معجزات يحكيها الناس ويتناقلها بعضهم عن بعض يحتاج إلى دليل يؤيده، وإلى برهان يثبته، ليجعله في منزلة اليقين الصحيح.

ولقد اختلطت الأمور على الناس اختلاطًا عجيبًا جعلهم يجهلون حقيقة المعجزات، فلم يفهموها على وجهها الصحيح، ليفرقوا بين المعجزات الحقيقية التي تأتي عن طريق الله وحده إتمامًا لرسالته إلى الناس، وبين الخرافات والأباطيل التي يخترعها الدجاجلة، ويسمونها معجزات ليضحكوا بها على عقول الناس لحاجة في أنفسهم.

والمعجزات المؤيدة للرسل والأنبياء والتي يمدهم بها الله تدعيمًا لرسالاتهم التي تخالف تمامًا آيات الله التي تجري على الخلق والكون، والتي تحدث كل يوم في حياتنا اليومية.

آيات الله الكونية: وهذا النوع من الآيات هو ما يعرف «بالآيات غير الخارقة للعادات» وهو الذي تسير عليه سنن الله في نظام الخلق والكون، وهي آيات كثيرة، وتدل بوضوح على عظيم قدرته، وبالغ حكمته، وكمال إرادته.

ومن هذه السنن: أن الإنسان يولد من رحم أمه بعد أن يمكث المدة المقررة في ظلمات بطنها، وأنه يولد طفلاً، ثم يصير صبيًا، ثم مراهقًا، ثم مدركًا، ثم شابًا، ثم كهلاً، ثم شيخًا هرمًا إذا قدَّر له أن يردّ إلى أرذل العمر.

وإن الإنسان إذا ألقى بنفسه في البحر دون أن يجيد السباحة، ودون أن يكون عنده وسيلة للنجاة، فلا بد من الغرق والهلاك. وإن الإنسان إذا مُنِعَ عنه الهواء النقي المحتوي على الأكسجين، فإنه ولا شك يفقد الحياة؛ لأنه فقد وسائل البقاء والحياة.

ومن هذه السنن أيضًا: أن الشمس تشرق من المشرق، وتغرب من المغرب، ولا يمكن

أن يحدث العكس، وأن الأرض تدور حول محورها أمام الشمس مرة كل ٢٤ ساعة، وتدور حول الشمس مرة كل ٣٦٥ يومًا .

هذه هي بعض السنن الكونية، والنظم الإلهية الثابتة، المحكمة الدقيقة التي ترتبط فيها الأسباب بالمسببات ، وتعتمد فيها النتائج على المقدمات، وهي لا يعتريها تبديل، ولا يطرأ عليها تغيير، ولو اجتمعت كل القوى المخلوقة لذلك فلن تستطيع كما يقول الله تعالى: ﴿**فلن تجد لسنة الله تبديلاً**﴾ [فاطر: ٤٣] .

حقيقة الآيات الخارقة للعادات: أما النوع الثاني فهو الآيات الخارقة للعادات - المعجزات- والتي تختلف عن الأمور التي تجري في حياة الناس، ويشاهدونها كل يوم، وهذه المعجزات خاصة بالأنبياء والرسل، وقد أمدهم الله بها لتأييد رسالاتهم، وبرهانًا على صدق دعواهم عند تبليغها لأقوامهم ليؤمن بها من رجح عقله، وسلم فهمه فيفوز ويسعد، ولإقامة الحجة القوية على المعاندين الكفار فتحق عليهم كلمة الله، وينالون عقابهم، وهذه المعجزات تقوم مقام قوله تعالى: «**صدق عبدي فيما يبلغ عني**» .

ومعجزات الأنبياء متعددة مختلفة جاءت لكل قوم بحسب ما يتقنون من علوم وفنون، وجاءت أيضًا فائقة عما برعوا فيه من فنون ومعارف حتى تكون الحجة قوية مفحمة مقنعة صادقة لا سبيل إلى الشك فيها والطعن أو الارتياب .

فمعجزة موسى - عليه السلام - كانت: العصا التي تحولت إلى حيّة تسعى وابتعلت إفك السحرة فآمن بها سحرة فرعون وخروا لله ساجدين، ويقول تعالى حاكيًا عنهم: ﴿**فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين. قالوا آمنا برب العالمين. رب موسى وهارون**﴾ [الأعراف: ١١٨-١٢٢] .

ومعجزة عيسى - عليه السلام - كانت: ولادته من غير الاتصال الجنسي كما يولد كل البشر، ثم : كلامه وهو طفل في المهد على خلاف الأطفال حين ينطقون شيئًا فشيئًا، ثم. . خَلْقُهُ طيرًا من الطين، ثم: إبراؤه الأكمه والأبرص، وإحياؤه الموتى، ثم: كلامه في الغيبيات بإخبار الناس بما يأكلون ويدخرون في بيوتهم، ويقول الله تعالى في شأن عيسى عليه السلام: ﴿ **إِذْ قَالَتِ الْمَلائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ (٤٥) وَيُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَمِنَ الصَّالِحِينَ (٤٦) قَالَتْ رَبِّ أَنَّىٰ يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمْسَسْنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكِ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُن فَيَكُونُ (٤٧) وَيُعَلِّمُهُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالإِنجِيلَ (٤٨) وَرَسُولاً إِلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُم مِّنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ**

الأَكْمَهَ وَالأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ٤٥-٤٩] .

ومعجزة رسولنا محمد - صلوات الله عليه - كانت: القرآن الكريم، والإسراء والمعراج، وانسياب الماء من بين أصابعه، وتسبيح الحصى في كفه... إلخ .

هذه الآيات الخارقة للعادة والتي كانت على خلاف السنن المعروفة للبشر هي المعجزات الحقيقة التي أمدَّ الله تعالى بها رسله وأنبياءه لتأييد رسالاتهم .

معجزات الرسل ليست من أفعالهم الاختيارية: وهذه المعجزات لم تكن كالأفعال الاختيارية والكسبية التي يأتيها البشر، والأنبياء لم يأتوها من تلقاء أنفسهم ولم يكن لهم فيها تأثير ولا إرادة بل الله القادر على كل شيء هو فاعلها ومعطيها، والآمر بها، وهو الذي أجراها على أيدي الرسل .

اقرأ ذلك في القرآن في خبر موسى - عليه السلام - حين تقهقر خائفًا لما خُيِّل إليه أن حبال السحرة وعصيهم تسعى، فقال له ربه: **﴿قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتى﴾** [طه: ٦٨: ٦٩] .

واقرأ قول الله لعيسى ابن مريم بأن ما يمده به من الآيات المعجزات كانت بإذنه هو وحده: **﴿وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيرًا بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني﴾** [المائدة: ١١٠] .

واقرأ أيضًا قول الله لرسوله حين رمى التراب على المشركين يوم بدر، إذ قال له: **﴿وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى﴾** [الأنفال: ١٧] .

واقرأ قول الله لرسوله ليرد على الذين اقترحوا عليه من قومه أن يأتيهم بالآيات ليؤمنوا، إذ قال: **﴿وإذا تتلى عليهم آياتنا قال الذين لا يرجون لقاءنا إئت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إليَّ إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم﴾** [يونس: ١٥] .

وهكذا يتضح لنا أن معجزات الأنبياء والرسل التي تحدوا بها أقوامهم ليست من عندهم، ولا من فعلهم، بل هي بأمر الله وحده، ولكن الأنبياء كانوا وسائل لوجودها في الأرض، وسبلاً لإبرازها للناس .

كمال الدين وانقطاع المعجزات: وبعد أن بين الرسول - صلوات الله وسلامه عليه- لنا ما أنزل الله للناس في كتابه من الهدى والحق والخير، وبعد أن انتهت حياته الطيبة وانتقل

إلى الرفيق الأعلى، انتهت كذلك المعجزات ؛ لأن الرسول هو خاتم الأنبياء، وهو المرسل للناس كافة، والدين الإسلامي هو الدين الناسخ لجميع الأديان السماوية السابقة، إذ لم تكن البشرية في حاجة إلى معجزات لتصديق دين آخر يصلح شئون الناس، وينظم حياتهم، ويرشدهم للتي هي أقوم، فالدين الإسلامي قد اضطلع بهذه المهمة السامية، وبمجيئه أكمل الله لنا الدين، كما قال سبحانه : ﴿**اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام دينًا**﴾ [المائدة: ٣] .

والرسول - صلوات الله وسلامه عليه - ترك لنا الدين تامًا غير ناقص، واضحًا غير غامض، فقال في الحديث: «**تركتكم على المحجة البيضاء، ليلها كنهارها، لا يزيغ عنها إلا هالك**» ، وقال أيضًا: «**مثلي ومثل الأنبياء من قبل كمثل رجل ابتنى بيتًا فأحسنه وأكمله إلا موضع لبنة من زاوية من زواياه، فجعل الناس يطوفون به ويعجبون منه ويقولون: ما رأينا بيتًا أحسن من هذا إلا موضع هذه اللبنة، فكنت أنا اللبنة**». صحيح البخاري .

• كرامات الصالحين :

حقيقة الكرامات: ومن الآيات الخارقة للعادة أيضًا: «الكرامات» وهي تكون للصالحين، وأهل التقوى الذين يأمرون بالمعروف، وينهون عن المنكر، ويخشون الله، وقد سبق الكلام عنهم.

والأصل في الكرامة: الإخفاء والكتمان، وهي تظهر سرًا ولا يعلم بها أحد، وذلك بخلاف المعجزات التي تكون معروفة للناس إظهارًا لدعوة صاحبها، وتأييدًا لرسالته .

وقد اتفق أهل السنة وغيرهم على أنه: لا يجب الاعتقاد بوقوع كرامة معينة على يد وليٍّ معين بعد ظهور الإسلام، ويجوز لكل مسلم - بإجماع الأمة - أن ينكر صدور أية كرامة من أي ولي كان، ولا يكون إنكاره هذا مخالفًا لشيء من أصول الدين، وقد فصَّل القول في هذا شيخ الإسلام أحمد بن تيمية في كتابه «الفرقان بين أولياء الرحمن وأولياء الشيطان» ، فقال: غاية الكرامة لزوم الاستقامة، فلم يكرم الله عبدًا بمثل أن يعينه على ما يحبه ويرضاه ويزيده مما يقربه إليه، ويرفع درجته .

وكرامات الأولياء لا بد أن يكون سببها الإيمان والتقوى، فمن كانت خوارقه لا تحصل بالصلاة والقراءة، والذكر وقيام الليل والدعاء، وإنما تحصل من الشرك مثل دعاء الميت، أو بالفسوق والعصيان، وأكل المحرمات، فهذه أحوال شيطانية . . . إلخ .

جهل الصوفية بالمعجزات والكرامات: جعل أدعياء العلم، وأولياء الشيطان هذا الأصل الثابت من عقائد الإسلام، فظنوا أن المعجزات والكرامات من الأمور الكسبية،

والأفعال الاختيارية التي تدخل في استطاعة البشر بحيث يفعلونها من تلقاء أنفسهم، وبمحض إرادتهم، وبهذا الجهل اعتقدوا أن الأولياء والصالحين يملكون القدرة على فعل المعجزات والكرامات، ويستطيعون الإتيان بها في أي وقت كما يشاءون، فأخذ الصوفيون الذين جهلوا حقائق الإسلام يدجلون ويزعمون للناس أن أولياءهم فعلوا (كذا وكذا) من الكرامات والمعجزات .

وجاء قوم على شاكلتهم فدونوا في كتبهم هذا الضلال والزيف، بل ودانوا بكل ما جاء في هذه الكتب التي تحوي أموراً بعيدة عن الحق والصواب، وتجافي التفكير السليم، ولا تتفق مع المنطق أو الواقع المقبول .

وإليك شيئًا مما ذكره صاحب تفسير المنار، عن خرافات أولئك المتصوفين لترى مدى ضلالهم وبعدهم عن هدي الإسلام .

يقول صاحب «تفسير المنار» - رحمه الله - في كرامات أولياء الصوفية: جاء في كتب «الرفاعية» أن الشيخ أحمد الرفاعي مس بيده سمكة، فأرادوا شيها بالنار، فلم تؤثر فيها النار، فذكروا ذلك، فقال: وعدني العزيز أن كل ما لمسته يد هذا اللاش حميد لا تحرقه النار في الدنيا ولا في الآخرة. .

وجاء فيها: أن سيدي أحمد الرفاعي، كان يميت ويحيي، ويسعد ويشقي، ويفقر ويغني، وأنه وصل إلى مقام صارت السموات السبع في رجله كالخلخال . . إلخ .

وجاء في بعض كتب مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني: إنه مات بعض مريديه، فشكت إليه أمه وبكت، فرقَّ لها، فطار وراء ملك الموت في المساء وهو صاعد إلى السماء يحمل في زنبيل ما قبض من الأرواح في ذلك اليوم، فطلب منه أن يعطيه روح مريده أو أن يردها إليه، فامتنع فجذب الزنبيل منه فأفلت، فسقط جميع ما كان فيه من الأرواح، فذهبت كل روح إلى جسدها، فصعد ملك الموت وشكا إلى ربه ما فعله عبد القادر[1]

(١) عندما توفي النبي - صلى الله عليه وسلم - حزن المسلمون حزنًا شديداً، حتى أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أصابه الذهول من هول الفجيعة، ولم يصدق أن الرسول قد مات بل ظن أنه في غيبوبة وسيفيق منها فيما بعد. ثم هدد كل من يقول بموت الرسول ، حتى جاء أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - . وقال مقالته التي أعادت إلى الصحابة الإيمان واليقين والحق. والذي نقصده من ذكر هذه الحادثة هو أن أولئك الصحابة - رضوان الله عليهم - وقد كانوا أشد إيمانًا وتقوى من عبد القادر الجيلاني - ألم يكن في وسعهم - وقد اشتد حزنهم لفقد الرسول - أن يصعدوا إلى السماء كما فعل الجيلاني ليطلبوا من ملك الموت أن يعطيهم روح رسول الله أو ليطلبوا منه ردها إليه؟ .

ودعنا من إمكان صعود الصحابة إلى السماء كما فعل البطل عبد القادر الجيلاني. . . ألم يكن في استطاعة الصحابة الأطهار أن يرفعوا أكف الرجاء إلى الله ليأمر ملك الموت أن يعيد إلى رسول الله روحه؟! نعم. . كان=

فأجاب الرب - سبحانه - بما امتنعنا عن نقله تنزيهًا وأدبًا مع ربنا عز وجل.

ونقلنا ثم[1] أن خطيبًا خطب المسلمين في الهند ذاكرًا مناقب الشيخ عبد القادر الجيلاني فقال: إن حدأة قطعة لحم مما ذبح للشيخ عبد القادر في مولده - كما كانوا يذبحون للأصنام - فوقعت عظمتها في مقبرة فغفر الله تعالى لجميع من دفن فيها كرامة للشيخ عبد القادر.. ويا ويل من ينكر أمثال هذه الخرافات فيستهدف لرميه بمخالفة قوله تعالى: ﴿**ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون**﴾.

ومن هذه الكرامات: زعمهم ادعاء الوحي، ولا ينافيها عندهم معارضة القرآن، وعبادة الشيطان، وترك الفرائض، وارتكاب الفواحش، كما ترى في الشواهد الآتية:

كرامات ولي شيطاني: قال الشعراني في ترجمة الشيخ محمد الحضري: وأخبرني الشيخ أبو الفضل السرسي أنه جاءهم يوم الجمعة فسألوه الخطبة، فقال: باسم الله، فطلع المنبر فحمد الله وأثنى عليه ومجده، ثم قال: وأشهد أن لا إله لكم إلا إبليس عليه الصلاة والسلام، فقال الناس: كفر، فسل السيف ونزل، فهرب الناس كلهم من الجامع، فجلس عند المنبر إلى أذان العصر، وما تجرأ أحد أن يدخل الجامع، ثم جاء بعض أهل البلاد المجاورة فأخبر أهل كل بلد أنه خطب عندهم وصلى بهم... راجع ص ٦٤ ج٢ طبقات الشعراني[2].

كرامات ولي العاهرات والزنا: قال في ترجمة سيدي علي وحيش: كان رضي الله عنه من أعيان المجاذيب، وكان يأتي مصر والمحلة الكبرى وغيرها من البلاد، وله كرامات وخوارق.

وأخبرني الشيخ محمد الطنيحي - رحمه الله تعالى - قال: وكان الشيخ وحيش - رضي الله عنه - يقيم عندنا في المحلة في خان بنات الخطا أي: محل العاهرات، وكان كل من خرج يقول له: قف حتى أشفع فيك عند الله قبل أن تخرج، فيشفع فيه[3]. وكان

= في استطاعتهم ذلك ولكنهم كانوا مؤمنين بقوله تعالى في كتابه العزيز ﴿فإذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون﴾ [الآية ٣٤: الأعراف]، ومؤمنين أن أرواح الموتى في يد الله وحده.

ونعتقد أنه ليس في الوجود جميعه من هو أفضل من الرسول - صلى الله عليه وسلم - عند الله تعالى، ولكن سنة الله في الموت تجري على الرسول وعلى من هم دونه ولن تجد لسنة الله تبديلاً.

(١) أي نقل هذا الكلام السخيف في الجزء الأول من المجلد التاسع من المنار.

(٢) ذكرنا في نهاية كل خبر المصدر الأصلي المستقى منه الخبر حتى لا يتهمنا أحد بأننا نقلنا هذا الكلام من مصادر معادية لهؤلاء المتصوفين.

(٣) تعجبوا أيها المسلمون من كرامات أولياء هذا العصر، رجل يرتكب الفاحشة، ويأتي جريمة الزنا فيشفع فيه هذا الوحيش عند الله ليغفر له جريمة الزنا التي أتاها؟!.

يحبس بعضهم اليوم واليومين، ولا يمكنه أن يخرج حتى يجاب في شفاعته .

وكان إذا رأى شيخ بلد أو غيره يُنزله من على الحمارة ويقول له : امسك رأيها حتى أفعل فيها، فإن أبى شيخ البلد تسمّر في الأرض، ولا يستطيع أن يمشي خطوة، وإن سمح حصل له خجل عظيم، والناس يمرون عليه، وكان له أحوال غريبة . اهـ . راجع ص ١٢٩ ج٢ من طبقات الشعراني – وولاية هذا المجنون أنه قوّادٌ للعاهرات بضمانة المغفرة لمن يفجر بهنَّ بشفاعته، وأضلّ منه علماء الخرافات المدعون لكرامته .

ولاية مجنون معارض للقرآن : قال في ترجمة شعبان المجذوب إنه كان من أهل التصريف[١] بمصر المحروسة، ونقل عن شيخه علي الخواص : إن الله تعالى كان يطلعه على جميع ما يقع في السنة عند رؤية هلالها، ثم قال : وكان يقرأ سوراً غير السور التي في القرآن على كراسي المساجد يوم الجمعة وغيرها، فلا ينكر عليه أحد، وكان العامي يظن أنها من القرآن لشبهها بالآيات في الفواصل .

وقد سمعته مرة يقرأ على باب دار على طريقة الفقهاء الذين يقرأون في البيوت، فأصغيت إلى ما يقول، فسمعته يقول : « ما أنتم في تصديق هود بصادقين. ولقد أرسل الله لنا قوماً بالمؤتفكات يضربوننا ويأخذون أموالنا، وما لنا من ناصرين، ثم قال : اللهم اجعل ثواب ما قرأناه من الكلام العزيز في صحائف فلان وفلان – إلى آخر ما قال »[٢] .

ثم قال : لم أسمع قط أن أحداً[٣] ينكر عليه شيئاً من حاله . . راجع ص ١٦٠ ج ٢ من طبقات الشعراني .

أقول : إذا كان الشعراني من أكبر علماء الأزهر ومؤلفيه، يعد هذا المجنون من أولياء الله ويترضى عنه كلما ذكره، وإن تكرر ذكره في سطر واحد، وكان شيخه علي الخواص يتلقى عنه حلاً لمشكلات المعارف الإلهية، ويعتمد على كشفه، فهل نكون مخطئين[٤] إذا

---

(١) وإذا كان الأنبياء المرسلون لم يؤتوا القدرة على التصرف في الكون، فهل يعقل أن يؤتاه من دونهم من الناس؟!

(٢) لعل شعبان المجذوب كان من غلاة الشيعة الذين يزعمون أن المصحف الأصلي كان عند فاطمة، ثم اختفى مع الإمام الثاني عشر الملقب بالغائب المنتظر. وفي هذا المصحف – كما يزعم الشيعة – ما ليس بالمصحف الذي بأيدينا، وأنه أكبر منه أضعافاً مضاعفة، وأن فيه عشرات الآيات التي خلا منها مصحفنا .

(٣) لعل الباعث على عدم اعتراض أحد على هذا المخبول كان قول مشايخ الطرق الصوفية لمريديهم : من اعترض انطرد . . . أي : من اعترض على أي فعل فاضح يأتيه شيخ من الصوفية فقد عرض نفسه للطرد من رحمتهم التي هي – في زعمهم – مستمدة من رحمة الله .

(٤) ولا نكون مخطئين أيضاً إذا قلنا : إن الشعراني نفسه كان من زمرة المجانين : فإن من يترضى عن هذا المجنون ويعد هذيانه من كرامات لا محال أن يكون متمتعاً بذرة من العقل السليم .

قلنا إن جميع من شهد لهم بالألوهية والكرامة كانوا خرافيين مجانين مثله .

كرامات ولي يضمن دخول الجنة بلاحساب: كان من فساد هذا التصوف(١) الذي بثه الشعراني وأمثاله في المسلمين أن وُجد في المغرب الأقصى في القرن الثالث عشر للهجرة شيخ اسمه الشيخ أبو العباس أحمد التيجاني صار له طريقة من أشهر الطرق، امتدت من المغرب الأقصى إلى السودان الفرنسي، والجزائر فتونس، وصار لها مئات الألوف من الأتباع لما فيها من الغلو في الدعاوي والخرافات والابتداع، وتفضيل شيخها نفسه على جميع من سبقه من أقطاب الأولياء، وكذا الأنبياء.

وقد ألف أحد أتباعه كتابًا كبيرًا في مناقبه وُكراماته وأوراده، تلقاها من لسانه وقلمه هدم بها كتاب الله وسنة رسوله مدعيًا أنه تلقاها منه - ﷺ - وسماه (جواهر المعاني)، وهاك بعض الشواهد منه:

قال المؤلف في الفصل الثاني من الباب الأول: قال - رضي الله عنه - : «أخبرني(٢) سيد الوجود ، يقظة لا منامًا، قال لي: أنت من الآمنين، وكل من رآك من الآمنين إن مات على الإيمان، وكل من أحسن إليك بخدمة أو غيرها، وكل من أطعمك يدخلون الجنة بلا حساب ولاعقاب. . . ثم قال: فلما رأيت ما صدر منه - ﷺ - من المحبة وصرح لي بها تذكرت الأحباب ومن وصلني إحسانهم .

قال: وسألته - ﷺ - لكل من أخذ عني ذكرًا أن تغفر لهم جميع ذنوبهم ما تقدم منها وما تأخر، وأن تؤدي عنهم تبعاتهم من خزائن فضل الله، لا من حسناتهم، وأن يرفع الله عنهم محاسبته على كل شيء، وأن يكونوا آمنين من عذاب الله من الموت إلى دخول الجنة، وأن يدخلوا الجنة بلا حساب، ولا عقاب في أول الزمرة الأولى، وأن يكونوا كلهم معي في عليين في جوار النبي - ﷺ - فقال لي - ﷺ - : «ضمنت لهم هذا كله ضمانة لا تنقطع حتى تجاوزني أنت وهم في عليين. . . إلخ» . راجع: جواهر المعاني صفحة (٩٧-٩٨) الجزء الأول .

ثم ذكر مؤلف الكتاب: أن هذه الكرامة العظيمة المقدار، وهي دخول الجنة بلا حساب ولا عقاب لمن ذكرهم لم تقع لأحد من الأولياء قبله. . . إلخ، ونزيد عليه: أن

(١) وكان من فساده أيضًا أن رجاله فرقوا المسلمين، فاتخذ كل حزب منهم طريقة تخالف طريقة الآخر، فكانت هذه الطرق المختلفة التي أصابت المسلمين بالضعف. وأشاعت فيهم الانحلال وساعدت على دخول المستعمر في البلاد .

(٢) لقد كذب التيجاني وتابعه على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لم يخبر التيجاني بشيء من هذا الكذب، ألم يقرأوا - وهم يكذبون - حديث الرسول القائل: «من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار» .

النبي - ﷺ - لم يضمن مثل هذا في حياته لأحد من أهل بيته، ولا خواص أصحابه من المهاجرين والأنصار - رضي الله عنهم - حتى العدد القليل الذي بشرهم بالجنة كالعشرة، لم يضمن لهم ما زعم التيجاني أنه ضمنه لمن لا يحصى عددهم من أصوله وفروعه وأتباعه، ولا يوجد في شريعته ما يدل على أن الله تعالى أذن له بمثل هذا، بل قاعدة دينه وشريعته أن «الغرم بالغنم» فمن تضاعف حسناتهم تضاعف سيئاتهم، كما صرح به الكتاب العزيز في خطاب نسائه - ﷺ - من سورة الأحزاب.

وصح عنه - ﷺ - أنه لما أنزل عليه ﴿**وأنذر عشيرتك الأقربين**﴾ جمعهم وكان مما قاله لهم: «**اعملوا لا أغني عنكم من الله شيئًا**» قال هذا لعمه وعمته - رضي الله عنهما - ولبنته السيدة فاطمة سيدة النساء عليها السلام.

فكلام التيجاني صريح في أن جميع أتباعه وأقاربه ومحبيه والمحسنين إليه يكونون في عليين فوق أتباع جميع الأنبياء ومحبيهم، وإلا لما بقي للجنات السبع أحد يسكنهن، وهو افتراء لم يتجرأ عليه أحد من المجازفين قبله(١).

حجج الصوفية المعهودة لتبرئة سادتهم: يقولون: دس أعداء التصوف على الصوفية وأئمتهم كلامًا لم يقولوه، ونسبوا إليهم أفعالاً لم يأتوها، فهم أبرياء من كل هذه المدسوسات، ومن كثير مما نسب إليهم ظلمًا وعدوانًا.

ولقد دس اليهود وغيرهم من أعداء الإسلام في كتب السنة أحاديث كثيرة مكذوبة ونسبت إلى رسول الله - ﷺ - فهل قال قائل: إنه يجب علينا نبذ كتب السنة والفقه ومصادرتها لهذا السبب؟ فلماذا إذن تخص المتصوفة وحدهم بالباطل والزيغ؟

ونرد عليهم فنقول: «يلجأ الصوفيون دائمًا إلى مثل هذه الحجج عند مناقشتهم فيما ورد في كتب سادتهم ومواجهتهم بما دوِّن فيها من الباطل والإلحاد محاولين بذلك تبرئة سادتهم وشيوخهم مما جاء في كتبهم، ومع كل هذا فهم يؤمنون بكل ما جاء في هذه الكتب، ويدينون بكل ما حوته «من ألفه إلى يائه» من الزندقات والخرافات، من مثل ما تقدم ذكْره كالذي جاء في «طبقات الشعراني» و«جواهر المعاني» لتابع التيجاني، والدليل على ذلك أن أكثر الصوفيين يحتفظون بهذه الكتب الفاسدة ويعظمونها، ويقرأون ما فيها لمعرفة سلوك أهل الطريق حتى لا يكون المريد منهم بغير شيخ، اعتقادًا لما هو مدون في كتبهم من أن: من لا شيخ له فشيخه الشيطان(٢).

---

(١) راجع الآيتين (٣٠، ٣١) من سورة الأحزاب.

(٢) راجع: تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا، ج١١، ص (٤٢٣) وما بعدها.

ونحن لم نذكر البدوي والتيجاني وغيرهما إلا مثلاً، فكتب الصوفية مليئة بمثل هذه الخرافات والأقوال الشنيعة التي سموها «كرامات» وأضلوا بها عقول الناس .

شعوذة الهنود والرهبان: ويقولون عن كرامات الأولياء أيضًا: نقلت إلينا كتب السنة بعض الأحاديث عن كرامات أكرم الله بها عباده الصالحين في الإسلام، وفي الأمم قبل الإسلام، وما زالت خوارق العوائد موجودة إلى اليوم في فقراء الهند، وفي رهبان الأديرة، مما يؤكد حدوث الكرامة حتى الآن - إن ساغ تسميتها كذلك .

ونرد عليهم فنقول: إننا لا ننكر إكرام الله لعباده الصالحين بما يشاء من أنواع الكرامات في الدنيا جزاء إيمانهم وتقواهم، لكن هذه الكرامات قد لا يحس بها أحد، حتى نفس من يكرمه الله سبحانه أحيانًا، ذلك لأنها تحدث سرًّا وعلى خلاف المعجزات المبينة على الاشتهار لصالح صاحب الرسالة .

والكرامات التي كانت تحدث للرعيل الأول من المسلمين وفي الأمم السابقة، لم تكن حديث الناس في كل مكان كما ترى عندنا اليوم، وإنما كانت الكرامة عندهم حدثًا عاديًّا يمر كشيء عادي لا يتحدث بها صاحبها، ولا يعلم أحد عنها شيئًا لكننا اليوم إذا حدث أمر شاذ لأحد الموتى أو الأحياء؛ على خلاف المعهود في حياتنا اليومية اعتبرناه حدثًا هامًا وعظيمًا، ثم لا يلبث أن يدخل «دنيا الكرامات» .

وما يأتيه فقراء الهند ليس من الأعمال الخارقة للعادة، فالمعروف أن هؤلاء الناس يمارسون بعض تلك الأعمال على الأشواك والزجاج، وهذه الأعمال - وهي غير مألوفة عندنا - أصبحت سهلة عندهم، وهم يقومون بها عيانًا جهارًا أمام الناس كما يعتاد أحدنا أن يقوم بعمله الذي يرتزق منه، وكل إنسان بارع في صناعته فنان في عمله .

وما يأتيه رهابنة الأديرة لا يعدو أن يكون شعوذة ودجلاً، وهو عمل لا يقره الإسلام ولا يرتضيه لأهله .

أما السلف الصالح، فلم يؤثر عنهم في أي كتاب من الكتب التي سجلت تاريخهم، ونقلت إلينا بأمانة مختلف أعمالهم أنهم افترشوا الزجاج والأشواك كما يفعل رهابنة الأديرة وفقراء الهند، والمعروف أننا قد أمرنا باتباع سنة السلف الصالح لقول النبي - ﷺ - في الحديث: «**عليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين من بعدي..**» وإذن فإن ما يأتيه الرهبان وغيرهم لا يمكن أن يكون كرامات، ولا خوارق، وإنما هو : إما أعمال شعوذة، وإما نتيجة تمرين شاق تعودوا القيام به .

خرافات من الإسكندرية والسويس: يقولون: حدث في الحرب العالمية الثانية عام

١٩٤١م أن اشتدت غارات الطائرات الألمانية على مدينة الإسكندرية، وكان مبنى محافظتها ضمن أهداف هذه الطائرات، فألقت عليه في ليلة مظلمة طوربيداً ضخماً كان يكفي لتحطيم المبنى والحي المحيط به بأكمله، ولكن أبا الدرداء انتفض من قبره - وهو مجاور لمبنى المحافظة - فأمسك الطوربيد بيده وأسقطه وسط قطعة أرض فضاء مجاورة للمحافظة، فاستقر الطوربيد في تربتها الرخوة دون أن ينفجر .

واستيقظ السكندريون في الصباح، فإذا بأنباء سقوط الطوربيد تترامى إليهم، فأتوا من كل فجّ ليرَوا الحادث الجلل، ولينقل كل منهم إلى الآخر كيف أن سيدهم الولي أبا الدرداء قد حماهم من خطر داهم، وشر كبير، فلو أن هذا الطوربيد لم يلتقطه أبو الدرداء، ويلقيه في هذا المكان، لاصطدم عند نزوله بأي مبنى أو بجسم صلب وانفجر وأفنى الحي ومن فيه فناءً كاملاً .

ويعدُّ السكندريون ما حدث - في زعمهم - من أبي الدرداء كرامة له. . . ويرددون هذا بينهم حتى اليوم، ففي اعتقادهم أن أبا الدرداء هو الذي حمى المدينة وسكانها من هذا البلاء العظيم(١) .

ويقول أهالي الإسكندرية مؤيدين لقصة سقوط طوربيدات الإسكندرية المفتعلة: إن هناك عدة قنابل ومتفجرات نزلت في أماكن أخرى من الإسكندرية في تلك السنين وانفجرت ودمرت بيوتًا، وقتلت نفوسًا .

وفي السويس أيضًا ظهرت كرامات من هذا النوع، فيروي أهالي السويس أن عدة قنابل ألقيت على المدينة خلال الحرب، وكان بعضها يسقط في البحر، وبعضها يسقط في البر ولم ينفجر، ونجت المدينة من الدمار إكرامًا لوليِّها وحاميها : الشيخ عبد الله الغريب.

وتناقل أهالي السويس هذه القصص الوهمية؛ فزاد ذلك من اعتقادهم بهذا الشيخ، ومن هنا يهتفون دائمًا بعبارة: يا حامي السويس يا غريب. . عندما ينزل بهم ضر أو يحزّ بهم أمر(٢) .

ونقول لهم: إن تصوير تلك الحوادث على هذا النحو يكذب بعضه بعضًا، ويعلن رواة قصصها، فهذه الحوادث كلها من اختراع عقلية ماكرة اصطنعت تلك الحوادث الوهمية وسمتها: كرامات، لتضفي على أضرحة أبي الدرداء وأبي العباس والغريب مهابة وجلالاً فتجعل لهم بركات، وتجذب الجماهير الساذجة لزيارة أضرحتهم، والتبرك بها، فتأتي لهم

(١) راجع المصدر المنوه عنه في التعليق ١، صفحة (٣٦) من هذا الكتاب، وقد نقل بتصرف .
(٢) راجع صحيفة الجمهورية بتاريخ ٣٠ نوفمبر ١٩٦٣م .

بالنذور من مال وهدايا. . وفي هذا رزق سهل يسير للعاطلين والكسالى الذين أبوا أن ينفعوا المجتمع بسواعدهم وأفكارهم .

أي عقل راجح يحتفظ بفطرته السليمة يصدق أن الميت يمكنه القيام بأي عمل بعد أن خرجت روحه من بدنه، وبطلت حركته، وأكل الدود جسمه، وغدا عظامًا وترابًا؟ من الذي يصدق مثل هذا الزعم المفضوح؟!

وعلى سبيل المثال: إذا روى صديق لك فقال: إني رأيت صديقك «فلان» الذي مات منذ - كذا سنة - يمشي في جهة ما، فهل ستصدقه أم أنك ستكذبه، وتتهمه بالخبل والهذيان، وستقول له على الفور: إن فلانًا هذا مات منذ كذا سنة، ولا يمكن أن تكون قد رأيته ، ومن الجائز أن تكون رأيت شبيهًا له!! هذا ما سيحدث بينك وبين صديقك الراوي، وسيكون تكذيبك له بسبب عدم إمكان خروج الميت من قبره بعد موته بعدة سنوات، لأنه بالموت فقد أسباب الحياة والحركة .

فكيف إذن تصدق من يروي لك بأنه شاهد أبا الدرداء يخرج من قبره ويمسك بالطوربيد، ويضعه على الأرض. . . وأن كرامات الشيخ الغريب جعلت القنابل تسقط على الأرض دون أن تنفجر، أو تسقط في البحر. . كيف تصدق من يروي لك هذا، وهو أمر يستحيل أن يفعله الأحياء فضلاً عن الأموات[1]، هل نلغي عقولنا التي منحنا الله إياها لنصدق هذه الخرافات؟ كان جديرًا بأهالي الإسكندرية والسويس وغيرهم ممن يصدقون مثل هذه المزاعم أن يفكروا قليلاً في الأمر ليعرفوا السبب الحقيقي لقصص تلك المتفجرات قبل أن يعطوها أي نصيب من التصديق والاعتبار، ويسرعوا إلى إذاعتها على الناس، وهي محض كذب وافتراء .

فإذا صح أن الطوربيدات والقنابل قد ألقيت أمام مسجد أحد هؤلاء ولم تنفجر، فهذا لا يرجع إلى حدوث شيء مما يحكيه الناس، بل يعود قطعًا إلى وجود سبب آخر أدى إلى تعطيل تلك المتفجرات عن الانفجار .

---

(١) ما دام الأولياء الموتى يخرجون من قبورهم في هذا الزمن ليلتقطوا الطوربيدات فعلى الدولة أن تطمئن وتريح نفسها، وتعتمد على أوليائها الأبطال ليلتقطوا لها القنابل ويصدوا عنها أسلحة الفتك والتدمير، ولا داعي لاعتماد ملايين الجنيهات لشراء مدافع، ودبابات، وطائرات، وأجهزة استكشاف العدو، وغير ذلك لتسليح الجيش وإعداده لحماية البلاد وإرهاب العدو عملاً بقول الله : ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾ . لا داعي لأن تهتم الدولة والأفراد لخطر الحرب اعتمادًا على أبي الدرداء وأمثاله الأبطال الذين تأتيهم القدرة الخارقة وهم موتى فناء، فيصدون عن بلادهم خطر الحرب ويمنعون عنها أهوالها .

فالطوربيد الذي سقط بجوار محافظة الإسكندرية المجاور لقبر أبي الدرداء نزل على تربة رخوة، ومن طبيعة هذا النوع من التربة أنها لا تساعد على انفجار المتفجرات، بعكس التربة الصخرية أو المباني الصلبة إذا سقطت عليهما المتفجرات فإنها تساعد على انفجار القنابل والطوربيدات .

وعلى ذلك فإن طوربيد الإسكندرية حين سقط على أرض رخوة لم ينفجر . . . أما القنابل والطوربيدات التي سقطت بالسويس ولم تنفجر ، فإما أن تكون قد سقطت على تربة رخوة أيضًا - كما حدث في الإسكندرية - وإما أن خطأ فنيًا وجد بهذه المتفجرات أدى إلى تعطيلها عن الانفجار.

وكثيراً ما سمعنا بعد الحرب العالمية الثانية - وما زلنا نسمع للآن - عن قنابل ومتفجرات على أشكال مختلفة ، لم تنفجر وقت سقوطها، ثم انفجرت بعد ذلك بزمن طويل عندما يلمسها جسم .

وإني أحيل القارئ الفاضل إلى خبر نشرته صحيفة المساء بالقاهرة بتاريخ ١١/ ٥/ ١٩٦١م، عن موظف عثر على قنبلة في ترعة بالجيزة، ولم تنفجر وخشي الموظف على نفسه منها فأبلغ البوليس، وتبين بمعاينتها أن القنبلة يرجع عهدها إلى الحرب العالمية الثانية استعملها المحاربون بالصحراء الغربية .

وبعد. . . فهذه هي الأسباب الحقيقية لعدم انفجار الطوربيدات والقنابل التي أُسقطت بالإسكندرية والسويس ولم تنفجر. . . هذه هي الأسباب الحقيقية. والتعليل الصحيح لما حدث. . . والعقول المستنيرة والفطرة السليمة ترفض بشدة قبول غير هذه الأسباب حول هذه المتفجرات، مهما كان مركز قائلها أو كثرة رواتها .

أجسام كل بني آدم تبلى: يقولون: عندما اقتضى الأمر نقل رفات بعض الأولياء من أضرحتهم إلى أماكن أخرى، وجدت جثث أولئك الأولياء سليمة لم يحدث فيها ما يحدث في الجثث الأخرى من التآكل بفعل التراب، وبمضي الزمن، وهذا إكرام من الله للأولياء، كما أن أجسام الأنبياء لا تتحلل أيضًا بفعل التراب، ويؤيد هذا قول رسول الله في الحديث: «أكثروا عليَّ من الصلاة يوم الجمعة، وليلة الجمعة، فإن صلاتكم معروضة عليَّ» قالوا: وكيف تعرض صلاتنا عليك وقد أرمت؟ قال: «إن الله حرم على الأرض أن تأكل لحوم الأنبياء» رواه أبو داود .

ونرد عليهم فنقول: هناك حقيقة مؤكدة يجب أن نعلمها وهي أن كل إنسان خلق من تراب، وإليه سوف يعود، والله تعالى يقول في هذا ﴿**منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها**

نخرجكم تارة أخرى﴾ وإذ كان هناك بعض الأجسام وجدت سليمة لم يصبها التآكل فذلك يرجع إلى أمر يجب أن نقف عنده موقف المفكر المدقق، لنبحث عن السبب الأصلي في عدم تفتت هذه الأجسام، وذلك قبل أن نحكم على الأمور بدافع الأهواء.. هذه حقيقة..
أما الحقيقة الثانية: فهي أن بعض الأراضي تنخفض فيها درجة الحرارة، ويقل نشاط جراثيم الفساد، فيسبب ذلك عدم إسراع التآكل إلى أجسام الموتى الذين يدفنون في مثل هذه التربة.

وهناك أراض تشتد فيها الحرارة حيث يزداد نشاط جراثيم الفساد فيها، ولهذا كان التآكل يسير بسرعة إلى الأجسام التي تدفن في هذه الأراضي .

وبناء على هذه الحقيقة، فإن الأجسام التي توجد سليمة تكون قد دفنت في أرض تنخفض فيها الحرارة، فلم تتحلل هذه الأجسام ولم تبل بسرعة .

وقد يكون بقاؤها سليمة أيضًا، لتحنيطها، كما شوهد في جثة فرعون وجثث غيره من قدماء المصريين المحفوظة بدار الآثار المصرية .

هذه هي نتائج البحث لعدم تفتت أجسام الموتى ، وعدم تأثير التربة فيها وهذه حقيقة علمية ثابتة تتفق مع الواقع، ولا تصادم العقل .

ومن هنا نعلم أن للأرض دخلاً كبيراً في عدم تفتت أجسام الموتى، وأنه لا دخل للكرامة في هذا الأمر، ولا معنى لتصديق هذه الخرافة المجسمة التي نشأت عن الجهل.

ولا معنى لجعل ذلك سببًا لإضفاء قدسية على الميت، وجعل قبره مزاراً ومكانًا للطواف تمامًا كما يطوف الحجاج بالكعبة .

أما الحديث المنسوب إلى رسول الله ﷺ والذي يفيد بعدم تآكل أجسام الأنبياء... فإنه موضوع، ويشبه تمامًا الحديث المنسوب إلى رسول الله - ﷺ - والذي يقول: «حياتي خير لكم.. إلخ» وقد أثبتنا وضعه .

ثم إن هذا الحديث الذي رواه أبو داود يتعارض مع الآية القرآنية التي لم تستثن أحدًا من كونه مخلوقًا من تراب، يقول الله: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾** الآية .

ويتعارض كذلك مع الحديث النبوي الصحيح الذي ينسبنا إلى آدم، ويرجع أصلنا إليه، والذي يفيد أننا خلقنا من تراب: **«كلكم لآدم وآدم من تراب»** .

وإذا كان الأمر كذلك، فإن الأنبياء بشر، وخلقوا من تراب، ويجري على أجسادهم ما يجري على سائر أجساد الموتى .

هذا والله تعالى يقول في الحديث القدسي: «توسعت على عبادي بثلاث خصال بعث الدابة على القمح والشعير، ولولا ذلك لكنزها الناس، وتغير الجسد بعد الموت، ولولا ذلك لما دفن حميم حميمه، وسلبت حزن الحزين، وإلا ما كان يسلوه».

ومعنى «تغير الجسد بعد الموت» في الحديث، أن الجسد يصير شيئًا آخر بعد الموت.. أي: يتحلل إلى التراب الذي هو أصله، ومنه خلق.

وبعد أن وضح هذا يجب أن نعلم أن أجساد الموتى - بما فيها الأنبياء - تبلى وكفى بالله هاديًا.

خرافة طيران الموتى: يقولون: ثبت أن الأولياء الصالحين يطيرون بنعوشهم، ويتحكمون في حملتها، ويوجهونهم حيث يريدون مهما حاول المشيعون إيقاف النعش، وأن بعضهم قد حمل هذه النعوش، وتأكد له صدق طيران الميت، ولم يجد مفرًا من التسليم بهذه الظاهرة الخارقة للعادة، وأيقن أن هذه الظاهرة كرامة لذلك الميت.

ونرد عليهم فنقول: الأموات الذين قيل إنهم يطيرون بنعوشهم، قد ثبت أن حوادثهم مصطنعة، يقوم بتأليفها وإخراجها فريق من الدجالين المتعطلين الذين لا يزاولون صناعة، أو تجارة لحاجة في أنفسهم.

وكون أن أحدًا حمل نعش ميت من أحد جوانبه، وأن الميت أخذ يجري متغلبًا على قوة حامليه، لا يعتبر هذا حجة قاطعة على صحة طيران الميت بمفرده، ولا دليلاً على حقيقة ذلك المظهر، ولا دافعًا للإيمان به.

والشخصان اللذان حملا النعش من جانب في استطاعتهما أن يجريا بالنعش كيفما يشاءان، ومن السهل أن يخدعا بقية حملة النعش بأن النعش هو الذي يجري بهم.

ولو أن أشخاصًا آخرين يوثق في صدقهم حملوا النعش من كل جوانبه لساروا به سيرًا عاديًا بحسب السرعة التي يمشون هم بها، ولتثبت للناس أن النعش لا يجري إلا بواسطة حامليه، فهم الذين يحركونه هنا وهناك، ويطوفون به في أماكن متعددة، وعندما يؤمن الناس بالكرامة المفتعلة، يصنعون للميت ضريحًا، ثم يصبح مزارًا لطلاب الحاجات، ومهبطًا للأموال الوفيرة، ومسقطًا للهدايا والهبات.

هذه هي القصة الحقيقية التي تكشف القناع عن دور أولئك العابثين بنعوش الأموات وبأفكار الناس.

رأي الشيخ شلتوت في طيران الموتى: وقد كتب فضيلة الأستاذ الشيخ محمود شلتوت شيخ الجامع الأزهر عن حوادث طيران الموتى في سفره الجليل والفتاوى ص ١٨٢

وما بعدها كتب يقول: يتحدث كثير من الناس عن طيران بعض الموتى وهم محمولون على أعناق الرجال، وعن تراجع النعش بحامليه إلى الوراء، ويتحدثون عن ثقله مرة، وخفته أخرى، وتنتشر هذه الأحاديث وتأخذ بين الناس صبغة الواقع الصحيح، كما يأخذ الموتى في معتقداتهم مكانة الأولياء الذين تبدو كراماتهم الحسية، وكثيراً ما ينشأ عن ذلك إقامة أضرحة لهؤلاء الموتى باسم الولاية، وتصبح تلك الأضرحة مزارات تلتمس بركاتها، ويُدعى من فيها ويتجه إليه في قضاء الحاجات ودفع الملمات والكروبات، كما يصبح للضريح أيضاً خدم وموظفون يتلقون النذور والصدقات باسم ساكنه.

أخبار يلوح عليها الزيف: والواقع أن صدق هذه الأخبار لا يكفي فيه مجرد سماعها، ولا مجرد رؤية النعش وهو محمول على الأعناق يتقهقر إلى الوراء أو يتقدم إلى الأمام، فضلاً عن سماع طيرانه في السماء، لا يكفي سماع شيء من هذا في تصديقه، فالناس مولعون بتناقل الأخبار الغريبة، وفيهم من هو قابل لتصديق كل شيء يسمعه، فينقله ويتحدث به ويقسم عليه، إن صدق الأخبار يحتاج إلى الوثوق بصدق حاملي النعش، والوثوق بسلامة نفوسهم من الانفعالات الخاصة التي تورث الضعف في أعصابهم وتجعلهم يتقهقرون ويندفعون إلى الأمام بغير انتظام، والوثوق بأنه ليس لهم نوايا خاصة في إشاعة أن الميت له عند الله منزلة يبنى له بها ضريح، وتصنع له مقصورة، وتفتح أبوابه للزيارة والنذر، ويقام له الموالد والليالي، إلى غير ذلك مما يكون في واقعه مورد رزق جديد لحامليه، وإلى من أوعز إليهم بإيجاد هذا المظهر.

لم يطر ميت محمول في سيارة: ومن الغريب أنا لم نسمع بذلك إلا في القرى حيث تحمل الموتى على الأعناق، وإلا في عصورنا المتأخرة التي اتُخذت فيها هذه المظاهر سبيلاً للارتزاق وسبيلاً للتغرير بضعفاء العقول، فلم نسمعه عن ميت محمول في سيارة أو قطار أو في طائرة، لم نسمعه عن باخرة قافلة من بيت الله الحرام، وقد فاضت فيها روح حاج تقي نقي له بالله صلة خاصة، لم نسمع أن جثة ثقلت أو امتنعت عن أيدي الذين يقذفونه في البحر حتى يُحفظ من الحيتان والأسماك ويُدفن في القبور العادية.

لم يطر أحد من الصحابة: لم نسمع شيئاً من ذلك عن أحد من الربانيين الذين ماتوا في العصور الأولى للإسلام، خير القرون وعلى رأسهم الخلفاء الأربعة وحماة الإسلام من الصديقين والشهداء والصالحين، وإذن فنحن في حل من تكذيب كل ما نسمع من هذا القبيل ونرفضها، ولا نعنى بالبحث عن أسرارها وأسبابها، والإنسان متى فارق الحياة انقطعت صلته بالدنيا، وصار أمره لله وحده.

ومن غريب الأمـر أن مثل هذه الأقاصـيص المخترعـة لا تروج إلا في زمن التقهـقر الفكري وانصـراف الناس عن العمل الجـاد المثمـر ولا تروج إلا في بيئـات خاصـة عُرفت بالسذاجة وتصديق كل ما يُقال. وبعد:

فليس في النعش سـوى جثة هامـدة ذهبت روحها إلى خـالقها، وهـو وحده العليم بحالها ما لهـا وما عليها، ﴿**ولا تقف مـا ليس لك به علم إن السـمع والبـصر والفـؤاد كل أولئك كان عنه مسئولاً**﴾ [الإسراء: ٣٦].

وإلى القارئ الكـريم أسوق قصـة من قصص طيـران الموتى حدثت في قريـة بالوجه البحري ونشرتها صحيـفة المساء في عدد يوم ٨/ ١٠/ ١٩٥٨م بقلم مراسلها في المنزلة تحت عنوان:

مات الشيخ وطـار نعشه: كان محمـد زناتي الشهير «بالطر» يعيش في بلدة الجـمالية بالمنزلة كما يعيش غيره من عامة الناس، ثم أصيب بلوثة أقعدته عن مباشرة أي عمل نافع، وتعرف عليه بعض «التنابلة» من طائفة «المجاذيب»، فزينوا له طريق الدروشة، وأصبح يسير في الطرقات يُتهته بكلام لا يـفهمه، وأحيانًا لا يُسمع، وكان الصبـية في - بلدة الجمالية - يلتفون حوله ويسيرون خلفه، وهؤلاء هم الذين لقبوه «بالطر».

وأخيرًا .. مات الشيخ «الطر» واجتمع على أثر موته إخوانه من المجاذيب وقرروا أن الولي - إذا مات - لا يحمل[1] نعشه إلا جماعة من صنفه، وتجمع الناس في المكان الذي مات فـيه «الطر» واندس بينهم إخوانه وأشـاعوا - مقـدمًا - أن الشيخ «الطر» سـوف يطير بنعشه.

وبعد أن انتـهى تجهيز الميت بدأ سـير الجنازة وفجـأة لاحظ الناس أن الذين يحملون النعش يجرون به جريًا..

وصدق أكثرهم أن النعش هو الذي يجري رغم أنوف الذين يحملونه، فهللوا وكبّروا وأقروا للشيخ «بالولاية» وتردد هتافهم له: شهدنا لك... شهدنا لك.

وبعد أن نطق الجـمهـور «بالشهادة» كـان حملة النعش قـد تعبوا من شـدة الجري، فتمهلوا في سيرهم وقالوا: إن الشيخ أو سيدنا الشيخ قد اكتفى بما أظهره من كراماته، وأنه سكت عن مواصلة «الطيران» رحمة بالناس.

انتهى الناس من دفنه وانصرفوا إلى الحديث عنه، وكان أكثرهم يصدق ما أشيع عنه،

---

(١) ولماذا لم يترك أولئك النصابون النعش ليحمله الناس فيحصلوا جميعًا على أجر حمل الميت إلى القبر؟!.

ويؤكد أنه رأى النعش يطير فعلاً .

سألت أحدًا من أهل العلم فقال: حكاية النـعش الذي يطير بصاحبه أو حكاية الميت الذي يطير بنعشه حكاية «قـديمة قوي» لم نسمع بها إلا في بلادنا، وهذه الحكاية من تأليف وإخراج الشيعة الفاطميين .

هذا ما روته صحيفة المساء في عدد من أعدادها بشأن حوادث تطيير الموتى، وكثيرًا ما روت لنا الصحف والمجلات حوادث لطيران الموتى، بصورة تثير الحسرة في القلوب على ما أصاب عقـول المسلمين اليوم من خرافات، وما حلّ بعـقائدهم من أباطيل. . . وإن الإنسان ليتملكه العجب من أمر هؤلاء الذين يقومون بهذه الألاعـيب ليضحكوا على عقول جماهير المسلمين بالباطل .

فـالمعروف - وهذه سنن الله في جـميع خلـقه - أن الإنســان حين تزايل الروح بدنه ويموت وتتعطل جوارحه ويصير جثة هـامدة، ثم يُغسل ويجهز ويحمله الناس على أعناقهم إلى مرقـده الأخير، حيث يعـود إلى أصله وهو التراب كما يقـول تعالى: **﴿منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى﴾** [طه: ٥٥] .

فكيف نقبل بعد هذا أمر الميت حين يقـال عنه أنه طار بنعشه، وهو الذي تعارض مع السنن الكونية التي تجري على جميع الخلق من يوم أن خلق الله آدم إلى يومنا هذا؟!

وكيف نصدق أن إنسانًا مات، فشل الموت حركـته وعطل إرادته، تأتيه القدرة ليجري هنا وهناك، مخالفًا بذلك حـديث الرسول الصادق المصدوق حين يقول: «**إذا مـات ابن آدم انقطع عمله...**» مسلم وأبو داود .

أليس مـا يزعمونه عـن الميت عملاً من الأعـمال التي نفـاها الحديث الشـريف عن الميت؟! وإن من الخـير إسـراع المشـيعين بالجنازة، لأن الإسـراع بدفن الميت أمنيـة - الميت الصالح - فقد قال الرسول -ﷺ-: «أسرعوا بالجنازة فإنها إن تك صالحـة فخيرٌ تقدمونها إليه، وإن تك سوى ذلك فشرٌ تضعونه عن رقابكم» البخاري ومسلم .

ثم لماذا لا تحـدث هذه الكرامات والخـوارق عند بقـية أمـوات المسلمين؟! . أو عند الصدر الأول ، إنه لأمـر يدعو إلى العـجب والدهشة؛ فمـا من حادثة من حـوادث طيران الميت إلا ويكون بطلها شيـخ من شيوخ الصوفية أو أحـد مجاذبيها، أليس في جـميع بقاع الأرض من يدينون بالإسلام سوى الصوفية؟!

ثم أليس في العالم الإسـلامي مسلم تخلو عقيـدته من خرافات الصوفـية وضلالهم

وزيغهم وبهتـانهم، مسلم يؤمن بمبادئ الإسلام الصحـيحة قولاً وعمـلاً وحالاً، ومسلم لا يعـرف الالتواء الفكري ، والانحـراف العـقائدي، والمظاهر المزيـفة التي تنتـسب زوراً إلى الإسلام. . مسلم يأخذ الدين ببسـاطته التي جاء بها، ويعرف الإسلام بسماحتـه كما عرفه أسلافنـا الصالحون. . نقـول: أليس في العالـم الإسلامي كله مـسلم يعرف الإسـلام بهذه الصـورة الواضحـة. . ويؤمن بالدين دون زيادة أو نقـصان كـما بيَّنه رسـول الله - ﷺ - وارتضاء الله للمـسلمين؟ لم نسمع عن مسلم كـهذا أنه مات ثم ظهرت له كـرامات، فطار بنعشـه وهو محمـول على الأعناق أو أنه تحكم في حملة نعشـه فسار بهم هنا وهناك كـما يريد.

فلماذا تهـبط الكرامات والخوارق على أقطاب الصوفـية ومريديها وحـدهم دون بقية موتى المسلمين؟ إنها لعجيبة حقًّا .

● ● ●

مخالفات متعددة

[١] انتشرت في بعض المجتمعات الإسلامية مخالفات متعددة منها ما يقع عند بعض القبور ومنها ما يتّصل بالحَلف والأيمان والنُّذور، وقد تختلف أحكام هذه المخالفات بين ما يكون منها من قبيل الشِّرك المُخرج من الملَّة وما يكون دون ذلك، فحبذا لو تفضَّل سماحتكم ببسط القول وبيان أحكام تلك المسائل عليهم، ونصيحة أخرى لعامَّة المسلمين ترهيباً لهم من التَّساهل بأمر تلك المخالفات والتَّهاون بشأنها؟

الجواب: الحمد لله، وصلى الله وسلم على رسول الله وعلى آله وأصحابه ومن اهتدى بهداه (١).

أما بعد: فإنَّ كثيراً من الناس تلتبس عليهم الأمور المشروعة بالأمور الشركيَّة والمبتدعة حول القبور، كما أن كثيراً منهم قد يقع في الشِّرك الأكبر بسبب الجهل والتَّقليد الأعمى.

فالواجب على أهل العلم في كل مكان أن يوضِّحوا للناس دينهم وأن يبيِّنوا لهم حقيقة التَّوحيد، وحقيقة الشرك. كما يجب على أهل العلم أن يوضِّحوا للناس وسائل الشِّرك وأنواع البدع الواقعة بينهم حتى يحذَرُوها؛ لقول الله - عزّ وجلّ -: ﴿ **وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيننه للناس ولا تكتمونه** ﴾ الآية [آل عمران: ١٨٧]. وقال - سبحانه -: ﴿ **إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون. إلا الذين تابوا وأصلحوا وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم** ﴾ [سورة البقرة: ١٥٩].

وقال النبي - ﷺ -: «**مَن دلَّ على خير فله مثل أجر فاعله**». **رواه مسلم في «صحيحه»**. وقال - أيضًا - ﷺ -: «**من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من تبعه، لا ينقص ذلك من أجورهم شيئًا، ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الإثم مثل آثام من تبعه لا ينقص ذلك من آثامهم شيئًا**». رواه مسلم أيضًا. وفي الصحيحين عن معاوية - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ -أنه قال: «**من يُرد الله به خيراً يُفقِّهه في الدِّين**». والآيات والأحاديث في الدعوة إلى نشر العلم وترغيب الناس في ذلك والتَّحذير من الإعراض وكتمان العلم كثيرة.

---

(١) العلامة سماحة الشيخ عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله.

أمَّا ما يقع عند القبور من أنواع الشرك والبدع في بلدان كثيرة فهو أمر معلوم وجدير بالعناية والبيان والتحذير منه، فمن ذلك دعاء أصحاب القبور والاستغاثة بهم، وطلب شفاء المرضى، والنصر على الأعداء، ونحو ذلك، وهذا كلّه من الشرك الأكبر الذي كان عليه أهل الجاهلية، قال الله - سبحانه - : **﴿يا أيها الناس اعبدوا ربكم الذي خلقكم والذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾** [البقرة: ٢١] . وقال - سبحانه -: **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** [الذاريات: ٥٦] . وقال - سبحانه -: **﴿وقضى ربك ألا تعبدوا إلا إياه﴾** [الإسراء: ٢٣] . والمعنى أَمَرَ وأَوصى . وقال - سبحانه -: **﴿وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء﴾** [البينة: ٥] . والآيات في هذا المعنى كثيرة . والعبادة التي خلق الثّقلان لأجلها وأمروا بها هي توحيده سبحانه وتخصيصه بجميع الطاعات التي أمر بها من صلاة، وصوم، وزكاة، وحجّ، وذبح، ونذر وغير ذلك من أنواع العبادة . كما قال - سبحانه -: **﴿قل إن صلاتي ونُسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين﴾** [الأنعام: ١٦٢] . والنّسك هو العبادة ومنها الذّبح كما قال - سبحانه -: **﴿إنا أعطيناك الكوثر فصلِّ لربك وانحر﴾** [الكوثر : ١-٢] .

وقال النبي - ﷺ -: «**لعن الله من ذبح لغير الله**» . أخرجه مسلم في صحيحه من حديث أمير المؤمنين علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - .

وقال الله - سبحانه -: **﴿وأن المساجد لله فلا تدعو مع الله أحداً﴾** [الجن: ١٨] .

وقال - عزّ وجلّ -: **﴿ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا برهان له به فإنما حسابه عند ربه إنه لا يفلح الكافرون﴾** [المؤمنون: ١١٧] . وقال - عزّ وجلّ - في سورة فاطر: **﴿ذلكم الله ربكم له الملك والذين تدعون من دونه ما يملكون من قطمير. إن تدعوهم لا يسمعوا دعاءكم ولو سمعوا ما استجابوا لكم ويوم القيامة يكفرون بشرككم ولا ينبئك مثل خبير﴾** [فاطر: ١٢، ١٣] .

فأوضح - سبحانه - في هذه الآيات: أنَّ الصلاة لغيره، والذّبح لغيره، ودعاء الأموات والأصنام، والأشجار، والأحجار كل ذلك من الشرك بالله والكفر به . وأن جميع المدعوين من دونه من أنبياء أو ملائكة أو أولياء، أو جنّ أو أصنام أو غيرهم لا يملكون لداعيهم نفعًا ولا ضرًّا . وأن دعوتهم من دونه - سبحانه - شرك وكفر، كما أوضح - سبحانه - أنهم لا يسمعون دعاء داعيهم، ولو سمعوا لم يستجيبوا له .

فالواجب على جميع المكلَّفين من الجنِّ والإنس الحذر من ذلك، والتَّحذير منه، وبيان بطلانه، وأنه يخالف ما جاءت به الرّسل - عليهم الصلاة والسلام - من الدعوة إلى

توحيد الله، وإخلاص العبادة له، كما قال - سبحانه -: ﴿**ولقد بعثنا في كل أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت**﴾ [النحل: ٣٦].

وقال - سبحانه -: ﴿**وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون**﴾ [الأنبياء: ٢٥]. وقد مكث - ﷺ - في مكّة المكرمة ثلاث عشرة سنة يدعو فيها إلى الله - سبحانه - ويحذّر الناس من الشرك به، ويوضّح لهم معنى لا إله إلا الله، فاستجاب له الأقلّون، واستكبر عن طاعته واتباعه الأكثرون، ثم هاجر إلى المدينة - ﷺ - فنشر الدعوة إلى الله - سبحانه - هناك بين المهاجرين والأنصار، وجاهد في سبيل الله، وكتب إلى الملوك والرؤساء وأوضح لهم دعوته، وما جاء به من الهدى، وصبر وصابر في ذلك هو وأصحابه - رضي الله عنهم - حتى ظهر دين الله، ودخل الناس في دين الله أفواجًا، وانتشر التّوحيد وزال الشّرك من مكة والمدينة، ومن سائر الجزيرة على يده - ﷺ - وعلى يد أصحابه من بعده، ثم قام أصحابه بالدعوة إلى الله - سبحانه - والجهاد في سبيله في المشارق والمغارب حتى نصرهم الله على أعدائه ومكّن لهم في الأرض، وظهر دين الله على سائر الأديان، كما وعد بذلك - سبحانه - في كتابه العظيم حيث قال - عزّ وجلّ -: ﴿**هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليُظهره على الدين كله ولو كره المشركون**﴾ [التوبة: ٣٣]، و[الصف: ٩].

ومن البدع ووسائل الشرك ما يُفعل عند القبور من الصلاة عندها، والقراءة عندها، وبناء المساجد والقباب عليها، وهذا كلّه بدعة ومنكر، ومن وسائل الشرك الأكبر، ولهذا صحّ عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «**لعن الله اليهود والنّصارى اتّخذوا قبور أنبيائهم مساجد**». متفق على صحته من حديث عائشة - رضي الله عنها -. وفي صحيح مسلم عن جندب بن عبد الله - رضي الله عنه - عن النبي - ﷺ- أنه قال: «**ألا وإن من كان قبلكم كانوا يتّخذون قبور أنبيائهم وصالحيهم مساجد، ألا فلا تتّخذوا القبور مساجد، فإنّي أنهاكم عن ذلك**».

فأوضح - ﷺ - في هذين الحديثين وما جاء في معناهما: أن اليهود والنّصارى كانوا يتخذون قبور أنبيائهم مساجد، فحذّر أمّته من التشبُّه بهم باتّخاذها مساجد، والصلاة عندها، والعكوف عندها، والقراءة عندها؛ لأنّ هذا كلّه من وسائل الشرك. ومن ذلك: البناء عليها، واتّخاذ القِباب والسّتور عليها.

فكل ذلك من وسائل الشرك والغلوّ في أهلها. كما قد وقع ذلك من اليهود والنّصارى ومن جهّال هذه الأمّة، حتى عبدوا أصحاب القبور، وذبحوا لهم، واستغاثوا بهم، ونذروا لهم، وطلبوا منهم شفاء المرضى، والنّصر على الأعداء. كما يعلم ذلك من

عرف ما يفعل عند قبر الحسين، والبدوي، والشيخ عبد القادر الجيلاني، وابن عربي وغيرهم من أنواع الشرك الأكبر، والله المستعان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله .

وقد صحَّ عن رسول الله - ﷺ - أنه نهى عن تجصيص القبور، والقعود عليها، والبناء عليها، والكتابة عليها، وما ذاك إلاّ لأنَّ تجصيصها والبناء عليها من وسائل الشرك الأكبر بأهلها .

فالواجب على جميع المسلمين حكومات وشعوبًا الحذر من هذا الشرك ومن هذه البدع، وسؤال أهل العلم المعروفين بالعقيدة الصَّحيحة، والسّير على منهج سلف الأمة عمَّا أشكل عليهم من أمور دينهم حتى يعبدوا الله على بصيرة، عملاً بقول الله - عزّ وجلّ -: **﴿فاسألوا أهل الذِّكر إن كنتم لا تعلمون﴾** [الأنبياء: ٧] .

وقول النبي - ﷺ -: «**مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سهَّل الله له به طريقًا إلى الجنَّة**» . وقوله - ﷺ -: «**مَن يُرد الله به خيرًا يفقِّهه في الدّين**» . ومعلوم أنَّ العباد لم يُخلقوا عبثًا وإنما خُلقوا لحكمة عظيمة وغاية شريفة، وهي عبادة الله وحده دون كل ما سواه، كما قال - عزّ وجلّ : **﴿وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون﴾** [الذاريات: ٥٦] .

ولا سبيل إلى معرفة هذه العبادة إلاّ بتدبُّر الكتاب العظيم والسنَّة المطهرة . ومعرفة ما أمر الله به ورسوله من أنواع العبادة وسؤال أهل العلم عمَّا أشكل في ذلك .

وبذلك تعرف عبادة الله - سبحانه وتعالى - التي خلق العباد من أجلها، وتؤدّى على الوجه الذي شرعه الله، وهذا هو السبيل الوحيد إلى مرضاة الله - سبحانه - والفوز بكرامته، والنجاة من غضبه وعقابه . وفَّق الله المسلمين لكل ما فيه رضاه، ومنحهم الفقه في دينه وولَّى عليهم خيارهم وأصلح قادتهم، ووفّق علماء المسلمين لأداء ما يجب عليهم من الدعوة والتعليم، والنُّصح والتوجيه إنه جواد كريم .

ومن أنواع الشرك الحلف بغير الله، كالحلف بالأنبياء، وبرأس فلان، وحياة فلان، والحلف بالأمانة والشرف، وقد صحَّ عن رسول الله - ﷺ - أنه قال: «**من كان حالفًا فليحلف بالله أو ليصمت**» . متَّفق على صحته . وقوله - ﷺ -: «**من حلف بشيء دون الله فقد أشرك**» . رواه الإمام أحمد عن أمير المؤمنين عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - بإسناد صحيح .

وقوله - ﷺ -: «**من حلف بغير الله فقد كفر أو أشرك**» . أخرجه أبو داود والترمذي بإسناد صحيح من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما - وقال - ﷺ -: «**من حلف بالأمانة فليس منَّا**» . وقال أيضًا - ﷺ -: «**لا تحلفوا بآبائكم ولا بأمَّهاتكم، ولا بالأنداد، ولا**

تحلفوا بالله إلا وأنتم صادقون » .

والأحاديث في هذا المعنى كثيرة، والحلف بغير الله من الشرك الأصغر، وقد يُفضي إلى الشرك الأكبر إذا اعتقد تعظيمه مثل تعظيم الله، أو أنه ينفع ويضرّ دون الله، أو أنه يصلح لأن يُدعى أو يُستغاث به . ومن هذا الباب قول: ما شاء الله وشاء فلان . ولولا الله وفلان . وهذا من الله وفلان . وهذا كله من الشرك الأصغر لقول النبي - ﷺ -: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء فلان، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء فلان**» .

وبهذا يُعلم أنه لا حرج بأن يقول: لولا الله ثم فلان، أو هذا من الله ثم فلان .. إذا كان له تسبّب في ذلك .

وثبت عنه - ﷺ - أن رجلاً قال له: ما شاء الله وشئت، فقال له - ﷺ -: «**أجعلتني لله ندًّا، قل ما شاء الله وحده**» . فدلَّ هذا الحديث على أنه إذا قال: ما شاء الله وحده، فهذا هو الأكمل، وإن قال: ما شاء الله ثم شاء فلان فلا حرج جمعًا بين الأحاديث والأدلَّة كلها، والله ولي التوفيق .

• لا يجوز التوسل بالنبي ﷺ •

[٢] يخلط بعض الناس بين التوسُّل بالإيمان بالنبي - ﷺ - ومحبّته وطاعته، والتوسّل بذاته وجاهه كما يقع الخلط بين التوسّل بدعائه - ﷺ - في حياته وسؤاله الدعاء بعد مماته، وقد ترتَّب على هذا الخلط التباس المشروع من ذلك الممنوع منه، فهل من تفصيل يزيل اللّبس في هذا الباب، ويُردّ به على أصحاب الأهواء الذين يلبِّسون على المسلمين في هذه المسائل ؟

الجواب: لا شكَّ أن كثيراً من الناس لا يفرِّقون بين التوسّل المشروع والتوسّل الممنوع بسبب الجهل وقلَّة من ينبِّههم ويرشدهم إلى الحقّ، ومعلوم أن بينهما فرقًا عظيمًا، فالتوسّل المشروع هو الذي بعث الله به الرّسل، وأنزل به الكتب، وخلق من أجله الثّقلين، وهو عبادته - سبحانه - ومحبّته ومحبّة رسوله - ﷺ -ومحبَّة جميع الرّسل والمؤمنين والإيمان به وبكلّ ما أخبر الله به ورسوله من البعث والنّشور، والجنة والنار، وسائر ما أخبر الله به ورسوله .

فهذا كلّه من الوسيلة الشرعيَّة لدخول الجنة والنجاة من النار، والسعادة في الدنيا والآخرة، ومن ذلك دعاؤه - سبحانه - والتوسّل إليه بأسمائه وصفاته ومحبّته، والإيمان به وبجميع الأعمال الصالحة التي شرعها لعباده، وجعلها وسيلة إلى مرضاته والفوز بجنَّته

وكرامته، والفوز أيضًا بتفريج الكروب وتيسير الأمور في الدنيا والآخرة، كما قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿ **ومن يتق الله يجعل له مخرجًا ويرزقه من حيث لا يحتسب** ﴾ [الطلاق: ٢] . وقال - سبحانه -: ﴿ **ومن يتق الله يجعل له من أمره يسرًا** ﴾[الطلاق: ٤] . وقال - عزّ وجلّ-:﴿ **ومن يتق الله يكفِّر عنه سيئاته ويُعظم له أجرًا** ﴾ [الطلاق: ٥] . وقال - عزّ وجلّ-: ﴿ **إن المتقين في جنات وعيون** ﴾[الذاريات: ٥] . وقال - سبحانه -: ﴿ **إن للمتقين عند ربهم جنات وعيون** ﴾[الطور: ١٧] . وقال - تعالى -: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن تتقوا الله يجعل لكم فرقانًا ويكفِّر عنكم سيئاتكم ويغفر لكم** ﴾ [الأنفال: ٢٩] . هو العلم والهدى والفرقان . والآيات في هذا المعنى كثيرة .

ومن التوسّل المشروع التوسل إلى الله - سبحانه - بمحبّة نبيه - ﷺ - والإيمان به، واتّباع شريعته ؛ لأن هذه الأمور من أعظم الأعمال الصالحات، ومن أفضل القربات، أمّا التوسل بجاهه - ﷺ - أو بذاته، أو بحقّه، أو بجاه غيره من الأنبياء والصالحين أو ذواتهم أو حقهم، فمن البدع التي لا أصل لها ؛ بل من وسائل الشرك، لأن الصحابة - رضي الله عنهم - وهم أعلم الناس بالرسول - ﷺ - وبحقّه لم يفعلوا ذلك، ولو كان خيرًا لسبقونا إليه، ولَمّا أجدبوا في عهد عمر - رضي الله عنه - لم يذهبوا إلى قبره - ﷺ - ولم يتوسَّلوا به ولم يدعوا عنده ؛ بل استسقى عمر - رضي الله عنه - بعمِّه - ﷺ - العباس بن عبد المطلب أي بدعائه فقال - رضي الله عنه - وهو على المنبر: اللهم إنَّا كنَّا إذا أجدبنا نتوسَّل إليك بنبيِّنا فتُسقنَا، وإنَّا نتوسّل إليك بعمِّ نبينا فاسقنا فيسقون . رواه البخاري في صحيحه .

ثم أمر - رضي الله عنه - العباس أن يدعو فدعا وأمَّن المسلمون على دعائه فسقاهم الله - عزّ وجلّ - وقصَّة أهل الغار مشهورة وهي ثابته في الصحيحين، وخلاصتها أن ثلاثة مِّمن كان قبلنا آواهم المبيت والمطر إلى غار، فدخلوا فيه فانحدرت صخرة من الجبل فسدَّت عليهم الغار، ولم يستطيعوا دفعها، فقالوا فيما بينهم: لن ينجيكم من هذه الصخرة إلا أن تدعوا الله بصالح أعمالكم، فدعوه - سبحانه - واستغاثوا به وتوسّل أحدهم ببرِّ والديه، والثاني بعفّته عن الزّنا بعد القدرة، والثالث بأدائه الأمانة . فأزاح الله عنهم الصخرة وخرجوا، وهذه القصة من الدلائل العظيمة على أن الأعمال الصالحة من أعظم الأسباب في تفريج الكروب والخروج من المضائق، والعافية من شدائد الدنيا والآخرة .

أما التوسّل بجاه فلان أو بحقِّ فلان أو ذاته، فهذا من البدع المنكرة، ومن وسائل الشرك، وأما دعاء الميت والاستغاثة به فذلك من الشرك الأكبر .

والصحابة - رضي الله عنهم - كانوا يطلبون من النبي - ﷺ - أن يدعو لهم، وأن

يستغيث لهم إذا أجدبوا، ويشفع في كل ما ينفعهم حين كان حيًّا بينهم، فلما توفي -ﷺ- لم يسألوه شيئًا بعد وفاته، ولم يأتوا إلى قبره يسألونه الشفاعة أو غيرها؛ لأنهم يعلمون أن ذلك لا يجوز بعد وفاته - ﷺ - وإنما يجوز ذلك في حياته - ﷺ - قبل موته ويوم القيامة حين يتوجَّه إليه المؤمنون ليشفع لهم ليقضي الله بينهم ولدخولهم الجنة، بعد ما يأتون آدم، ونوحًا، وإبراهيم، وموسى، وعيسى، عليهم الصلاة والسلام، فيعتذرون عن الشفاعة، كل واحد يقول: نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، فإذا أتوا عيسى - عليه السلام - اعتذر إليهم وأرشدهم إلى أن يأتوا نبينا محمدًا - ﷺ - فيأتونه فيقول: «**أنا لها، أنا لها**» لأن الله - سبحانه - قد وعده ذلك فيذهب ويخرّ ساجدًا بين يديّ الله - عزّ وجلّ - ويحمده بمحامد كثيرة ولا يزال ساجدًا حتى يُقال له: «**ارفع رأسك وقل تُسمع، وسل تعط، واشفع تشفَّع**».

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين وهو حديث الشَّفاعة المشهور، وهذا هو المقام المحمود الذي ذكره الله - سبحانه - في قوله - تعالى - في سورة الإسراء: ﴿**عسى أن يبعثك ربك مقامًا محمودًا**﴾ [الإسراء: ٧٩].

صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه وأتباعه بإحسان، وجعلنا الله من أهل شفاعته إنه سميع قريب.

• معنى لا إله إلا الله •

[٣] يُلاحظ جهل كثير من المحسوبين على الأمَّة الإسلاميَّة بمعنى لا إله إلا الله وقد ترتَّب على ذلك الوقوع فيما يُنافيها ويُضادّها أو ينقصها من الأقوال والأعمال. فما معنى لا إله إلا الله؟ وما مقتضاها؟ وما شروطها؟

الجواب: لا شكّ أنّ هذه الكلمة وهي لا إله إلا الله هي أساس الدين، وهي الركن الأول من أركان الإسلام، مع شهادة أنَّ محمدًا رسول الله، كما في الحديث الصحيح عن النبي - ﷺ - أنه قال: «**بُني الإسلام على خمس: شهادة أن لا إله إلا الله وأنَّ محمدًا رسول الله، وإقامة الصَّلاة، وإيتاء الزَّكاة، وصوم رمضان، وحجّ البيت**». متفق على صحته من حديث ابن عمر - رضي الله عنهما -.

وفي الصحيحين عن ابن عباس - رضي الله عنهما - أن النبي - ﷺ - لما بَعث معاذًا - رضي الله عنه - إلى اليمن، قال له: «**إنَّك تأتي قومًا من أهل الكتاب، فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله، وأنّي رسول الله، فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم خمس صلوات في اليوم والليلة، فإن أطاعوك لذلك فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة**

تُؤخذ من أغنيائهم فتردّ في فقرائهم». الحديث متفق عليه، والأحاديث في هذا الباب كثيرة.

ومعنى شهادة أن لا إله إلا الله: لا معبود بحقّ إلا الله، وهي تنفي الإلهية بحق عن غير الله – سبحانه – وتثبتها بالحق لله وحده، كما قال الله – عزّ وجلّ – في سورة الحج: ﴿ **ذلك بأن الله هو الحق وأن ما يدعون من دونه هو الباطل** ﴾ [الحج: ٦٢]. وقال – سبحانه– في سورة المؤمنين: ﴿ **ومن يدع مع الله إلهًا آخر لا بُرهان له به فإنَّما حسابه عند ربه إنّه لا يفلح الكافرون** ﴾ [المؤمنون: ١١٧]. وقال – عزّ وجلّ – في سورة البقرة: ﴿ **وإلهكم إله واحد لا إله إلا هو الرحمن الرحيم** ﴾ [البقرة: ١٦٣]. وقال في سورة البيِّنة: ﴿ **وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حُنفاء** ﴾ [البينة: ٥].

والآيات في هذا المعنى كثيرة، وهذه الكلمة العظيمة لا تنفع قائلها ولا تُخرجه من دائرة الشرك إلا إذا عرف معناها وعمل به وصدَّق به.

وقد كان المنافقون يقولونها وهم في الدَّرك الأسفل من النار؛ لأنهم لم يؤمنوا بها ولم يعملوا بها.

وهكذا اليهود تقولها وهم من أكفر الناس – لعدم إيمانهم بها –.

وهكذا عبَّاد القبور والأولياء من كفَّار هذه الأمة يقولونها وهم يخالفون بأقوالهم وأفعالهم وعقيدتهم، فلا تنفعهم ولا يكونون بقولها مسلمين؛ لأنهم ناقضوها بأقوالهم، وأعمالهم، وعقائدهم. وقد ذكر بعض أهل العلم أن شروطها ثمانية جمعها في بيتين فقال:

علم يقين وإخلاص وصدقك مع ... محبة وانقياد والقبول لها

وزيد ثامنها الكفران منك بما ... سوى الإله من الأشياء قد ألها

وهذان البيتان قد استوفيا جميع شروطها:

الأول: العلم بمعناها المنافي للجهل وتقدّم أن معناها لا معبود حق إلا الله، فجميع الآلهة التي يعبدها الناس سوى الله – سبحانه – كلها باطلة.

الثاني: اليقين المنافي للشكّ فلا بد في حق قائلها أن يكون على يقين بأن الله – سبحانه – هو المعبود بالحق.

الثالث: الإخلاص وذلك بأن يخلص العبد لربِّه – سبحانه – وهو الله – عزّ وجلّ – جميع العبادات فإذا صرف منها شيئًا لغير الله من نبيٍّ، أو وليٍّ، أو مَلَكٍ، أو صنمٍ، أو

جنيٍّ أو غيرها فقد أشرك بالله ونقض هذا الشرط وهو شرط الإخلاص .

الرابع : الصدق، ومعناه أن يقولها وهو صادق في ذلك، يطابق قلبه لسانه، ولسانه قلبه، فإن قالها باللسان فقط وقلبه لم يؤمن بمعناها فإنها لا تنفعه، ويكون بذلك كافراً كسائر المنافقين .

الخامس : المحبة، ومعناها أن يحبّ الله – عز وجل – فإن قالها وهو لا يحب الله صار كافراً لم يدخل في الإسلام كالمنافقين .

ومن أدلّة ذلك قوله – تعالى – : ﴿ **قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله** ﴾ [آل عمران : ٣١] . وقوله – سبحانه – : ﴿ **ومن الناس من يتخذ من دون الله أنداداً يحبونهم كحبِّ الله والذين آمنوا أشد حبًا لله** ﴾ [البقرة : ١٦٥] . والآيات في هذا المعنى كثيرة .

السادس : الانقياد لما دلَّت عليه من المعنى، ومعناه أن يعبد الله وحده وينقاد لشريعته، ويؤمن بها، ويعتقد أنها الحق، فإن قالها ولم يعبد الله وحده، ولم ينقاد لشريعته، بل استكبر عن ذلك، فإنه لا يكون مسلماً كإبليس وأمثاله .

السابع : القبول لما دلت عليه، ومعناه أن يقبل ما دلَّت عليه من إخلاص العبادة لله وحده، وترك عبادة ما سواه، وأن يلتزم بذلك ويرضى به .

الثامن : الكفر بما يُعبد من دون الله، ومعناه أن يتبرأ من عبادة غير الله ويعتقد أنها باطلة، كما قال الله – سبحانه – : ﴿ **فمن يكفر بالطَّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وصحَّ عن رسول الله – ﷺ – أنه قال : « **من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله حَرُم مالُه ودمُه وحسابه على الله** » . وفي رواية عنه – ﷺ – أنه قال : « **من وحَّد الله وكفر بما يُعبد من دون الله حرم ماله ودمه** » . أخرجه مسلم في صحيحه .

فالواجب على جميع المسلمين أن يحقِّقوا هذه الكلمة بمراعاة هذه الشروط، متى وجد من المسلم معناها والاستقامة عليه فهو مسلم حرام الدم والمال . وإن لم يعرف تفاصيل هذه الشروط ؛ لأن المقصود هو العلم بالحق والعمل به، وإن لم يعرف المؤمن تفاصيل الشّروط المطلوبة، والطاغوت هو كل ما عُبد من دون الله كما قال الله – عزّ وجلّ – : ﴿ **فمن يكفر بالطَّاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها** ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

وقال – سبحانه – : ﴿ **ولقد بعثنا في كلِّ أمة رسولاً أن اعبدوا الله واجتنبوا الطَّاغوت** ﴾ [النحل : ٣٦] . ومن كان لا يرضى بذلك من المعبودين من دون الله كالأنبياء والصالحين والملائكة فإنهم ليسوا بطواغيت، وإنما الطاغوت هو الشيطان الذي دعا إلى

عبادتهم وزيَّنها للناس، نسأل الله لنا وللمسلمين العافية من كل سوء .

وأما الفرق بين الأعمال التي تنافي هذه الكلمة وهي لا إله إلا الله، والتي تنافي كمالها الواجب، فهو : أن كل عمل أو قول أو اعتقاد يوقع صاحبه في الشرك الأكبر فهو ينافيها بالكليَّة ويضادّها . كدعاء الأموات، والملائكة، والأصنام، والأشجار، والأحجار، والنجوم ونحو ذلك . . والذبح لهم، والنذر والسجود لهم وغير ذلك .

فهذا كلّه ينافي التوحيد بالكليّة ويضادّ هذه الكلمة ويُبطلها، وهي لا إله إلا الله، ومن ذلك استحلال ما حرَّم الله من المحرَّمات المعلومة من الدين بالضرورة والإجماع كالزنا، وشرب المسكر، وعقوق الوالدين، والربا ونحو ذلك . ومن ذلك أيضًا جحد ما أوجب الله من الأقوال والأعمال المعلومة من الدين بالضرورة والإجماع كوجوب الصلوات الخمس، والزكاة، وصوم رمضان، وبرّ الوالدين، والنطق بالشهادتين ونحو ذلك .

أما الأقوال والأعمال والاعتقادات التي تضعف التوحيد والإيمان، وتنافي كمالها الواجب، فهي كثيرة ومنها : الشرك الأصغر : كالرياء، والحلف بغير الله، وقول ما شاء الله وشاء فلان، أو هذا من الله ومن فلان، ونحو ذلك، وهكذا جميع المعاصي كلها تضعف التوحيد والإيمان وتنافي كمالها الواجب، فالواجب الحذر من جميع ما ينافي التوحيد والإيمان أو ينقص ثوابهما . والإيمان عند أهل السنة والجماعة قول وعمل يزيد بالطاعة وينقص بالمعصية، والأدلّة على ذلك كثيرة أوضحها أهل العلم في كتب العقيدة وكتب التفسير والحديث فمن أرادها وجدها والحمد لله . ومن ذلك قول الله – تعالى –: ﴿ **وإذا ما أنزلت سورة فمنهم من يقول أيُّكم زادته هذه إيمانًا فأمَّا الذين آمنوا فزادتهم إيمانًا وهم يستبشرون** ﴾[التوبة : ١٢٤] . وقوله – سبحانه –: ﴿ **إنَّما المؤمنون الذين إذا ذُكِرَ الله وجلت قلوبهم وإذا تُليت عليهم آياته زادتهم إيمانًا وعلى ربِّهم يتوكلون** ﴾ [الأنفال : ٢] وقوله – سبحانه –: ﴿ **ويزيد الله الذين اهتدوا هدى** ﴾ [مريم : ٧٦]، والآيات في هذا المعنى كثيرة .

● إثبات وجود الله تعالى ●

[٤] تكثر في العصر الحاضر البحوث والمؤلّفات والمحاضرات في إثبات وجود الله وتقرير ربوبيته من غير الاستدلال بذلك على لازم ذلك ومقتضاه وهو توحيد الإلهية، وقد ترتَّب على ذلك : الجهل بتوحيد الإلهية، والتَّهاون بأمره فحبذا لو ألقيتم الضّوء على أهمية توحيد الإلهية من حيث إنه أساس النَّجاة ومدارها ومفتاح دعوة الرسل، عليهم الصلاة والسلام، والأصل الذي يبنى عليه غيره؟

الجواب: لا ريب أن الله - سبحانه - أرسل الرّسل وأنزل الكتب لبيان حقّه على عباده ودعوتهم إلى إخلاص العبادة له - سبحانه - دون كل ما سواه . وتخصيصه بجميع عباداتهم ؛ لأن أكثر أهل الأرض قد عرفوا أن الله ربهم وخالقهم ورازقهم، وإنما وقعوا في الشرك به - سبحانه - بصرف عباداتهم أو بعضها لغيره، جهلاً بذلك وتقليداً لآبائهم وأسلافهم، كما جرى لقوم نوح ومن بعدهم من الأمم . وكما جرى لأوائل هذه الأمة، فإن الرسول - ﷺ - لما دعاهم إلى توحيد الله استنكروا ذلك واستكبروا عن قبوله، وقالوا كما ذكر الله ذلك عنهم: ﴿**أجعل الآلهة إلهًا واحداً إن هذا لشيء عجاب**﴾ [سورة ص: ٥]. هكذا في سورة ص . وقال عنهم - سبحانه - في سورة الصافات: ﴿**إنهم كانوا إذا قيل لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنّا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون**﴾ [الصافات: ٣٦] . وقال عنهم - سبحانه - في سورة الزخرف: ﴿**إنَّا وجدنا آباءنا على أمة وإنَّا على آثارهم مقتدون**﴾ [الزخرف: ٢٣] . والآيات في هذا المعنى كثيرة . فالواجب على علماء المسلمين وعلى دُعاة الهدى أن يوضحوا للناس حقيقة توحيد الألوهية. . والفرق بينه وبين توحيد الرّبوبيَّة وتوحيد الأسماء والصفات ؛ لأن كثيرًا من المسلمين يجهل ذلك فضلاً عن غيرهم، وقد كان كفَّار قريش وغيرهم من العرب وغالب الأمم يعرفون أنَّ الله خالقهم ورازقهم، ولهذا احتجَّ عليهم - سبحانه - بذلك ؛ لأنه - جلّ وعلا - وهو المستحق لأن يعبدوه، لكونه خالقهم، ورازقهم، والقادر عليهم من جميع الوجوه، كما قال - سبحانه -: ﴿**ولئن سألتهم من خلق السموات والأرض ليقولن الله**﴾ [الزخرف: ٨٧] .

وقال - عزّ وجلّ - آمرًا نبيّه - ﷺ - أن يسألهم عمَّن يرزقهم: ﴿**قل من يرزقكم من السماء والأرض أم من يملك السَّمع والأبصار ومن يخرج الحي من الميت ويُخرج الميت من الحي ومن يُدبر الأمر**﴾ [العنكبوت: ٦١] . قال الله - سبحانه -: ﴿**فسيقولون الله فقل ألا تتقون**﴾ [يونس: ٣١] . والآيات في هذا المعنى كثيرة، يحتج عليهم - سبحانه - بما أقروا به من كونه ربّهم، وخالقهم، ورازقهم، وخالق السماء والأرض، ومدبّر الأمر على ما أنكروه من توحيد العبادة، وبطلان عبادة الأصنام والأوثان وغيرها من كل ما يعبدون من دون الله .

وهكذا أمر - سبحانه - عباده بأن يؤمنوا بأسمائه وصفاته، وأن ينزِّهوه عن مشابهة الخلق، فقال - سبحانه -: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾ [الأعراف: ١٨٠] . وقال في سورة الحشر: ﴿**هو الله الذي لا إله إلا هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم**﴾ إلى آخر السورة [الحشر، الآيات: ٢١-٢٤] .

وقال - عزّ وجلّ -: ﴿قل هو الله أحد . الله الصمد . لم يلد ولم يولد . ولم يكن له كفواً أحد﴾ [سورة الإخلاص كلها] . وقال - عزّ وجلّ -: ﴿فلا تجعلوا لله أنداداً وأنتم تعلمون﴾[البقرة: ٢٢] . وقال - سبحانه -: ﴿ليس كمثله شيء وهو السميع البصير﴾ [الشورى: ١١] . والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وقد أوضح أهل العلم - رحمهم الله - أن توحيد الربوبيَّة يستلزم توحيد الألوهيَّة وهو إفراد الله بالعبادة، ويوجب ذلك ويقتضيه، ولهذا احتجَّ الله عليهم بذلك، وهكذا توحيد الأسماء والصفات يستلزم تخصيص الله بالعبادة، وإفراده بها ؛ لأنه - سبحانه - هو الكامل في ذاته، وفي أسمائه وصفاته، وهو المنعم على عباده، فهو المستحق لأن يعبدوه ويطيعوا أوامره وينتهوا عن نواهيه . وأمّا توحيد العبادة، فهو يتضمَّن النوعين، ويشتمل عليهما لمن حقق ذلك واستقام عليه علمًا وعملاً .

وقد بسط أهل العلم بيان هذا المعنى في كتب العقيدة والتفسير، كتفسير ابن جرير، وابن كثير، والبغوي وغيرهم، وكتاب السنة لعبد الله بن أحمد، وكتاب التوحيد لابن خزيمة، وردّ العلاَّمة عثمان بن سعيد الدارمي على بشر المريسي وغيرهم من علماء السلف - رحمهم الله - في كتبهم .

وممَّن أجاد في ذلك شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلاَّمة ابن القيم - رحمة الله عليهما - في كتبهما .

وهكذا أئمة الدعوة الإسلامية في القرن الثاني عشر وما بعده، كالشيخ الإمام محمد ابن عبد الوهاب - رحمه الله - وأبنائه، وتلاميذه، وأتباعهم من أهل السنة .

ومن أحسن ما أُلِّف في ذلك: «فتح المجيد» وأصله تيسير العزيز الحميد، الأول للشيخ عبد الرحمن بن حسن - رحمه الله - ، والثاني للشيخ سليمان بن عبد الله آل الشيخ - رحمه الله - .

ومن أحسن ما جمع في ذلك الأجزاء الأولى من الدرر السنيَّة التي جمعها الشيخ العلاَّمة عبد الرحمن بن قاسم - رحمه الله - فإنه جمع فيها فتاوى أئمة الدعوة من آل الشيخ وغيرهم من علماء القرن الثاني عشر وما بعده في العقيدة والأحكام فأنصح بقراءتها ومراجعتها وغيرها من كتب علماء السنة لما في ذلك من الفائدة العظيمة .

ومن ذلك مجموعة الرسائل الأولى لأئمة الدعوة من آل الشيخ وغيرهم - رحمهم الله - وردود المشايخ: الشيخ عبد الرحمن بن حسن، والشيخ عبد اللطيف بن عبدالرحمن، والشيخ عبد الله أبابطين، والشيخ سليمان بن سحمان، وغيرهم من أئمة الهدى وأنصار

التوحيد لما فيها من الفائدة وإزالة الشّبه الكثيرة، والردّ على أهلها، رحمهم الله جميعًا رحمة واسعة وأسكنهم فسيح جناته وجعلنا من أتباعهم بإحسان . ومن ذلك أعداد مجلة البحوث الإسلامية التي تصدرها الرئاسة العامة لإدارات البحوث العلمية والإفتاء والدعوة والإرشاد لما فيها من المقالات العظيمة والفوائد الكثيرة في العقيدة والأحكام .

ومن ذلك: المجلدات الأُولى من الفتاوى والمقالات الصادرة مني فيما يتعلق بالعقيدة وهي مطبوعة بحمد الله، وموجودة بين طلبة العلم . نفع الله بها .

• حكم التبرك •

[٥] هناك من يرى جواز التبرّك بالعلماء والصالحين وآثارهم مستدلاً بما ثبت من تبرّك الصحابة - رضي الله عنهم - بالنبي - ﷺ - فما حكم ذلك؟ ثم أليس فيه تشبيه لغير النبي - ﷺ - بالنبي - ﷺ -؟ وهل يمكن التبرّك بالنبي - ﷺ - بعد وفاته؟ وما حكم التوسّل إلى الله - تعالى - ببركة النبي - ﷺ -؟

الجواب: لا يجوز التبرّك بأحد غير النبي - ﷺ - لا بوضوئه، ولا بشعره، ولا بعرقه، ولا بشيء من جسده ؛ بل هذا كله خاص بالنبي - ﷺ -، لما جعل الله في جسده وما مسّه من الخير والبركة .

ولهذا لم يتبرّك الصحابة - رضي الله عنهم - بأحد منهم، لا في حياته ولا بعد وفاته - ﷺ - لا مع الخلفاء الراشدين ولا مع غيرهم . فدل ذلك على أنهم قد عرفوا أن ذلك خاصٌّ بالنبي - ﷺ - دون غيره، ولأن ذلك وسيلة إلى الشرك وعبادة غير الله سبحانه . . وهكذا لا يجوز التوسل إلى الله - سبحانه - بجاه النبي - ﷺ - أو ذاته أو صفته أو بركته لعدم الدليل على ذلك ؛ ولأن ذلك من وسائل الشرك به والغلوّ فيه - ﷺ -، ولأن ذلك أيضًا لم يفعله أصحابه - رضي الله عنهم - ولو كان خيراً لسبقونا إليه؛ ولأن ذلك خلاف الأدلّة الشرعية، فقد قال الله - عزّ وجلّ -: ﴿**ولله الأسماء الحسنى فادعوه بها**﴾ [الأعراف: ١٨٠] . ولم يأمر بدعائه - سبحانه - بجاه أحد أو حق أحد أو بركة أحد .

ويلحق بأسمائه - سبحانه - التوسّل بصفاته كعزّته، ورحمته، وكلامه وغير ذلك .

ومن ذلك ما جاء في الأحاديث الصحيحة من التعوّذ بكلمات الله التّامّات، والتّعوّذ بعزّة الله وقدرته .

ويلحق بذلك أيضًا التوسل بمحبة الله - سبحانه - ومحبة رسوله - ﷺ -، وبالإيمان

بالله وبرسوله، والتوسل بالأعمال الصالحات، كما في قصة أصحاب الغار الذين آواهم المبيت والمطر إلى غار فدخلوا فيه فانحدرت عليهم صخرة من الجبل فسدَّت عليهم باب الغار، ولم يستطيعوا دفعها، فتفكروا بينهم في وسيلة الخلاص منها، واتَّفقوا بينهم على أنه لن ينجيهم منها إلا أن يدعوا الله بصالح أعمالهم، فتوسَّل أحدهم إلى الله – سبحانه – في ذلك ببرّ والديه، فانفرجت الصخرة شيئًا لكنهم لا يستطيعون الخروج منه. ثم توسّل الثاني بعفته عن الزِّنا بعد القدرة عليه، فانفرجت الصخرة بعض الشيء لكنهم لا يستطيعون الخروج من ذلك. ثم توسل الثالث بأداء الأمانة فانفرجت الصخرة وخرجوا.

وهذا الحديث ثابت في الصحيحين عن النبي – صلى الله عليه وسلم –، من أخبار مَنْ قبلنا لما فيه من العظة لنا والتّذكير.

وقد صرَّح العلماء – رحمهم الله – بما ذكرته في هذا الجواب .. كشيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه العلاَّمة ابن القيم، والشيخ العلاَّمة عبد الرحمن بن حسن في فتح المجيد شرح كتاب التوحيد وغيرهم. وأما حديث توسل الأعمى بالنبي، – صلى الله عليه وسلم– في حياته – صلى الله عليه وسلم –، فشفع فيه النبي – صلى الله عليه وسلم –، ودعا له فرد الله عليه بصره، فهذا توسّل بدعاء النبي وشفاعته وليس ذلك بجاهه وحقه، كما هو واضح في الحديث. وكما يتشفَّع الناس به يوم القيامة في القضاء بينهم. كما يتشفَّع به يوم القيامة أهل الجنة في دخولهم الجنة. وكل هذا توسل به في حياته الدنيوية والأخروية. وهو توسل بدعائه وشفاعته لا بذاته وحقه كما صرح بذلك أهل العلم، ومنهم من ذكرنا آنفا.

● الاستغاثة بالأموات كفر بالله تعالى ●

[٦] يقع كثير من العامَّة في جملة من المخالفات الفادحة في التوحيد فما حكمهم؟ وهل يُعذرون بالجهل؟ وحكم مناكحتهم وأكل ذبائحهم؟ وهل يجوز دخولهم مكة المكرمة؟

الجواب: من عرف بدعاء الأموات والاستغاثة بهم والنّذر لهم، ونحو ذلك من أنواع العبادة فهو مشرك كافر لا تجوز مناكحته، ولا دخوله المسجد الحرام، ولا معاملته معاملة المسلمين، ولو ادعى الجهل حتى يتوب إلى الله من ذلك. لقول الله – عزّ وجلّ – في سورة البقرة: ﴿ **ولا تنحكوا المشركات حتى يؤمنَّ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ولا تُنكحوا المشركين حتى يُؤمنوا ولعبدٌ مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم** ﴾ [البقرة: ٢٢١].

وقوله – سبحانه – في سورة الممتحنة: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المؤمنات**

مهاجرات فامتحنوهنَّ الله أعلم بإيمانهنَّ فإن علمتموهنَّ مؤمنات فلا تُرجعوهنَّ إلى الكفَّار لا هنَّ حل لهم ولا هم يحلُّون لهنَّ وآتوهم ما أنفقوا ولا جناح عليكم أن تنكحوهنَّ إذا آتيتموهنَّ أجورهنَّ ولا تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليُسألوا ما أنفقوا ذلكم حكم الله يحكم بينكم والله عليم حكيم ﴾ [الممتحنة: ١٠].

ولقوله – عزّ وجلّ – في سورة التوبة: ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنَّما المشركون نَجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا** ﴾ الآية [التوبة: ٢٨].

ولا يُلتفت إلى كونهم جهَّالاً بل يجب أن يُعاملوا معاملة الكفَّار حتى يتوبوا إلى الله من ذلك، لقول الله – سبحانه – في أمثالهم: ﴿ **وإذا فعلوا فاحشةً قالوا وجدنا عليها آباءنا والله أمرنا بها قل إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون . قل أمر ربي بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين كما بدأكم تعودون فريقًا هدى وفريقًا حق عليهم الضلالة إنهم اتَّخذوا الشياطين أولياء من دون الله ويحسبون أنهم مهتدون** ﴾ [الأعراف: ٢٨–٣٠].

ولقول الله – عزّ وجلّ – في النصارى وأمثالهم: ﴿ **قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالاً الذين ضلَّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يُحسنون صنعًا** ﴾ [الكهف: ١٠٣].

والآيات في هذا المعنى كثيرة.

● حكم الاستهزاء بشعائر الدين ●

[٧] ظهر في كثير من المجتمعات الإسلامية الاستهزاء بشعائر الدّين الظّاهرة: كإعفاء اللّحى، وتقصير الثياب، ونحوهما، فهل مثل هذا الاستهزاء بالدّين الذي يُخرج من الملّة؟ وبماذا تنصحون من وقع في مثل هذا الأمر؟ وفقكم الله.

الجواب: لا ريب أن الاستهزاء بالله ورسوله وبآياته وبشرعه وأحكامه من جملة أنواع الكفر لقول الله – عزّ وجلّ –: ﴿ **قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ الآية [سورة التوبة: ٦٥].

ويدخل في ذلك الاستهزاء بالتَّوحيد، أو بالصلاة، أو بالزَّكاة، أو الصيام، أو الحج، أو غير ذلك من أحكام الدين المتَّفق عليها.

أما الاستهزاء بمن يُعفي لحيته أو يُقصرٍّ ثيابه ويحذر الإسبال أو نحو ذلك من الأمور التي قد تختفي أحكامها، فهذا فيه تفصيل، والواجب الحذر من ذلك، ونصيحة من يعرف منه شيء من ذلك حتى يتوب إلى الله – سبحانه – ويلتزم بشرعه، ويحذر الاستهزاء بمن

تمسَّك بالشرع في ذلك، طاعة لله - عزّ وجلّ - ورسوله - صلى الله عليه وسلم -، وحذرًا من غضب الله وعقابه والردّة عن دينه وهو لا يشعر، نسأل الله لنا وللمسلمين جميعًا العافية من كل سوء إنه خير مسئول .

● كتب العقيدة ●

[٨] ما هي الكتب التي ينصح بها سماحتكم أن تُقرأ في مجال العقيدة [١].

الجواب: أحسنُ كتاب وأعظم كتاب وأصدق كتاب يجب أن يُقرأ في تعليم العقيدة والأحكام والأخلاق، هو كتاب الله - عزّ وجلّ - الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، تنزيلٌ من حكيم حميد. وقد قال الله - عزّ وجلّ - فيه: ﴿**إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويُبشر المؤمنين الذين يعملون الصَّالحات أن لهم أجرًا كبيرًا**﴾ [الإسراء: ٩] .

وقال أيضًا - عزّ وجلّ -: ﴿**قل هو للذين آمنوا هدًى وشفاء**﴾ [فصلت: ٤٤] .

وقال فيه - سبحانه -: ﴿**كتاب أنزلناه إليك مباركٌ ليدَّبَّروا آياته وليتذكَّر أولو الألباب**﴾ [سورة ص: ٢٩] .

وقال فيه - عزّ وجلّ -: ﴿**وهذا كتابٌ أنزلناه مباركٌ فاتَّبعوه واتَّقُوا لعلَّكم تُرحمون**﴾ [الأنعام: ١٥٥].

وقال فيه - عزّ وجلّ -: ﴿**ونزَّلنا عليك الكتاب تبيانًا لكل شيء وهدًى ورحمة وبُشرى للمسلمين**﴾ [النحل: ٨٩] .

والآيات في هذا المعنى كثيرة .

وقال فيه النبي - صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح في خطبته في حجَّة الوداع: «**إنِّي تارك فيكم ما لن تضلُّوا إن اعتصمتم به، كتاب الله**» .

وقال - صلى الله عليه وسلم - في خطبته يوم غدير خمّ حين رجع من حجَّة الوداع إلى المدينة: «**إنّي تارك فيكم ثقلين: أولهما كتاب الله فيه الهدى، والنور، فخذوا بكتاب الله وتمسَّكوا به**» .

فحثَّ على كتاب الله، ورغَّب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي، أذكركم الله في أهل بيتي**». أخرجهما مسلم في صحيحه، الأول من حديث جابر بن عبدالله - رضي الله عنهما - الثاني من حديث زيد بن أرقم - رضي الله عنه -. وقال -

---

(١) العلامة عبد العزيز بن عبد الله بن باز رحمه الله

ﷺ -: «خيركم من تعلَّم القرآن وعلَّمه» . خرَّجه البخاري في صحيحه .

وقال أيضًا - ﷺ -: «مَن سلك طريقًا يلتمس فيه علمًا سلك الله به طريقًا إلى الجنَّة، وما اجتمع قومٌ في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم إلاّ نزلت عليهم السَّكينة، وغشيتهم الرَّحمة، وحفَّتهم الملائكة، وذكرهم الله فيمن عنده، ومن بطَّأ به عمله لم يُسرع به نسبه» . خرَّجه مسلم في صحيحه من حديث أبي هريرة - رضي الله عنه - . والأحاديث في هذا المعنى كثيرة .

ثم إن أحسن الكتب بعد القرآن الكريم كتب الحديث النبويَّة، وهي كتب السنَّة كالصحيحين، والسُّنن الأربع وغيرها من كتب الحديث المعتمدة، فينبغي أن تُعمر المجالس والحلقات بتلاوة القرآن الكريم وتعليمه، وتفقيه الناس فيه، وبدراسة كتب الحديث الشريف، والعناية بها، وتفقيه الناس فيها، وأن يتولى ذلك أهل العلم والبصيرة، الموثوق بعلمهم ودرايتهم، ونصحهم واستقامتهم .

ومن الكتب المناسبة في ذلك، قراءة كتاب رياض الصالحين، والتَّرغيب والتَّرهيب، والوابل الصيِّب، وعمدة الحديث الشريف، وبلوغ المرام، ومنتقى الأخبار وغيرها من كتب الحديث المفيدة .

أما الكتب المؤلَّفة في العقيدة فمن أحسنها: كتاب التوحيد للشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وشرحه لحفيديه الشيخ سلمان بن عبد الله بن محمد، والشيخ عبد الرحمن بن حسن بن محمد، وهما تيسير العزيز الحميد، وفتح المجيد .

ومن ذلك: مجموعة التوحيد للشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله - وكتاب الإيمان، والقاعدة الجليلة في التوسّل والوسيلة، والعقيدة الواسطية، والتدمريَّة، والحمويَّة، وهذه الخمس لشيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - .

ومن ذلك: زاد المعاد في هدي خير العباد، والصواعق المرسلة على الجهميَّة والمُعطِّلة، واجتماع الجيوش الإسلامية، والقصيدة النّونيَّة، وإغاثة اللهفان من مكائد الشَّيطان، وكل هذه الكتب الخمسة للعلاَّمة ابن القيم - رحمه الله - .

ومن ذلك شرح الطَّحاوية لابن أبي العزّ، ومنهاج السنة لشيخ الإسلام ابن تيمية، واقتضاء الصراط المستقيم له أيضًا، وكتاب التَّوحيد لابن خزيمة، وكتاب السنة لعبد الله بن الإمام أحمد، والاعتصام للشاطبي، وغيرها من كتب أهل السنَّة المؤلَّفة في بيان عقيدة أهل السنه والجماعة . ومن أجمع ذلك فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية، والدّرر السنيَّة في الفتاوي النجديَّة، جمع العلاَّمة الشيخ عبد الرحمن بن قاسم - رحمه الله - .

● حكم المزاح بالكذب ●

[٩] المزاح بألفاظ فيها كفر أو فسق أمر موجود في بعض المجتمعات المسلمة، فحبذا لو ألقى سماحتكم الضّوء على هذا الأمر وموقف طلبة العلم والدّعاة منه؟

الجواب: لا شك أن المزاح بالكذب وأنواع الكفر من أعظم المنكرات ومن أخطرها ما يكون بين الناس في مجالسهم، فالواجب الحذر من ذلك، وقد حذّر الله من ذلك بقوله: ﴿ **ولئن سألتهم ليقولنّ إنّما كنّا نخوضُ ونلعب قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم** ﴾ [التوبة: ٦٥] .

وقد قال كثير من السلف - رحمهم الله - إنها نزلت في قوم قالوا فيما بينهم في بعض أسفارهم مع النبي - صلى الله عليه وسلم -: ما رأينا مثل قرّائنا هؤلاء أرغب بطونًا ولا أكذب ألسنًا ولا أجبن عند اللقاء، فأنزل الله فيهم هذه الآية . وصحَّ عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**ويلٌ للذي يحدّث فيكذب ليضحك به القوم، ويلٌ له ثم ويلٌ له**» . أخرجه أبو داود والترمذي والنسائي بإسناد صحيح .

فالواجب على أهل العلم وعلى جميع المؤمنين والمؤمنات الحذر من ذلك والتَّحذير منه لما في ذلك من الخطر العظيم والفساد الكبير والعواقب الوخيمة، عافانا الله والمسلمين من ذلك وسلك بنا وبهم صراطه المستقيم إنه سميع مجيب .

● حكم التحدث مع النفس ●

[١٠] يخطر ببال الإنسان وساوس وخواطر وخصوصًا في مجال التوحيد والإيمان، فهل المسلم يُؤاخذ بهذا الأمر؟

الجواب: قد ثبت عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في الصحيحين وغيرهما أنه قال: «**إنَّ الله تجاوز عن أُمَّتي ما حدَّثت به أنفسها ما لم تعمل أو تتكلَّم**» . وثبت أن الصحابة- رضي الله عنهم - سألوه - صلى الله عليه وسلم - عمَّا يخطر لهم من هذه الوساوس المشار إليها في السؤال، فأجابهم، - صلى الله عليه وسلم - بقوله: «**ذاك صريح الإيمان**» . وقال - صلى الله عليه وسلم -: «**لا يزال الناس يتساءلون حتى يُقال هذا خلق الله الخلق فمن خلق الله، فمن وجد من ذلك شيئًا فليقل: آمنت بالله ورسله**» . وفي رواية أخرى: «**فلْيستعذ بالله ولينتهي**» . رواه مسلم في صحيحه .

● متى الاجتهاد ●

[١١] بعض طلاب العلم يوصله اجتهاده إلى مخالفة أمر معلوم من الدين بالضرورة، فهل ما عُلِمَ في الدين بالضرورة محلّ اجتهاد؟ نريد توجيه سماحتكم والعناية بهذا الأمر؟ متى الاجتهاد؟

الجواب: كل ما عُلم من الدين بالأدلة الشرعيَّة الصريحة من الكتاب والسنة أو إجماع سلف الأمة فليس للاجتهاد فيه مجال ؛ بل الواجب الإيمان به والعمل به، ونبذ ما خالفه بإجماع المسلمين، ليس في هذا الأصل العظيم خلاف بين أهل العلم، وإنما الاجتهاد يكون في مسائل الخلاف التي لم تتَّضح أدلَّتها من الكتاب والسنة، فمن أصاب فله أجران، ومن أخطأ فله أجر واحد، إذا كان من أهل العلم المتأهلين للاجتهاد وبذل وسعه في طلب الحق عن صدق وإخلاص لله - سبحانه وتعالى - ففي الصحيحين عن عمرو بن العاص - رضي الله عنه - عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه قال: «**إذا حكم الحاكم فاجتهد فأصاب فله أجران، وإذا حكم فاجتهد فأخطأ فله أجر**» .

● حكم من سب الله تعالى ورسوله ﷺ ●

[١٢] ما حكم من سبَّ الله أو سبَّ رسوله أو انتقصهما؟ وما حكم من جحد شيئًا مما أوجب الله أو استحل شيئًا مَّما حرَّم الله؟ ابسطوا لنا الجواب في ذلك لكثرة وقوع هذه الشّرور من كثير من الناس؟

الجواب: كل من سبَّ الله - سبحانه - بأي نوع من أنواع السبّ أو سبَّ الرسول محمد - صلى الله عليه وسلم - أو غيره من الرسل بأي نوع من أنواع السبّ أو سبَّ الإسلام أو تنقَّص أو استهزأ بالله أو برسوله، - صلى الله عليه وسلم - فهو كافر مرتدٌّ عن الإسلام إن كان يدَّعي الإسلام بإجماع المسلمين لقول الله - عزّ وجلّ -: ﴿**قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزءون . لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم**﴾ [التوبة: ٦٥] .

وقد بسط العلاّمة الإمام أبو العباس ابن تيمية - رحمه الله - الأدلَّة في هذه المسألة في كتابه الصارم المسلول على شاتم الرسول فمن أراد الوقوف على الكثير من الأدلّة في ذلك فليراجع هذا الكتاب لعظم فائدته، ولجلالة مؤلّفه واتِّساع علمه بالأدلّة الشرعية - رحمه الله - .

وهكذا الحكم في حقِّ من جحد شيئًا مَّما أوجبه الله أو استحلّ شيئًا مَّما حرَّمه الله

من الأمور المعلومة من الدين بالضرورة، كمن جحد وجوب الصلاة أو وجوب الزكاة، أو وجوب صوم رمضان، أو وجوب الحج في حق من استطاع السبيل إليه . أو جحد وجوب برِّ الوالدين أو نحو ذلك، ومثل ذلك من استحلّ شرب الخمر أو عقوق الوالدين، أو استحلّ أموال الناس ودماءهم بغير حق، أو استحلّ الرّبا أو نحو ذلك من المحرَّمات المعلومة من الدين بالضرورة وبإجماع سلف الأمة، فإنه كافر مرتدٌّ عن الإسلام إن كان يدَّعي الإسلام بإجماع أهل العلم . وقد بسط العلماء - رحمهم الله - في هذه المسائل وغيرها من نواقض الإسلام في باب حكم المرتد ووضحوا أدلّتها، فمن أراد الوقوف على ذلك فليراجع هذا الباب في كتب أهل العلم من الحنابلة، والشافعية، والمالكية، والحنفية وغيرهم، ليجد ما يشفيه ويكفيه إن شاء الله . ولا يجوز أن يُعذر أحد بدعوى الجهل في ذلك ؛ لأن هذه الأمور من المسائل المعلومة بين المسلمين وحكمها ظاهر في كتاب الله - عزّ وجلّ - وسنة رسوله - صلى الله عليه وسلم - والله ولي التوفيق .

• حكم علاج السحر •

[١٣] كثر في هذا العصر تعاطي السحر وإتيان السَّحرة، فما حكم ذلك؟ وما الطريقة المباحة لعلاج المسحور؟

الجواب : السحر من أعظم الكبائر الموبقات، بل هو من نواقض الإسلام، كما قال الله - عزّ وجلّ - في كتابه الكريم : ﴿ **واتبعوا ما تتلوا الشياطين على ملك سليمان وما كفر سليمان ولكن الشياطين كفروا يعلمون الناس السحر وما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر فيتعلمون منهم ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا لإذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم ولقد علموا لمن اشتراهم ما له في الآخرة من خلاق ولبؤس ما شروا به أنفسهم لو كانوا يعلمون* ولو أنهم آمنوا واتقوا لمثوبة من عند الله خير لو كانوا يعلمون** ﴾ [البقرة : ١٠٢، ١٠٣] . فأخبر - سبحانه - في هاتين الآيتين أن الشياطين يعلِّمون الناس السحر وأنهم كفروا بذلك، وأنَّ الملكين ما يعلّمان من أحد حتى يُخبراه أن ما يعلّمانه كفر وأنهما فتنة .

وأخبر - سبحانه - أن متعلمي السحر يتعلّمون ما يضرّهم ولا ينفعهم، وأنّهم ليس لهم عند الله من خَلاَق في الآخرة، والمعنى ليس لهم حظٌّ ولا نصيب من الخير في الآخرة .

وبيَّن - سبحانه - أن السحرة يفرِّقون بين المرء وزوجه بهذا السحر وأنهم لا يضرّون أحداً إلاّ بإذن الله، المراد بذلك إذنه الكونيّ القدريّ لا إذنه الشَّرعيّ ؛ لأنَّ جميع ما يقع في

الوجود يكون بإذنه القدريّ ولا يقع في ملكه ما لا يريده كونًا وقدراً . وبيّن – سبحانه – أن السحر ضد الإيمان والتّقوى .

وبهذا كلّه يُعلم أن السّحر كفر وضلال وردَّة عن الإسلام إذا كان من فعله يدَّعي الإسلام، وفي الصحيحين عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «**اجتنبوا السَّبع الموبقات . قلنا وما هُنْ يا رسول الله؟ قال: الشرك بالله، والسحر، وقتل النفس التي حرَّم الله إلاّ بالحق، وأكل الرِّبا، وأكل مال اليتيم، والتولّي يوم الزَّحف، وقذف المحصنات المؤمنات الغافلات**» .

فبيَّن النبي، – صلى الله عليه وسلم – في هذا الحديث الصحيح أن الشرك والسحر من السَّبع الموبقات أي: المهلكات والشرك أعظمهما ؛ لأنه أعظم الذنوب، والسحر من جملته ولهذا قَرَنَهُ الرسول – صلى الله عليه وسلم – به ؛ لأن السحرة لا يتوصَّلون إلى السحر إلا بعبادة الشياطين والتقرّب إليهم بما يحبون من الدعاء، والذبح، والنّذر، والاستعانة وغير ذلك . روى النسائي – رحمه الله – عن أبي هريرة – رضي الله عنه – عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «**من عقد عقدة ثم نفث فيها فقد سحر، ومن سحر فقد أشرك، ومن تعلَّق شيئًا وُكِلَ إليه**» . وهذا يفسّر قوله – تعالى – في سورة الفلق: ﴿**ومن شرِّ النَّفَّاثات في العُقد**﴾ [الفلق: ٤] . قال أهل التفسير: إنهن السَّاحرات اللاتي يعقدن العقد وينفثن فيها بكلمات شركيَّة يتقرَّبن بها إلى الشياطين لتنفيذ مرادهن في إيذاء الناس وظلمهم .

وقد اختلف العلماء في حكم السَّاحر، هل يُستتاب وتقبل توبته؟ أم يقتل بكل حال ولا يُستتاب إذا ثبت عليه السحر؟ والقول الثاني: هو الصواب ؛ لأن بقاءه مضرّ بالمجتمع الإسلامي والغالب عليه عدم الصدق في التوبة ؛ ولأن في بقائه خطراً كبيراً على المسلمين. واحتجّ أصحاب هذا القول على ما قالوه: بأن عمر – رضي الله عنه– أمر بقتل السحرة ولم يستتبهم وهو ثاني الخلفاء الراشدين الذين أمر الرسول – صلى الله عليه وسلم– باتباع سنَّتهم. واحتجوا أيضًا بما رواه الترمذي – رحمه الله – عن جندب بن عبد الله البجلي أو عن جندب الخير الأزدي مرفوعًا وموقوفًا: «**حدّ الساحر ضربه بالسيف**» . **وقد ضبطه بعض الرواة بالتاء فقال**: «**حدّ الساحر ضربة بالسيف**». والصحيح عند العلماء وقفه على جندب .

وصحَّ عن حفصة أم المؤمنين – رضي الله عنها – أنها أمرت بقتل جارية لها سحرتها فقتلت من غير استتابة . قال الإمام أحمد – رحمه الله – ثبت ذلك – يعني قتل الساحر – من غير استتابة عن ثلاثة من أصحاب النبي – صلى الله عليه وسلم – يعني بذلك: عمر،

وجندبًا، وحفصة . ومما ذكرنا يُعلم أنه لا يجوز إتيان السحرة وسؤالهم عن شيء ولا تصديقهم، كما لا يجوز إتيان العرَّافين والكهنة، وأن الواجب قتل الساحر متى ثبت تعاطيه السّحر بإقراره أو بالبيِّنة الشرعيَّة من غير أستتابة .

أمّا العلاج للسحر [1] فيعالج بالرّقى الشرعية والأدوية النافعة المباحة، ومن أنفع العلاج علاج المسحور بقراءة الفاتحة عليه مع النفث وآية الكرسي، وآيات السحر في الأعراف، ويونس، وطه، وبقراءة ﴿**قل يا أيها الكافرون**﴾ ، ﴿**قل هو الله أحد**﴾، ﴿**قل أعوذ برب الفلق**﴾، ﴿**قل أعوذ برب الناس**﴾ . ويستحبّ تكرار هذه السور الثلاث ثلاث مرات مع الدعاء الصحيح المشهور الذي كان يدعو به النبي - صلى الله عليه وسلم - لعلاج المرضى وهو: «**اللهم ربّ الناس اذهب البأس واشف أنت الشافي لا شفاء إلا شفاؤك، شفاء لا يغادر سقمًا**» . ويكرر ذلك ثلاثًا .

ويدعو أيضًا بالرّقية التي رقى بها جبرائيل النبي - صلى الله عليه وسلم - وهي: «**بسم الله أرقيك، من كلِّ شيء يؤذيك، ومن شرِّ كل نفس أو عين حاسد، الله يشفيك، بسم الله أرقيك**» . ويكررها ثلاثًا . وهذه الرقية من أنفع العلاج بإذن الله - سبحانه - .

ومن العلاج أيضًا إتلاف الشيء الذي يظنّ أنه عمل فيه السحر من صوف أو خيوط معقَّدة أو غير ذلك مّما يُظنّ أنه سبب السحر مع العناية من المسحور بالتعوّذات الشرعية، ومنها التعوّذ بكلمات الله التّامَّات من شرِّ ما خلق، ثلاث مرات صباحًا ومساءً، وقراءة السور الثلاث المتقدمة بعد الصبح والمغرب ثلاث مرَّات، وقراءة آية الكرسي بعد الصلاة وعند النوم.

ويستحبّ أن يقول صباحًا ومساءً: «**بسم الله الذي لا يضرّ مع اسمه شيء في الأرض ولا في السماء وهو السميع العليم**» ثلاث مرات، لصحة ذلك كلّه عن النبي - صلى الله عليه وسلم - مع حسن الظنّ بالله والإيمان بأنه سبب الأسباب، وأنه هو الذي يشفي المريض إذا شاء، وإنما التعوّذات والأدوية أسباب، والله - سبحانه - هو الشافي، فيعتمد على الله سبحانه وحده دون الأسباب، ولكن يعتقد أنها أسباب إن شاء الله نفع بها، وإن شاء سلبها المنفعة لما له - سبحانه - من الحكمة البالغة في كل شيء، وهو - سبحانه - على كلِّ شيءٍ قدير، وبكل شيء عليم، لا مانع لما أعطى، ولا مُعطي لما منع، ولا رادَّ لما قضى، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير، وهو سبحانه ولي التوفيق .

---

(١) لنا كتب كثيرة في مادة علاج السحر فارجع إليها .

• النفاق خطر عظيم •

[١٤] في هذا الزمان عَظُمَ النفاق وكثر أهله، وتعدَّدت وسائله في محاربة الإسلام والمسلمين، فحبذا لو ألقيتم الضّوء على خطر النفاق مع بيان أنواعه، وذكر صفة أهله وتحذير المسلمين منهم؟

الجواب: النفاق خطره عظيم، وشرور أهله كثيرة، وقد أوضح الله صفاتهم في كتابه الكريم في سورة البقرة وغيرها، كما أوضح صفاتهم أيضًا نبيه – صلى الله عليه وسلم – قال الله – سبحانه – في وصفهم في سورة البقرة: ﴿ **ومن النَّاس من يقول آمنَّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون. في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضًا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون** ﴾ [البقرة: ٨-١٠]، والآيات بعدها. وقال في سورة النساء: ﴿ **إنَّ المنافقين يخادعون الله وهو خادعهم وإذا قاموا إلى الصَّلاة قاموا كُسالى يُراؤن الناس ولا يذكرون الله إلا قليلاً مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ [النساء: ١٤٢، ١٤٣].

وذكر عنهم صفات أخرى في سورة التوبة وغيرها.

والخلاصة: أنهم يدَّعون الإسلام ويتخلَّقون بأخلاق تخالفه وتضرّ أهله كما بيّن – سبحانه – في هذه الآيات وغيرها.

• النفاق نوعان: اعتقادي وعملي.

وما ذكر الله عن المنافقين في سورة البقرة والنساء من صفات المنافقين النفاق الاعتقادي الأكبر، وهم بذلك أكفر من اليهود والنصارى وعبَّاد الأوثان لعظم خطرهم وخفاء أمرهم على كثير من الناس، وقد أخبر الله عنهم – سبحانه – أنهم يوم القيامة في الدَّرك الأسفل من النار.

أما النفاق العملي: فهو التخلّق ببعض أخلاقهم الظاهرة مع الإيمان بالله وبرسوله والإيمان باليوم الآخر كالكذب، والخيانة، والتكاسل عن الصلاة في الجماعة، ومن صفاتهم ما ثبت في الحديث الصحيح عن النبي – صلى الله عليه وسلم – أنه قال: «**آية المنافق ثلاث: إذا حدَّث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان**».

وقوله، – صلى الله عليه وسلم –: «**أثقل الصَّلاة على المنافقين صلاة العشاء وصلاة الفجر، ولو يعلمون ما فيهما لأتوهما ولو حبواً**».

والآيات والأحاديث في هذا المعنى كثيرة.

فالواجب على كل مـؤمن ومؤمنة أن يحذر صـفاتهم غاية الحذر، ومـّما يعين على ذلك تدبّر ما ذكره الله في كتابه من صفاتهم، وما صحَّت به السنة عن رسول الله - ﷺ - في ذلك .

والله المسئول أن يـوفّقنا وجميع المسلمين للفـقه في دينه، والثبات علـيه، والحذر من كل ما يخالف شرعه، ومن التشبّه بأعدائه في أخلاقهم وأعمالهم، إنه خير مسئول .

● ● ●

فتوى شيخ الإسلام (١)

سئل شيخ الإسلام تقى الدين أبي العباس أحمد بن تيمية - قدس الله روحه - عن رجلين تناظرا، فقال أحدهما: لا بد لنا من واسطة بيننا وبين الله، فإنا لا نقدر أن نصل إليه بغير ذلك.

فأجاب: الحمد لله رب العالمين . إن أراد بذلك أنه لا بد من واسطة تبلغنا أمر الله، فهذا حق فإن الخلق لا يعلمون ما يحبه الله ويرضاه، وما أمر به وما نهى عنه وما أعده لأوليائه من كرامته، وما وعد به أعداءه من عذابه، ولا يعرفون ما يستحقه الله تعالى من أسمائه الحسنى، وصفاته العليا، التى تعجز العقول عن معرفتها، وأمثال ذلك إلا بالرسل الذين أرسلهم الله إلى عباده .

فالمؤمنون بالرسل المتبعون لهم هم المهتدون الذين يقربهم لديه زلفى، ويرفع درجاتهم ويكرمهم في الدنيا والآخرة .

وأما المخالفون للرسل فانهم ملعونون وهم عن ربهم ضالون، محجوبون، قال تعالى: ﴿**يا بني آدم إما يأتينكم رسل منكم يقصون عليكم آياتي . فمن اتقى وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون**﴾ وقال تعالى: ﴿**فإما يأتينكم مني هدًى فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى . ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكًا ونحشره يوم القيامة أعمى . قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيراً . قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى**﴾ .

قال ابن عباس: تكفل الله لمن قرأ القرآن وعمل بما فيه أن لا يضل في الدنيا، ولا يشقى في الآخرة .

وقال تعالى عن أهل النار ﴿**كلما ألقي فيها فوج سألهم خزنتها ألم يأتكم نذير؟ قالوا بلى قد جاءنا نذير فكذبنا وقلنا ما نزل الله من شيء إن أنتم إلا في ضلال كبير**﴾ .

وقال تعالى: ﴿**وسيق الذين كفروا إلى جهنم زمراً حتى إذا جاءوها فتحت أبوابها وقال لهم خزنتها ألم يأتكم رسل منكم يتلون عليكم آيات ربكم وينذرونكم لقاء يومكم**

(١) الإمام ابن تيمية رحمه الله .

هذا؟ قالوا بلى ولكن حقت كلمة العذاب على الكافرين﴾ .

وقال تعالى: ﴿وما نرسل المرسلين إلا مبشرين ومنذرين . فمن آمن وأصلح فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون . والذين كذبوا بآياتنا يمسهم العذاب بما كانوا يفسقون﴾ .

وقال تعالى: ﴿إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحاق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وآتينا داود زبوراً . ورسلاً قصصناهم عليك من قبل ورسلاً لم نقصصهم عليك وكلم الله موسى تكليمًا . رسلاً مبشرين ومنذرين لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾ ومثل هذا في القرآن كثير .

وهذا مما أجمع عليه جميع أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، فإنهم يثبتون الوسائط بين الله وبين عباده وهم الرسل الذين بلغوا عن الله أمره وخبره .

قال تعالى: ﴿الله يصطفي من الملائكة رسلاً ومن الناس﴾ ومن أنكر هذه الوسائط فهو كافر بإجماع أهل الملل .

والسور التي أنزلها الله بمكة مثل الأنعام والأعراف وذوات «الر» و «حم» و «طس» ونحو ذلك هي متضمنة لأصول الدين كالإيمان بالله ورسله واليوم الآخر . وقد قص الله قصص الكفار الذين كذبوا الرسل وكيف أهلكهم، ونصر رسله والذين آمنوا .

قال تعالى: ﴿ولقد سبقت كلمتنا لعبادنا المرسلين إنهم لهمُ المنصورون وإن جندنا لهم الغالبون﴾ وقال: ﴿إنا لننصر رسلنا والذين آمنوا في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد﴾ .

فهذه الوسائط تطاع وتتبع ويقتدى بها كما قال تعالى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا ليطاع بإذن الله﴾ وقال تعالى: ﴿من يطع الرسول فقد أطاع الله﴾ وقال تعالى: ﴿قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله﴾ وقال: ﴿فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون﴾، وقال تعالى: ﴿لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر وذكر الله كثيرًا﴾ .

وإن أراد بالواسطة أنه لا بد من واسطة في جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يكون واسطة في رزق العباد ونصرهم وهداهم، يسألونه ذلك، ويرجون إليه فيه، فهذا من أعظم الشرك الذي كفر الله به المشركين حيث اتخذوا من دون الله أولياء وشفعاء يجتلبون بهم المنافع ويجتنبون المضار .

لكن الشفاعة لمن يأذن الله له فيها حتى قال: ﴿الله الذي خلق السموات والأرض وما بينهما في ستة أيام ثم استوى على العرش ما لكم من دونه من وليٍّ ولا شفيع أفلا

تتذكرون﴾ . وقال تعالى: ﴿وأنذر به الذين يخافون أن يحشروا إلى ربهم ليس لهم من دونه وليّ ولا شفيع﴾ وقال: ﴿وقل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك محذوراً﴾ وقال: ﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيها من شرك وما له منهم من ظهير ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾ .

وقالت طائفة من السلف: كان أقوام يدعون المسيح، العزيز، والملائكة، فبين الله لهم أن الملائكة والأنبياء لا يملكون كشف الضر عنهم ولا تحويلاً، وأنهم يتقربون إلى الله ويرجون رحمته ويخافون عذابه .

وقال تعالى: ﴿ما كان لبشر أن يؤتيه الله الكتاب والحكم والنبوة ثم يقول للناس كونوا عباداً لي من دون الله ولكن كونوا ربانيين بما كنتم تعلمون الكتاب وبما كنتم تدرسون. ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً . أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون﴾؟ .

فبين سبحانه أن اتخاذ الملائكة والنبيين أرباباً كفر، فمن جعل الملائكة والأنبياء وسائط يدعوهم ويتوكل عليهم ويسألهم جلب المنافع ودفع المضار، مثل أن يسألهم غفران الذنوب وهداية القلوب وتفريج الكروب وسد الفاقات، فهو كافر بإجماع المسلمين .

وقد قال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً سبحانه بل عباد مكرمون . لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون . يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون . ومن يقل منهم إني إله من دونه فذلك نجزيه جهنم . كذلك نجزي الظالمين﴾ وقال تعالى: ﴿لن يستنكف المسيح أن يكون عبداً لله ولا الملائكة المقربون . ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعاً﴾ وقال تعالى: ﴿وقالوا اتخذ الرحمن ولداً لقد جئتم شيئاً إداً . تكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً. أن دعوا للرحمن ولداً وما ينبغي للرحمن أن يتخذ ولداً . إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً . لقد أحصاهم وعدهم عداً . وكلهم آتيه يوم القيامة فرداً﴾ .

وقال تعالى: ﴿ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله . قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون﴾ .

وقال تعالى: ﴿وكم من ملك في السموات لا تغني شفاعتهم شيئًا إلا من بعد أن يأذن الله لمن يشاء ويرضى﴾ .

وقال تعالى: ﴿ **من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه** ﴾ . وقال: ﴿ **وإن يمسسك الله بضر فلا كاشف له إلا هو وإن يردك بخير فلا راد لفضله** ﴾ ، وقال تعالى: ﴿ **ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها وما يمسك فلا مرسل له من بعده** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **قل أفرأيتم ما تدعون من دون الله إن أرادني الله بضر هل هن كاشفات ضره أو أرادني برحمة هل هن ممسكات رحمته قل حسبي الله عليه يتوكل المتوكلون** ﴾ ومثل هذا كثير في القرآن .

ومن سِوَى الأنبياء - من مشايخ العلم والدين - فمن أثبتهم وسائط بين الرسول وأمته يبلغونهم ويعلمونهم ويؤدبونهم ويقتدون بهم، فقد أصاب في ذلك .

وهؤلاء إذا أجمعوا فإجماعهم حجة قاطعة، لا يجتمعون على ضلالة، وإن تنازعوا في شيء ردوه إلى الله والرسول، إذ الواحد منهم ليس بمعصوم على الإطلاق . بل كل أحد من الناس يؤخذ من كلامه ويترك إلا رسول الله - صلى الله عليه وسلم -، وقد قال النبي - صلى الله عليه وسلم - «**العلماء ورثة الأنبياء فان الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهماً وإنما ورثوا العلم، فمن أخذه فقد أخذ بحظ وافر**» .

وإن أثبتم وسائط بين الله وبين خلقه - كالحجاب الذي بين الملك ورعيته - بحيث يكونون هم يرفعون إلى الله حوائج خلقه، فالله إنما يهدى عباده ويرزقهم بتوسطهم فالخلق يسألونهم وهم يسألون الله كما أن الوسائط عند الملوك: يسألون الملوك الحوائج للناس لقربهم منهم، والناس يسألونهم أدباً منهم أن يباشروا سؤال الملك أو لأن طلبهم من الوسائط أنفع لهم من طلبهم من الملك لكونهم أقرب إلى الملك من الطالب للحوائج، فمن أثبتهم وسائط على هذا الوجه فهو كافر مشرك يجب أن يستتاب فإن تاب وإلا قتل .

وهؤلاء مشبِّهون لله شبهوا المخلوق بالخالق وجعلوا لله أنداداً وفي القرآن من الرد على هؤلاء ما لم تتسع له هذه الفتوى .

فان الوسائط التي بين الملوك وبين الناس يكونون على أحد وجوه ثلاثة:

الوجه الأول: إما لإخبارهم من أحوال الناس بما لا يعرفونه .

ومن قال: إن الله لا يعلم أحوال عباده حتى يخبره بذلك بعض الملائكة أو الأنبياء أو غيرهم فهو كافر، بل هو سبحانه يعلم السر وأخفى، لا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السماء ﴿ **وهو السميع البصير** ﴾ يسمع ضجيج الأصوات باختلاف اللغات على تفنن الحاجات، لا يشغله سمع عن سمع، ولا تغلطه المسائل، ولا يتبرم بإلحاح الملحين .

الوجه الثاني: أن يكون الملك عاجزاً عن تدبير رعيته ودفع أعدائه - إلا بأعوان يعينونه - فلا بد له من أنصار وأعوان لذله وعجزه .

والله سبحانه ليس له ظهير ولا ولي من الذل . قال تعالى: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير﴾** وقال تعالى: **﴿وقل الحمد لله الذي لم يتخذ ولدًا ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له ولي من الذل وكبره تكبيرًا﴾** .

وكل ما في الوجود من الأسباب فهو خالقه وربه ومليكه، فهو الغني عن كل ما سواه، وكل ما سواه فقير إليه، بخلاف الملوك المحتاجين إلى ظهرائهم وهم في الحقيقة شركاؤهم في الملك .

والله تعالى ليس له شريك في الملك، بل لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير .

والوجه الثالث: أن يكون الملك ليس مريدًا لنفع رعيته والإحسان اليهم ورحمتهم إلا بمحرك يحركه من خارج، فإذا خاطب الملك من ينصحه ويعظمه، أو من يدل عليه بحيث يكون يرجوه ويخافه: تحركت إرادة الملك وهمته في قضاء حوائج رعيته، إما لما حصل في قلبه من كلام الناصح الواعظ المشير، وإما لما يحصل من الرغبة أو الرهبة من كلام المدل عليه .

والله تعالى هو رب كل شيء ومليكه وهو أرحم بعباده من الوالدة بولدها . وكل الأشياء إنما تكون بمشيئته، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن، وهو إذا أجرى نفع العباد بعضهم على بعض، فجعل هذا يحسن إلى هذا ويدعو له ويشفع فيه، ونحو ذلك فهو الذي خلق ذلك كله . وهو الذي خلق في قلب هذا المحسن الداعي الشافع إرادة الإحسان والدعاء والشفاعة، ولا يجوز أن يكون في الوجود من يكرهه على خلاف مراده، أو يعلمه ما لم يكن يعلم، أو من يرجوه الرب ويخافه .

ولهذا قال النبي - صلى الله عليه وسلم -: «**لا يقولن أحدكم: اللهم اغفر لي إن شئت، اللهم ارحمني إن شئت، ولكن ليعزم المسألة، فإنه لا مكره له**» .

والشفعاء الذين يشفعون عنده لا يشفعون إلا بإذنه كما قال: **﴿من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه﴾**، وقال تعالى: **﴿ولا يشفعون إلا لمن ارتضى﴾** وقال تعالى: **﴿قل ادعوا الذين زعمتم من دون الله لا يملكون مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وما لهم فيهما من شرك وما له منهم من ظهير . ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾** .

فبين أن كل من دعى من دونه ليس له ملك ولا شرك في الملك ولا هو ظهير، وأن شفاعتهم لا تنفع إلا لمن أذن له .

وهذا بخلاف الملوك فإن الشافع عندهم قد يكون له ملك، وقد يكون شريكًا لهم في الملك، وقد يكون مظاهرًا لهم معاونًا لهم على ملكهم، وهؤلاء يشفعون عند الملوك بغير إذن الملوك هم وغيرهم والملك يقبل شفاعتهم تارة لحاجته إليهم، وتارة لخوفه منهم، وتارة لجزاء إحسانهم إليه ومكافأتهم ولإنعامهم عليه، حتى أنه يقبل شفاعة ولده وزوجته لذلك فإنه يحتاج إلى الزوجة وإلى الولد حتى لو أعرض عنه ولده وزوجته لتضرر بذلك، ويقبل شفاعة مملوكه، فإذا لم يقبل شفاعته يخاف أن لا يطيعه أو أن يسعى في ضرره .

وشفاعة العباد بعضهم عند بعض كلها من هذا الجنس، فلا يقبل أحد شفاعة أحد إلا لرغبة أو رهبة، والله تعالى لايرجو أحداً ولا يخافه ولا يحتاج إلى أحد بل هو الغنى، قال تعالى : ﴿ **ألا إن لله من في السموات ومن في الأرض وما يتبع الذين يدعون من دون الله شركاء إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يخرصون** ﴾ - إلى قوله - ﴿ **قالوا اتخذ الله ولداً سبحانه هو الغني له ما في السموات وما في الأرض** ﴾ .

والمشركون يتخذون شفعاء من جنس ما يعهدونه من الشفاعة، قال تعالى : ﴿ **ويعبدون من دون الله ما لا يضرهم ولا ينفعهم ويقولون هؤلاء شفعاؤنا عند الله قل أتنبئون الله بما لا يعلم في السموات ولا في الأرض سبحانه وتعالى عما يشركون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **فلولا نصرهم الذين اتخذوا من دون الله قرباناً آلهة بل ضلوا عنهم وذلك إفكهم وما كانوا يفترون** ﴾ .

وأخبر عن المشركين أنهم قالوا ﴿ **ما نعبدهم إلا ليقربونا إلى الله زلفى** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **ولا يأمركم أن تتخذوا الملائكة والنبيين أرباباً أيأمركم بالكفر بعد إذ أنتم مسلمون** ﴾ وقال تعالى : ﴿ **قل ادعوا الذين زعمتم من دونه فلا يملكون كشف الضر عنكم ولا تحويلاً . أولئك الذين يدعون يبتغون إلى ربهم الوسيلة أيهم أقرب ويرجون رحمته ويخافون عذابه إن عذاب ربك كان محذوراً** ﴾ .

فأخبر أن ما يدعى من دونه لا يملك كشف ضر ولا تحويله وأنهم يرجون رحمته ويخافون عذابه ويتقربون إليه، فهو سبحانه قد نفى ما بين الملائكة والأنبياء إلا من الشفاعة بإذنه، والشفاعة هي الدعاء . ولا ريب أن دعاء الخلق بعضهم لبعض نافع، والله قد أمر بذلك لكن الداعي الشافع ليس له أن يدعو ويشفع إلا بإذن الله له في ذلك، فلا يشفع شفاعة نهى عنها كالشفاعة للمشركين والدعاء لهم بالمغفرة .

قال تعالى : ﴿ **ما كان للنبي والذين آمنوا أن يستغفروا للمشركين ولو كانوا أولي قربى من بعد ما تبين لهم أنهم أصحاب الجحيم . وما كان استغفار إبراهيم لأبيه إلا عن موعدة**

وعدها إياه فلما تبين له أنه عدو لله تبرأ منه﴾ وقال تعالى في حق المنافقين ﴿سواء عليهم أستغفرت لهم أم لم تستغفر لهم لن يغفر الله لهم﴾ .

وقد ثبت في الصحيح: أن الله نهى نبيه عن الاستغفار للمشركين والمنافقين، وأخبر أنه لا يغفر لهم كما في قوله ﴿إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء﴾ وقوله: ﴿ولا تصلِّ على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾ .

وقد قال تعالى: ﴿ادعوا ربكم تضرعًا وخفية إنه لا يحب المعتدين﴾ في الدعاء . ومن الاعتداء في الدعاء أن يسأل العبد ما لم يكن الرب ليفعله مثل أن يسأله منازل الأنبياء وليس منهم، أو المغفرة للمشركين ونحو ذلك أو يسأله ما فيه معصية لله كإعانته على الكفر والفسوق والعصيان .

فالشفيع الذي أذن الله له في الشفاعة، شفاعته في الدعاء الذي ليس فيه عدوان ؛ ولو سأل أحدهم دعاء لا يصلح له لا يقر عليه فانهم معصومون أن يقروا على ذلك كما قال نوح ﴿إن ابني من أهلي وإن وعدك الحق وأنت أحكم الحاكمين﴾ وقال تعالى: ﴿يا نوح إنه ليس من أهلك . إنه عمل غير صالح فلا تسألن ما ليس لك به علم إني أعظك أن تكون من الجاهلين . قال رب إني أعوذ بك أن أسألك ما ليس لي به علم وإلا تغفر لي وترحمني أكن من الخاسرين﴾ .

وكل داع شافع دعا الله سبحانه وتعالى وشفع فلا يكون دعاؤه وشفاعته إلا بقضاء الله وقدره ومشيئته، وهو الذي يجيب الدعاء ويقبل الشفاعة، فهو الذي خلق السبب والمسبب، والدعاء من جملة الأسباب التي قدرها الله سبحانه وتعالى .

وإذا كان كذلك فالالتفات إلى الأسباب شرك في التوحيد . ومحو الأسباب أن تكون أسبابًا نقص في العقل، والإعراض عن الأسباب بالكلية قدح في الشرع، بل العبد يجب أن يكون توكله ودعاؤه وسؤاله ورغبته إلى الله سبحانه وتعالى، والله يقدر له من الأسباب من دعاء الخلق وغيرهم ما يشاء .

والدعاء مشروع أن يدعو الأعلى للأدنى والأدنى للأعلى فطلب الشفاعة والدعاء من الأنبياء كما كان المسلمون يستشفعون بالنبي - صلى الله عليه وسلم - في الاستسقاء ويطلبون منه الدعاء، بل وكذلك بعده استسقى عمر والمسلمون بالعباس عمه، والناس يطلبون الشفاعة يوم القيامة من الأنبياء ومحمد - صلى الله عليه وسلم - وهو سيد الشفعاء، وله شفاعات يختص بها، ومع هذا فقد ثبت في الصحيحين عن النبي - ﷺ -

أنه قال: «إذا سمعتم المؤذن فقولوا مثل ما يقول ثم صلوا عليَّ، فإنه من صلى عليَّ مرة صلى الله عليه عشرًا، ثم سلوا الله لى الوسيلة فإنها درجة في الجنة لا تنبغى إلا لعبد من عباد الله وأرجو أن أكون ذلك العبد، فمن سأل الله لى الوسيلة حلت عليه شفاعتى يوم القيامة» . . وقد قال لعمر لما أراد أن يعتمر وودعه: «يا أخى لا تنسنى من دعائك» .

فالنبي - ﷺ - قد طلب من أمته أن يدعو له، ولكن ليس ذلك من باب سؤالهم، بل أمره بذلك لهم كأمره لهم بسائر الطاعات التى يثابون عليها مع أنه - ﷺ - له مثل أجورهم في كل ما يعملونه، فإنه قد صح عنه أنه قال: «من دعا إلى هدى كان له من الأجر مثل أجور من اتبعه من غير أن ينقص من أجورهم شيئا . ومن دعا إلى ضلالة كان عليه من الوزر مثل أوزار من اتبعه من غير أن ينقص من أوزارهم شيئًا» .

وهو داعى الأمة إلى كل هدى فله مثل أجورهم في كل ما اتبعوه فيه .

وكذلك إذا صلوا عليه فإن الله يصلى على أحدهم عشرًا وله مثل أجورهم مع ما يستجيبه من دعائهم له، فذلك الدعاء قد أعطاهم الله أجرهم عليه وصار ما حصل له به من النفع نعمة من الله عليه .

وقد ثبت عنه في الصحيح أنه قال: «ما من رجل يدعو لأخيه بظهر الغيب بدعوة إلا وكل الله به ملكًا كلما دعا لأخيه بدعوة قال الملك الموكل به: آمين ولك مثل ذلك» ، وفي حديث آخر: «أسرع الدعاء دعوة غائب لغائب» .

فالدعاء للغير ينتفع به الداعي والمدعو له، وإن كان الداعي دون المدعو له . فدعاء المؤمن لأخيه ينتفع به الداعي والمدعو له فمن قال لغيره: ادع لى وقصد انتفاعهما جميعًا بذلك، كان هو وأخوه متعاونين على البر والتقوى، فهو نبه المسئول وأشار عليه بما ينفعهما . والمسئول فعل ما ينفعهما بمنزلة من يأمر غيره ببر وتقوى فيثاب المأمور على فعله، والآمر أيضًا يثاب مثل ثوابه لكونه دعا إليه لا سيما ومن الأدعية ما يؤمر بها العبد كما قال تعالى: ﴿واستغفر لذنبك وللمؤمنين والمؤمنات﴾ فأمره بالاستغفار ثم قال: ﴿ولو أنهم إذ ظلموا أنفسهم جاءوك فاستغفروا الله واستغفر لهم الرسول لوجدوا الله توابًا رحيمًا﴾ .

فذكر سبحانه استغفارهم، واستغفار الرسول لهم إذ ذاك مما أمر الله به الرسول، حيث أمره أن يستغفر للمؤمنين والمؤمنات، ولم يأمر الله مخلوقًا أن يسأل مخلوقًا شيئًا لم يأمر الله المخلوق به بل ما أمر الله العبد أمر إيجاب أو استحباب ففعله هو عبادة لله وطاعة وقربة إلى الله وصلاح لفاعله وحسنة فيه، وإذا فعل ذلك كان أعظم لإحسان الله اليه وإنعامه عليه، بل أجل نعمة أنعم الله بها على عباده أن هداهم للإيمان .

والإيمان: قول وعمل يزيد بالطاعة والحسنات، وكلما ازداد العبد عملاً للخير ازداد إيمانه، هذا هو الإنعام الحقيقي المذكور في قوله: ﴿ **صراط الذين أنعمت عليهم** ﴾ . وفي قوله: ﴿ **ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم** ﴾ . بل نعم الدنيا بدون الدين هل هي من نعمه أم لا؟ فيه قولان مشهوران للعلماء من أصحابنا وغيرهم .

والتحقيق أنها نعمة من وجه، وإن لم تكن نعمة تامة من وجه . أما الإنعام بالدين الذي ينبغي طلبه فهو ما أمر الله به من واجب ومستحب، فهو الخير الذي ينبغي طلبه باتفاق المسلمين، وهو النعمة الحقيقية عند أهل السنة، إذ عندهم أن الله هو الذي أنعم بفعل الخير .

والقدرية عندهم إنما أنعم بالقدرة عليه الصالحة للضدين فقط والمقصود هنا أن الله لم يأمر مخلوقًا أن يسأل مخلوقًا إلا ما كان مصلحة لذلك المخلوق، إما واجب أو مستحب، فإنه سبحانه لا يطلب من العبد إلا ذلك فكيف يأمر غيره أن يطلب منه غير ذلك، بل قد حرم على العبد أن يسأل العبد ما له إلا عند الضرورة .

وإن كان قصده مصلحة المأمور أو مصلحته ومصلحة المأمور . فهذا يثاب على ذلك، وإن كان قصده حصول مطلوبه من غير قصد منه لانتفاع المأمور، فهذا من نفسه أتى .

ومثل هذا السؤال لا يأمر الله به فقط، بل قد نهى عنه إذ هذا سؤال محض للمخلوق من غير قصده لنفعه ولا لمصلحته، والله يأمرنا أن نعبده ونرغب اليه، ويأمرنا أن نحسن إلى عباده، وهذا لم يقصد لا هذا ولا هذا، فلم يقصد الرغبة إلى الله ودعائه وهو الصلاة ولا قصد الإحسان إلى المخلوق الذي هو الزكاة، وإن كان العبد قد لا يأثم بمثل هذا السؤال، لكن فرق ما بين ما يؤمر به العبد وما يؤذن له فيه .

ألا ترى أنه قال في حديث السبعين ألفًا الذين يدخلون الجنة بغير حساب «أنهم لا يسترقون» وإن كان الاسترقاء جائزًا؟ وهذا قد بسطناه في غير هذا الموضع .

والمقصود هنا أن من أثبت وسائط بين الله وبين خلقه كالوسائط التي تكون بين الملوك والرعية فهو مشرك، بل هذا دين المشركين عباد الأوثان، كانوا يقولون إنها تماثيل الأنبياء والصالحين، وإنها وسائل يتقربون بها إلى الله، وهو من الشرك الذي أنكره الله على النصارى حيث قال: ﴿ **اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله والمسيح ابن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهًا واحدًا لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون** ﴾ أي فليستجيبوا لى إذا دعوتهم بالأمر والنهى، وليؤمنوا بى أن أجيب دعاءهم لي

بالمسألة والتضرع . وقال تعالى: ﴿ **فإذا فرغت فانصب وإلى ربك فارغب** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **وإذا مسكم الضر في البحر ضل من تدعون إلا إياه** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **أمَّن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء ويجعلكم خلفاء الأرض** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن** ﴾ . وقد بين الله هذا التوحيد في كتابه وحسم مواد الإشراك به حتى لا يخاف أحد غير الله، ولا يرجو سواه، ولا يتوكل إلا عليه، وقال تعالى: ﴿ **فلا تخشوا الناس واخشون ولا تشتروا بآياتي ثمناً قليلاً . إنما ذلكم الشيطان يخوف أولياءه** ﴾ أي: يخوفكم أولياءه ﴿ **فلا تخافوهم وخافون إن كنتم مؤمنين** ﴾، وقال تعالى: ﴿ **ألم تر إلى الذين قيل لهم كفوا أيديكم وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة فلما كتب عليهم القتال إذا فريق منهم يخشون الناس كخشية الله أو أشد خشية** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش إلا الله** ﴾ وقال تعالى: ﴿ **ومن يطع الله ورسوله ويخش الله ويتقه فأولئك هم الفائزون** ﴾ .

فبين أن الطاعة لله ورسوله، وأما الخشية فلله وحده .

وقال تعالى: ﴿ **ولو أنهم رضوا ما آتاهم الله ورسوله وقالوا حسبنا الله سيؤتينا الله من فضله ورسوله** ﴾، ونظيره قوله تعالى: ﴿ **الذين قال لهم الناس إن الناس قد جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل** ﴾ .

وقد كان النبي - ﷺ - يحقق هذا التوحيد لأمته ويحسم عنهم مواد الشرك، إذ هذا تحقيق قولنا لا إله إلا الله، فإن الإله هو الذي تألهه القلوب لكمال المحبة والتعظيم والإجلال والإكرام، والرجاء والخوف حتى قال لهم: «**لا تقولوا ما شاء الله وشاء محمد، ولكن قولوا ما شاء الله ثم شاء محمد**» . وقال له رجل: ما شاء الله وشئت فقال: «**أجعلتني لله نداً؟! قل ما شاء الله وحده**» . وقال: «**من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت**» . وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» . وقال لابن عباس «**إذا سألت فاسأل الله وإذا استعنت فاستعن بالله، جف القلم بما أنت لاق، فلو جهدت الخليقة على أن تنفعك لم تنفعك إلا بشيء كتبه الله لك، ولو جهدت أن تضرك لم تضرك إلا بشيء كتبه الله عليك**»، وقال أيضاً: «**لا تطرونى كما أطرت النصارى عيسى ابن مريم، وإنما أنا عبد، فقولوا: عبد الله ورسوله**» .. وقال: «**اللهم لا تجعل قبرى وثناً يُعبد**»، وقال: «**لا تتخذوا قبرى عيداً، وصلوا عليَّ فإن صلاتكم تبلغني حيثما كنتم**»، وقال في مرضه: «**لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد**» . يحذر ما صنعوا . قالت عائشة: ولولا ذلك لأبرز قبره، ولكن كره أن يتخذ مسجداً . وهذا باب واسع .

ومع علم المؤمن أن الله رب كل شيء ومليكه فانه لا ينكر ما خلقه الله من الأسباب، كما جعل المطر سببًا لإنبات النبات . قال الله تعالى: ﴿**وما أنزل من السماء من ماء فأحيى به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة**﴾ .

وكما جعل الشمس والقمر سببًا لما يخلقه بهما وكما جعل الشفاعة والدعاء سببًا لما يقضيه بذلك مثل صلاة المسلمين على جنازة الميت، فأن ذلك من الأسباب التي يرحمه الله بها ويثيب عليها المصلين عليه .

لكن ينبغي أن يعرف في الأسباب ثلاثة أمور:

أحدها : أن السبب المعين لا يستقل بالمطلوب بل لا بد معه من أسباب أخرى، ومع هذا فلها موانع، فإن لم يكمل الله الأسباب ويدفع الموانع لم تحصل المقصود، وهو سبحانه ما شاء كان وإن لم يشأ الناس، وما شاء الناس لا يكون إلا أن يشاء الله .

الثاني: أن لا يجوز أن يعتقد أن الشيء سبب إلا بعلم، فمن أثبت شيئًا سببًا بلا علم أو يخالف الشرع كا مبطلاً مثل من يظن أن النذر سبب في دفع البلاء وحصول النعماء .

وقد ثبت في الصحيحين عن النبي - صلى الله عليه وسلم - أنه نهى عن النذر وقال: «**إنه لا يأتي بخير وإنما يستخرج به من البخيل**» .

الثالث: أن الأعمال الدينية لا يجوز أن يتخذ منها شيء سببًا إلا أن تكون مشروعة، فان العبادات مبناها على التوقيف، فلا يجوز للإنسان أن يشرك بالله فيدعو غيره وإن ظن ذلك سببًا في حصول بعض أغراضه، ولذلك لا يعبد الله بالبدع المخالفة للشريعة وإن ظن ذلك . فإن الشياطين قد تعين الإنسان على بعض مقاصده إذا أشرك وقد يحصل بالكفر والفسوق والعصيان بعض أغراض الإنسان . فلا يحل له ذلك، إذ المفسدة الحاصلة بذلك أعظم من المصلحة الحاصلة به، إذ الرسول - صلى الله عليه وسلم - بُعث بتحصيل المصالح وتكميلها، وتعطيل المفاسد وتقليلها . فما أمر الله به فمصلحته راجحة، وما نهى عنه فمفسدته راجحة .

وسئل رحمه الله: قال السائل: إن الله يسمع الدعاء بواسطة محمد - صلى الله عليه وسلم - فإنه الوسيلة والواسطة .

فأجاب: الحمد لله، إن أراد بذلك أن الإيمان بمحمد وطاعته والصلاة والسلام عليه وسيلة للعبد في قبول دعائه وثواب دعائه فهو صادق وإن أراد أن الله لا يجيب دعاء أحد حتى يرفعه إلى مخلوق، أو يقسم عليه به، أو أن نفس الأنبياء بدون الإيمان بهم وطاعتهم وبدون شفاعتهم وسيلة في إجابة الدعاء، فقد كذب في ذلك والله أعلم .

وسئل شيخ الإسلام (رحمه الله تعالى):

هل يجوز التوسل بالنبي – صلى الله عليه وسلم – أم لا؟

فأجاب: الحمد لله، أما التوسل بالإيمان به، ومحبته وطاعته والصلاة والسلام عليه، وبدعائه وشفاعته ونحو ذلك مما هو من أفعاله وأفعال العباد المأمور بها في حقه، فهو مشروع باتفاق المسلمين.

وكان الصحابة – رضي الله عنهم – يتوسلون به في حياته، وتوسلوا بعد موته بالعباس عمه. كما كانوا يتوسلون به.

وأما قول القائل: اللهم إني أتوسل إليك به، فللعلماء فيه قولان. كما لهم في الحلف به قولان:

وجمهور الأئمة كمالك والشافعي وأبي حنيفة: على أنه لا يسوغ الحلف بغيره من الأنبياء والملائكة ولا تنعقد اليمين بذلك باتفاق العلماء، وهذه إحدى الروايتين عن أحمد. والرواية الأخرى تنعقد اليمين به خاصة دون غيره. ولذلك قال أحمد في منسكه الذي كتبه للمروذي صاحبه: إنه يتوسل بالنبي – صلى الله عليه وسلم – في دعائه، ولكن غير أحمد قال: إن هذا إقسام على الله به، ولا يقسم على الله بمخلوق، وأحمد في إحدى الروايتين قد جوز القسم به، فلذلك جوز التوسل به.

ولكن الرواية الأخرى عنه: هي قول جمهور العلماء: إنه لا يقسم به، فلا يقسم على الله به كسائر الملائكة والأنبياء، فإنا لا نعلم أحداً من السلف والأئمة قال: إنه يقسم به على الله، كما لم يقولوا إنه يقسم به مطلقاً، ولهذا أفتى أبو محمد بن عبد السلام أنه لا يقسم على الله بأحد من الملائكة والأنبياء وغيرهم، لكن ذكر له أنه روى عن النبي – صلى الله عليه وسلم – حديث في الإقسام به فقال إن صح الحديث كان خاصاً به، والحديث المذكور لا يدل على الإقسام به. وقد قال النبي – صلى الله عليه وسلم –: «**من كان حالفاً فليحلف بالله وإلا فليصمت**». وقال: «**من حلف بغير الله فقد أشرك**» والدعاء عبادة، والعبادة مبناها على التوقيف والاتباع، لا على الهوى والابتداع والله أعلم.

والحمد لله وحده، وصلى الله على سيدنا محمد وآله وسلم تسليماً.

●●●

قصيدة عن عُبَّاد القبور[1]

يا من مـلأتم أرض مصـر مسـاجداً ... وعـبـدتم الأشـيـاخ والكهـانا
هل مـبـدأ الـتـوحـيـد أن القبـاب ... تقـدمـوا لضـريحـهـا القـربان؟
أم تجـعلوا مـيـتـًا طوته يد الردى ... يـغـيـث ويـرحم الإنـسـانا
وهو الـذي لو داهمـتـه بـعـوضـة ... عـجـزت قـواه فـأعلن الإذعـانا
يـا من بـنـيـتـم ذا الـضـريـح ... بـعـد الـفـناء فـولـدت ديدانا
أقـسـمت بالله الـذي يخلق الورى ... لـو أنـكـم شـاهـدتمـو الأبـدانا
لوضـعـتـموها تحت أنقاض الثـرى ... كـيـمـا تعـود لأصلها فـتـصـانا
أصـحـاب أضـرحـة المساجد زمـرة ... باعـوا الخلود لـيشـتـروا البـهـتـانا
قـد شـيـدوهـا كي تدر عليـهـمـو ... مـالاً بـه يتـمـلكوا الأطيـانا
والجـاهلـون بالـغـون بجـهـلهم ... عـبـدوا القبـور فـأصـبحت أوثانا
ومـشـايخ الـطرق الذيـن تربعـوا ... فـوق الـولاية هدمـوا الأديانا
أوحت شـيـاطين الغـرور إليـهـمـوا ... أن خـدروا بالـفـتـنة الأذهانا
يا أيـهـا الناس الـذين تزاحـمـوا ... نحـو الضـريح جنيـتـمـوه الكفـرانا
شـتـان بين الخـاشـعين لربهم ... والخـاشـعين لميت شـتـانا
هل أنـزل الرحـمن «جـبـريلاً» لـكم ... بالوحي .. نرجـو منكمـو التـبـيـانا
عـودوا إلى الله ارجـعـوا من غـيكم ... توبـوا إليـه واطلبـوا الغـفـرانا
الله أكـبـر فـوق كل مـكابـر ... والله أكـبـر يمحق الـبطلانا

● ● ●

---

(١) الدكتور/ حسن أحمد عمر نقلاً من كتاب الوثنية في ثوبها الجديد، وكتابنا بدع المقابر والجنائز .

ختامه مسك

١- المؤلف من مواليد قرية نجع حمد - طهطا - سوهاج - جمهورية مصر العربية.

٢- ولا يفوتني إلا أن أشكر وأبالغ في الثناء على الله - تعالى - صاحب الفضل والمنة، ثم لكل من قدم لي العون والمساعدة في إخراج هذا السفر النافع .

٣- كما أسأل الله - تعالى - أن يجعلنا من الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .

﴿سبحان ربك رب العزة عما يصفون . وسلام على المرسلين . والحمد لله رب العالمين﴾ .

الشيخ/ علي أحمد عبد العال الطهطاوي
تليفاكس: ٧٧٤٤٧٢٠ / ٥٧٢٣٥٣٧
محمول: ٠١٢٣٤٩٠١٣١

الجيزة في :
الجمعة – ٢ من شعبان ١٤٢٢هـ
١٩ / ١٠ / ٢٠٠١م

***

فهرس الموضوعات